

الله رب العالمين

في الفتوح والروايات الأولى

لـ

د. محمد عبد السلام عزاب

مكتبة

مكتبة





الآداب العربية
في العصر العباسي الأول

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والقيادي بجامعة الأزهر

دار الجليل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٢ - ١٩٩٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصْدِيرٌ

العصر العباسي الأول (١٤٢ - ٣٣٤ هـ) حافل بكثير من الأحداث السياسية والتغيرات الثقافية والأدبية ، وهو عصر ازدهرت فيه العلوم والفنون والأداب ، ونبغ فيه فنون الشعراء والعلماء والكتاب ، وكان للنهضة الأدبية فيه ذروها وأثراها في كل العصور الأدبية التي تلت هذا العصر العظيم .

وهذه الدراسة التي تنتهي أول بالتحليل ، والشرح ، والنقد ، حياة الأدب العربي ، في ظلال الخلافة العباسية من ذوى الفتوذ والسلطان والهيمنة على مصائر العالم الإسلامي ، خلال قرنين من الزمان، سينجذب القارئ لما أنها قد أحاطت بجوانب كثيرة من آفاق البحث الأدبي لهذا العصر ، المتشعب بالأطرااف ، المتعدد الجوانب ، وأنها تصور هذا العصر تصويراً واضحًا ، معين الألوان والسمات .. والله ولـى التوفيق ، والمهدى إلى أقوم طريق .

وـما توفـق إلاـ باـهـهـ

المؤلف

الحياة الأدبية في العصر العباسى الأول

١٣٢ - ٢٣٤

العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٥٣٤

يبدأ هذا العصر منذ أن أعلن أبو العباس السفاح في السكوفة قيام الخلافة العباسية ، ولقد أخذ أبو العباس في توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتنشيط أركانها ، وتتابع الخلفاء من بعده ، يسيرون على نهجه من التهوض بها ، والقضاء على خصومها ، والعمل على بناء مجدها ، وعلى رفع منارة العلم والأدب والحضارة في جميع جوانبها ، كل ذلك والخلافة في قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ، والسلطان بأيديهم ، والأمر لهم وبهم ؛ لرأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبى في شؤونهم ، لأن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت لاتزال تأثر بأمرهم ، وتحضى بشيئتهم ، ولا تتطاول إلى مقام توجيههم ، فضلاً عن مناؤتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ؛ بل كان أقل غروراً أو تطاول أو تدخل في شؤون الملك يجدو من أحد منهم ، خليقاً بأن يثير عليه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما فعل السفاح بأبي مسلم الخراساني ووزيره الفارسي ، والمنصور بأبي سلمة الخلال مع أن كلاً منها يعد أكبر مؤسس لخلافة العباسيين ، وكما صنع الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالأفشارين .

مكذا كان سلطان الخلفاء بالرغم من تفريتهم للموالى وقيام سياستهم على الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من جهود في سبيل تأسيس الدولة ، وعلى هذا النحو من النفوذ والقوة ، كانت الخلافة في عصر السفاح فالمنصور فالمدحى فالمهادى فالرشيد فالإمداد فالمؤمن فالمعتصم فالواشق فالموكل الذى ولى الخلافة عام ٢٣٢ هـ ، والذى كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة .

وفي عصر المتوكل أخذ الحزب التركي العسكري يتآمر على الخلافة والخليفة ، ويحاول التدخل في شئون الدولة ، واتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام ٢٤٧ھ . وبذلك ينتهي عهد نفوذ الخلفاء (١) ، ويبدأ عهد آخر جديد يسود فيه نفوذ الأتراك وتشتد هيمنتهم على الخلافة .

ويستمر هذا العهد من عام ٢٤٧ حتى فتح البوهين لبغداد عام ٢٣٤ھ .

وهذا العصر بعده هو أزهى عصور الإسلام ؛ وصفحاته المشرقة أنسخ المصححات في التاريخ السياسي والأدبي للعرب .

ولابدُع فقد بلغت فيه الدولة الإسلامية المظفرة متهى ماطمئن إلى من المجد والسلطان ، وغاية ما تصبو له من حضارة ومدنية ، وثقافة وعرفان .

كانت مملكة العباسين فيه تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين ، وكان نفوذ الخلفاء العباسين بالغاً غايتها في العالم المعروف آنذاك ، يذكر اسمهم في بيزنطة أو روما أو الصين ، فترتعد الفرائص وتتحقق القلوب وتحقى المآمات ، وتسير جيوشهم المتصورة في كل مكان ، وترتفع رأيهم في كل أفق ، حيث يستظل بظلها الملايين العديدة من سكان الدنيا ، ويدينون لها بالولاة والوفاء .. وكان خلافة بنى العباس ولاة في كل إقليم ، وحكام في كل قطر ، ينشرون الأمن والعدل والتور والعلم ، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين . و الخليفة المسلمين - وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء ، ويتعلماها الناس من كل لون وجنس ، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت ، وتسقى حيثما استقرت .

(١) يختلف مؤرخو الأدب في نهاية هذا العصر ، فالبعض يجعلون نهايته من بدء خلافة المتوكل عام ٢٣٢ھ (ضي الإسلام ج ١ ص ٢ ، تاريخ أدب اللغة العربية لمورجي زيدان ١٧ / ٢ ، و تاريخ الأدب للزيارات ص ٢١١) ، والبعض الآخرون يجعلون نهايته مصرع المتوكل عام ٢٤٧ھ .

وفي هذا العصر نبغت الفنون الإسلامية ، وازدهرت الأدب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات في كل مكان ، تتفق العقول ، وتذهب إلى التفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس في حلقاتها المسلمين على اختلاف عناصرهم ، وألوانهم وديانتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويبينون لأمتهم مكانها الرفيع في عالم الفكر الإنساني ، ويؤثرون للحضارة بعدها الزاهي ، ويرفعون للتفكير منارة السامة .

وهكذا يمتاز العصر العباسي الأول بغلبة العناصر الفارسية نحو من مائة عام ، ثم بغلبة العناصر التركية مائة عام آخرى ، كما يمتاز بتجمع الثقافات وظهورها في الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبحرية الفكر ونفوذ المعتزلة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول في العلوم والأدب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للعلم والأدب . كما يمتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثيل في تاريخ لغة العرب .



قيام الدولة العباسية

- ١ -

لابد من ذكر التاريخ الإسلامي في ثباته وأطواله ، وحرادته وأحداثه ،
أمرًا أغرب ، ولاحدثنا أجمل ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك
بني أمية ، وعرشهم الذي رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل
والسخاء وفوة السلطان وطول البطش والعنف والطغيان .

وكان قيام ملك بنى العباس نتيجة لخدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة
مثيرة ، وخاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع
مقابلة الخلافة الإسلامية في أيدي العباسين :

١ - وأول هذه الأسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول صلوات
الله وسلامه عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإزال المون بهم في كل
مكان ، مما يصور بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسي المشهور ، في إحدى
قصائده حيث يقول :

أحبابي ما عاشوا وأهل ثقافي لهم في نواحي الأرض مختلفات وأيديهم من فيهم صفرات وآل زياد حفل القصرات (٢) وآل رسول الله في القلوات أكفا عن الأولئك منقبضات	ملامك في أهل النبي فأنهم لم كل حين نومة بمصاجع أرى فيهم (١) في غيرهم متقدما فآل رسول الله نحف جسومهم بنات زياد في القصور مصونة إذا وتروا مدوا إلى أهل وترم
--	---

ولقد شيل هنا الضهاد : البيت العلوي ، من ينسبون إلى الإمام على
بن أبي طالب ، ابن عم الرسول السكري ، والبيت العباسي ، مما ينسبون إلى

(١) الفء : الخراج والفنية . صفرات : خاليات .

(٢) حفل القصرات . ضخامة الأعناق ، كنایة عن سعنهم .

العباس بن عبد المطلب ، عم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .
ومصرع الحسين بن علي في كربلاء ، ومصارع أهله وأسرته ، ونفي بعضهم
من الحجاز ، شاهد على ما تقول .

ولما ازداد عرف الأمويين واستبدادهم بالعلويين ، ذهب ساداتهم يؤلفون
الجماعات ، ويكونون العصابات ، ويعملون الحروب والثورات على خلفاء
بني أمية . وكان الشيعة يرشخون لخلافة المسلمين من آل البيت سيداً بعد
سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ، ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية
ثم لابنه أبي هاشم العلوي بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقىها في الحميّة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث
أقام على بن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسى العريق . ويروى بعض
المؤرخين أن أبو هاشم — الذى لم يكن له أبناء يرثون دعوته — رشح
لإمامية الشيعة بعده ابن عمّه علياً هذا ، وأدى بنصيبيه من الخلافة إليه وإلى
أولاده ، وأوصى أولياءه باتباعه ، ويرى آخرون أنه تنازل لمحمد بن علي .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى يد بني العباس ، فصارت
الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، ونهضوا هم بالعبء كابر عن
كابر ، وما جد بعد ماجد : على العباسى ، ثم ابنه محمد بن علي ، الذى ذاعت
على يده الدعوة لآل البيت في كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية في
السکورة وخراسان ، وكان محمد ينصر دعاته بأساليب الدعوة . والبلاد التي
يقطن فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم في خراسان ، حيث «المشرق»
ومطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق ، وحيث صعنف سلطان بنى أمية ،
وسلامة القلوب والصدور ، والمحب لآل النبي وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم ، الذى حبسه مروان بن
محمد آخر خلفاء بنى أمية ، حتى مات في الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه
أبو العباس .

ولقد نجحت دعوة الدعاة بنجاحاً باهراً ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، في العراق وفارس ، وأخذوا يننزلون الأمويين في هذه البلاد . فطردوا ولائهم في خراسان ، وهزموا جيوشهم في فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق في قبضة المسودة ، أتباع بنى العباس ، وشيعة آل البيت .

وفي ربيع الأول من عام ١٣٢ھ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بهذه قيام الدولة العباسية ، واتمام دولة بنى أمية ، وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنينج ، وبهذا لقب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لمنازلة بنى أمية وجنودهم في الجزيرة والشام . وفي معركة « نهر الواب » قتلى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوماً مذحوراً ، حيث تبعه صالح بن عم الخليفة العباسى ، وبقى عليه ، وقتل في آخر العام نفسه .

٢ - وثاني تلك الأسباب التي ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للوالي عامة .

فقد كانت دولتهم - كما علمنا - عريبة أغرايبة خاصة ، إذ كانوا يعتزون بالعرب اعتزازاً كبيراً ، ويحتقرن الموالي احتقاراً شديداً ، حتى كانوا لا يستعينون في دولتهم بأحد منهم ، وكان الحاج واليهم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي (١) ، وكان لا يلي الخلافة أحد من أبناء المولددين الذين ولدوا من أمهات أربعينيات (٢) ، وكان العربي في جيش الخلافة في فرق

(١) ٢٠٧ : ١ العقد الفريد .

(٢) ٢٩٧ : ٣ المرجع نفسه .

الفرسان، والموالي في عداد المشاة، ومنع الأمويون زواج الموالي بالعربيات بل أبطلوا ما وقع من أمثال ذلك الزواج، يروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني أن رجلاً من الموالي خطب عريمة من بنى سليم وتزوجها فذهب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة وشكراً إلى واليها إبراهيم بن هشام، فأرسل إبراهيم إلى هذا المولى، ففرق بينه وبين زوجته، وضر به مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال محمد بن بشير في ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا
ولم ترث الحكومة من بعيد
وفي المائتين للوالي نسكا
وفي سلب المواجب والحدود (١)

ويقول الأصفهاني : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربي من السوق ، ومعه شيء ، فرأى مولى ، دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا للسلطان يغير عليه ، وصدق الماحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عربية أعرابية (٢) .

من أجل ذلك كله حقد الموالي على دولة بنى أمية ، وأضمروا لها الكراهة والبغضاء . وكان العنصر الفارسي أكثر الموالي حقداً ، وأشدتهم موجدة ، وأكفهم غيظاً وحنقاً على سلطان الأمويين الجائر ، وحكمهم الباطش ، وطغيانهم الشديد لأن له تاريخاً قدماً ، وملكاً بائداً ، وحضارنة موروثة ، وكان الفرس يحملون باستعادة دولتهم ، واستقلال أمتهم ، وإحياء حضارتهم؛ وبهذا كان لهم الفضل الأكبر ، واليد الطولى في قيام ملك بن العباس ، فالثورة على الأمويين قامت في بلادهم ، وكانوا هم جندها والمحاربين في سبيلها وكان منهم القواد السkickار ، الذين حطموا خلاقة بنى أمية وعشّهم ، كأبي سلية الخلال ، وأبي مسلم الخراساني .

(١) الأغاني ٥٠ ج ٤ و ٢٥٦ : ٢ : الكامل ، ٩٣ : ٣ العقد .

(٢) ٢٠٦ ج ٣ البيان والتبيين .

ولهذا كله كان للفارسيين في بدء الدولة العباسية نفوذ كبير ، ومقام خطير ،
ما يصوره لنا داود بن علي عم السفاح في خطبته له : **يَا أَهْلَ السُّكُوفَةِ :** إنا والله
مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاحت الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ،
فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وقول أبي جعفر
المنصور : **يَا أَهْلَ خَرَاسَانَ أَتْمَ شَيْعَتْنَا وَأَنْصَارَنَا وَأَهْلَ دُعَوَتْنَا ،** وأوصى
بهم قبل وفاته بـالمهدى فقال : **أَوْصِيكَ بِأَهْلِ خَرَاسَانَ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ أَنْصَارُكَ**
وشعيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج
محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتجاور عن مسيئهم . وتساهمهم على
ما كان منهم . وتختلف من مات منهم في أهله وولده ..

٣ - **وَثَالِثُ الْأَسْبَابِ** في قيام الدولة العباسية ، **وَالْقَضَاءُ عَلَى الْخَلَافَةِ**
الْأَمْوَيَّةِ : هذه العصبيات القبلية ، التي أشعلت نارها خلفاء بنى أمية ، مما يفسره
كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية في هذا العصر ، وهذه
العصبيات ظلت ملازمة لعمد الأمويين .. وأخيراً وجدنا مروان بن محمد
يتغصب لقومه نزار على اليمن ، فانحرفت اليه عنه إلى المدعوه العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يوججون الخلاف بين القبائل
العربية ، ليشغلوا الناس عن سيادتهم ، ويصرفون عن تنبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراساني بأمر قيادة جيوش العباسيين في خراسان ،
لم يجد صعوبة ، في تأجيجه نيران الخصومات بين القبائل وزعامتها : وبذلك
تمكنه أن يتغلب عليهم جميعاً ، وأن يجعلهم يفتون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم
يستطيع زعماء المضر بين ، وجديع بن شبيب السكري مافق سيداليانة : وشيبان
ابن سلمة الحروري رئيس زبيعة ، لم يستطع هؤلاء جميعاً الوقوف أمام
الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المنهمر من العراق والشام .

وكان كل عربي شديد التغصب على أبناء القبائل العربية الأخرى ..

ما يصوره لك هذه الآيات ، يقول رجل من بنى أسد بن خربة يدعى
يحيى بن حيان :

ألا جعل الله الپیانین كلامهم
فدى لقى الفتیان یحيى بن حیان
ولولا عریق فی من عصیة لقلت : وألغا من معد بن عدنان
ولکن نفسي لم تطب بعشیرتی وطابت له نفسی بأبناء قحطان

— ٢ —

فلا عجب إذن أن تفرض دولة بنى أمية ، وينشق من الأفق نور جديد ،
يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفنية الناشئة ، التي بادرت بقتل مروان بن محمد
آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم في كل مكان .
وكان الشاعر يؤججون نار الانتقام في نفوس العباسيين . دخل سديف
الشاعر مولى بن العباس على السفاح ، فألفى بمحلسه سليمان بن هشام هادنا
طمئتنا ، لتأمين أبي العباس إياه ، فأنشد :

لا يفرنك ماترى من رجال إن بين الضلوع داء دواها
فضمع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمورا
فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعد أمانته .. ودخل شبل
عبد الله مولى بن هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنه من بنى أمية نحو المائة ،
فأنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس بالهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الرمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً واقطعن كل رقة وغراس (١)

(١) الرقة : النصلة فاتت اليه واجمع دقل ورو قال .

ذلماً أظهر التودد منها وبها منكم سخر المواسي
ولقد ساءني وسام قبلي قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإعراض

فأمر بهم جميعاً فقتلوا .. وبهذا البطش والتشكيل ، خاص الملك لبني العباس ، وقفى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلفتها الكوفة ثم بغداد .. وهكذا تدول الدول ، وتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ؛
ويذل من يشاء ...

تولى عرش الخلافة في هذا العصر من بنى العباس خلفاء ، دانت لهم الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة .

وكان أولهم السفاح ، الذي اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل الكوفة عاصمة للسلطة ، وظل في الخلافة أربعة أعوام (١٣٢ - ١٥٨ هـ).

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من عشرين عاماً (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، وطد فيها ملك بنى العباس ، وبنى بغداد عام ١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم العريقة في الثقافة والحضارة ، وكان متقدماً في علم الكلام داهية أدبياً مصرياً في رأيه . جليل التدبر حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن الدول رونقاً ، وأوسعاها رقعة ، ييد أنها صبغت في عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدى، الذي ازدهرت في عهده الحضارة وشاع الترف وتقدمت العلوم والفنون والأداب ، وعاش في رعايته كثير من العلماء والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نُكل بالزنادقة ، ومات عام ١٦٩ هـ فتولى بعده ابنه المادى ، الذي ظل في الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخيه هرون الرشيد ابن المهدى .

وكان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تجتمع بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما جتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد من خولة الشعراء ^(١) . وكان الرشيد يقتفي في سياسته آثار جده المنصور ، وفي سماحته آثار والده المهدى ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزيره من البرامكة بطش بهم في عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكبهم نكبة هرت النفوذ الفارسي هرزاً عنيفاً ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) .

ويعد عهد المأمون درة في تاج الحضارة الإسلامية ، وغرة في جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم في أيامه ، ونبغ حول المفكرين وال فلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهرت حركته الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد في أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة بعد أن قتلوا أخيه الأمين . وتولى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، وكان عسكرياً بشأنه وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأزاك ، فبدأ نفوذهم في الدولة على أيامه ، وبنى (سامرا) واتخذها حاضرة للملك عام ٢٢١ هـ ، وسارت في عهده نهضة العلم والأدب في طريقها الذي كانت تسير فيه . . . وولى بعده ابنه الواثق (٢٢٧ - ٢٢٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٤٧ - ٢٤٢ هـ) .

وفي عهد جعفر المتوكل على الله اشتد نفوذ الترك ، واستحكم العداء للشيعة ، واضطهد المعتزلة والاعتزاز وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها ، حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتله الأزاك عام ٢٤٧ هـ . وبذلك بدأ طور

(١) ١٧٠ ج ٣ يقية الدهر للثعالبي . وحمل الرشيد معه ملائكة إلى الرقة ثمانية عشر صندوقاً من الأسفار ليقطع بطالعتها زمانه ، مع أنه لم يأخذ معه الانجوبة بما في خزاناته (٥٦٧ : الأغانى) .

جديد في تاريخ الخلافة العباسية؛ وهو عهد نفوذ الأتراك الذي ظل قريباً من مائة عام آخر (٢٤٧ - ٥٣٤) وتولى فيه الخليفة المنصور والمستعين والمعز والمهتدى والمعتمد والمعتصد والمسكتى والمقدر.

— ٤ —

وفي فترة نفوذ الخلفاء كان للعنصر الفارسي مكانة عالية عند العباسين، وحظوة كبيرة في قصورهم، وكان يده مقايد الأعمال، وتصريف شئون الخلافة، كان الخليفة عرياناً هاشماً، ولكن وزرائه وأكثر قواده فارسيون؛ يزيد سلطانهم، ويقوى لفوذهم يوماً بعد يوم، ويزداد تبعاً لذلك شأن المولى في الدولة؛ حتى كان أكثر من تولي الأعمال للمنصور منهم إذ قدمهم على العرب وكثراً استخدموهم بعده؛ حتى زالت رياضة العرب وهيمتهم. وفي عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس؛ فسيطر البرامكة - وهم من سلاطات فارسية قد يدة - على شئون الدولة، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشاً عنيفاً عام ١٨٧ هـ. وكان المأمون ينتصر للفرس؛ إذ كانوا أخراجه وهم الذين أغاروه على تولي الخلافة، وأخذها من يد أخيه الأمين، ويروى أن عرياناً من أهل الشام قال له: «انظر لعرب الشام كا نظرت لعجم خراسان»، فقال له المأمون: «أكثرت على يأخاك أهل الشام، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل، إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مال درهم واحد، وأما الين فوالله ما أحبتها ولا أحببتني قط، وأما قضايعه فсадتها تتنظر السفياني وخروجه فتسكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مصر، أعرفت ذلك؟ اغزُبْ عنِّي».

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يثقوا بالعرب فأقصوه عن الحكم والسلطان وأبعدوه عن تصريف شئون الدولة، وأذلواهم بالحرروب والتشريد والانتقام وسفك الدماء. وتظهر هذه النزعة واضحة في قول إبراهيم بن محمد رأس الدعوة العباسية في وصيته لزهيم شيعته، أبي مسلم الخراساني: « وإن

استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عريياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار
تهمه فاقتله .

(من مظاهر نفوذ العنصر الفارسي نقل العاصمة إلى بغداد في العراق ،
لقربها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس السكري في
الدواوين والسياسة وأسلوب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية في كل
ناحية حتى في العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان
والتيروز وسواءها ، وانتشار ثقافة الفرس وعلومهم وأدابهم .. وكثرة
الفرس كذلك في قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، وقصرت عليهم
ال المناصب الكبيرة كالوزارة .. حتى أصبحت الدولة عربية اللغة إسلامية
الدين والأخلاق ، فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة في عهد المعتصم كرههم وحضر
منهم ، وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمده «ماردة» منهم ، وهي لهم (سامرا)،
وجعلهم قواد جيشه ، وتمكن لهم في الدولة ، ولم يمكِّن غير قليل حتى صار
لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة في عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه
عام ٢٤٧ هـ في تصره «الجعفري» ، وقتلوا معه وزيره «الفتح بن خاقان» ..
وكان ذلك مصراً دامياً لمجد الخلافة وتقوذ الخلفاء . وفي ذلك يقول يزيد
المهلي الشاعر من قصيدة طويلة في رثاء المتوكل :

لآخرن إلا أرأه دون ما أجد وهل من فقدت عيناي مفتقد؟

ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حشم السادة المذكورة الحشد

ويقول البحترى يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تغير حسن الجعفري وأنسه وقوض بادى الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه بخاءة فعادت سواه دوره ومقابرها

إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يهوج زائره
ولم أنس وحش القصر لاذ ربع سربه
وإذ ذعرت أطلاقه وجآذره
ولاذ صبح فيه بالرحيل وهاكت
على عجل أستاره وستاره
وحشته حتى كأن لم يقم به
أنيس ولم نحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة
باشانتها والملك يشرق زاهره
ولم تجتمع الدنيا إليه بهاءها
وبهجهتها والعيش غض مكاسره (١)
فأن الحجاب الصعب حين تمنعه
ببيته أبوابه ومقداصره ؟
توبر وناهى الدهر فيهم وآمره ؟
وأين عميد الناس في كل نوبة

ويقول علي بن الجهم :

عميد أمير المؤمنين قتلها
أعظم آفات الملوك عيدهما
بني هاشم صبراً لـ كل مصيبة
وصار الأترالك منذ ذلك الوقت حتى نهاية العصر العباسي الأول أصحاب
السلطان في الدولة .

- ٥ -

وكان الخلفاء العباسيون في هذا العصر يحرصون أشد الحرص على :

١ - نشر الثقافة والحضارة في أرجاء دولتهم الواسعة ، والعناية
بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواءا إلى اللغة
العربية وتشجيع الفنون والأداب في كل مكان .

٢ - الاهتمام بأمر الموالي ، وتقريفهم والإغراق عليهم ، وبسط

(١) مكسر : جمع مكسر ، وهو جزء الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال
فلان طيب المكسر أي محمود عند الخبرة .

التفوز والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالى حظاً عند الخلفاء الفرس ^م خلفهم الترك .

٣ - العناية بالظاهر الدينى الذى أقاموا عليه دعوتهم، وشيدوا على أساسه دولتهم ، ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاة أمورهم ؟ فلا عجب إذا أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة في الحشد الحاشد من رجال دولتهم وقاد جيوشهم وأن يخطبوا الناس ويعظوهم ، وعليهم بردة النبي وبين أيديهم أممه العلماء ورجال الدين ، ويصور البهتري في قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لآداء الصلاة الجامعة في عيد فطر ، تصويراً بارعاً رائعاً ، فيقول منها :

فانعم يوم الفطر علينا انه
أظهرت عن الملك فيه بمحفل
حتى طلعت بصوض وجميل فاتح ملوك
وافتنت فيك الناظرون فإصبح
يمجدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطلعتك النبي فهم ملوك
حتى انتهيت إلى المصلى لا بأس
ومشيتك مشية خاشع متواضع
فلو ان مشتاناً تكلف فوق ما
روقت في برد النبي مذكرا
صلوا ورامك آخذين بعصمة
يوم أغدر من الزمان مشهر
لحب يحيط الدين فيه وينصر
ذلك الدهجى وإنجاح ذاك العثير
يوجى إليك بها ، وعين تنظر
منْ أنعم الله التي لا تكفر
لما طلعت من الصفوف وكبروا
نور المدى يهدى عليك ويظهر
الله لا يزهى ولا يتكبر
في وسعه لسعى إليك المنين
بأنه تستذر ثارة وتبشر
من ربهم وبذمة لانخفر

الطابع السياسي في العصر العباسى الأول

- ١ -

يتميز العصر العباسى الأول (١٢٢ - ٥٣٤) (١) بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجدهم ، وبنفوذ الفرس فيه حتى خلافة المتوكل (٢٢٢ - ٥٢٤٧)، ثم ضعفت الخلافة وضاعت هيبة الخلفاء وفسدت شتون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأزراك الذى بلغ حداً كبيراً بعد ذلك (٢٤٧ - ٥٢٣٤).

وأول من استخدم الأزراك في الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة بجانب انفرس والعرب (٢)، وألف المأمون فرقاً صغيرة منهم لبسالتهم ، وعاشوا بعيدين عن شتون الدولة وسياستها ، لم يل المأمون إلى الفرس أخوه.

وكانت أم المعتصم «ماردة» تركية من السغد ، فنشأ ومعه كثير من طبائع الأزراك ، مع الميل إليهم لأنهم أخوه ، وشاهد المعتصم جراة الفرس وتطاو لهم على الخلافة بعد قتل الأمين فصار يخافون على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأزراك ويتخير منهم

(١) يقسم بعض الباحثين هذا العصر إلى قسمين (ص ٩ ج ٢ تاريخ آداب اللغة لريدان ، وه ج ٤ التمدن الإسلامي ، ٢١١ تاريخ الأدب العربي لزيارات ، ص ٦ ج ١ ضي الإسلام) . ويجعل كثير من الباحثين العصرين عصراً واحداً (آداب اللغة في العصر العباسى الأسكندرى ، ١٦ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسى لعمود مصطفى ، ١٦٥ ج ١ المفصل) .

(٢) ١٦٧ ج ٤ التمدن الإسلامي .

الأشداء يتاعهم بالمال من مواليهم، حتى اجتمع لديهآلاف من قبل أن
تفنى إلية الخلقة^(١).

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هو الحزب الفارسي مع ابنه العباس
ونادوا به خليفة، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجندي^(٢)،
فكان ذلك أيضاً ما زاد من تقرب المعتصم للجندي الأتراء وإثارة لهم.

وفي عام ٢٢٠ هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراء، اشتراهم
وبذل فيهم الأموال، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً^(٣) ثم ازداد عددهم
جيشه حتى بلغوا السبعين ألفاً^(٤). ولما صافت بهم بغداد، وكثرت
الخصومات بينهم وبين الجماعة، وبينهم وبين الفرس أني المعتصم سامراً
على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد، فاتخذها محسكراً جيشه،
وحاضرة للملك، منذ عام ٢٢١ هـ^(٥)، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة
وجيبة^(٦)، وصارت من أجل الحواضر الإسلامية، وظلت مقر الخلافة حتى
عام ٢٨٩ هـ^(٧).. أسلم الأتراء، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها،
وصاروا موضع ثقة الخليفة وإثارة، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب
ونفوذهم في الدولة، وكتب المعتصم إلى عمالة ياسقاط من في دواوينهم من
العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش، ومنعوا
الولايات^(٨).

(١) ١٦٨ : ٤ التذكرة الإسلامية.. (٢) ٣٠٤ : ١٠ الطبرى.

(٣) ٢٣٣ : ٢ التحjom الراهنة.. (٤) العصر العباسى للسباعى بىوى.

(٥) ٩ : ٤ وما بعدها مروج الذهب.

(٦) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد.

(٧) ١٠٠ : ١ ظهر الإسلام.

(٨) ١٤٤ : ٤ التذكرة، ١٦٥ حضارة الإسلام في دار السلام.

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأزراك ^(١) ، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعاً، وسعوا في قتلهم ، وموقف الأشين من أبي دلف وأمره بقتله لو لا أن أنقذه ابن أبي دؤاد معروف ^(٢) .

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عوربة وقتل بايك عام ٢٢٣ هـ ، وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، و أشهر من بينهم الأشين م ٢٢٦ هـ وشناش م ٢٣٠ هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسواهم ، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة لكرتهم وبسالتهم وتأييده الخلافة لهم ، حتى إن الواقع ^(٣) - ٢٢٧ - ٢٢٨ (٤) استخلف عام ٢٢٨ هـ أشناش التركي على السلطة وألبسه شاحين وتاجاً ^(٥) ، وفي عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب ^(٦) . ولما مات الواقع عام ٢٢٢ هـ ، سعى الأزراك في ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمها (شجاع) خوارزمية تركية ، فتم لهم ماؤرادوا ، وأتيدوا في عهده بأمور الدولة وشنون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثروه فارسيون ، وزاد في رعاية الأزراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم في الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرون المسائس والمؤامرات ، كثيرون الطمع في الأموال ، والعبيث بالأمن .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأزراك ، فليس ليتاخ حتى مات عام ٢٣٥ وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأزراك ووجوههم . ولسكنهم كانوا يحيكون نديراً آخر لقتل

(١) ١٧٠ ج ٤ التقد (٢) ٥٤ الأذكياء لابن الجوزي .

(٣) ١٣٥ تاریخ الخلفاء .

(٤) ١٢ ج ١١ الطبری .

ال الخليفة (١) ، و تقدم باغر التركي حارس الم توكل ، و معه عشرة غلبان من الأزراك ، ينفذ المؤامرة التي دبرها القواد الأزراك ، ومعهم المنتصر الذي كان أبوه الم توكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة ، فقتلواه في قصره الجعفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك في أو اخر عام ٢٤٧ هـ (٢) .

وكان قتل الم توكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، وكانت هذه الحادثة بده مصريع الخليفة ومجد الأزراك . وفي ذلك يقول البحتري :

أكان ول العهد أضر غدره فن عجب أن ول العهد غادره
فلاملك الباقي تراث الذى مضى ولا حلت ذاك الدعاء منابره

ويقول الملبى :

لاحزن إلا أراه دون ما أجد وهل من فقدت عيناي مفتقد
ومنها: فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حتىكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد الملبى هذا يشبه رأى إسحاق بن إبراهيم المصعي م ٢٣٥ هـ في الأزراك حين شنكا المعتصم غدر من أصطنعهم من قوادهم مع وفاة من أصطنعهم أخوه المأمون من الرجال له (٣) . ويقول علي بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك عبيدها
بني هاشم صبرا فكل مصيبة سيلى على وجه الزمان جديدها

(١) ٦٧ - ٦٨ ج ٤ مروج الذهب .

(٢) راجع مقتل الم توكل ومرأى الشعراء فيه في (٢٦٤ - ٢٦٥ ج ١ زهر الآداب) ، ومرثية يزيد الملبى فيه في (٣١١ ج ٢ وما بعدها من السالم للمرد ، ١٨٦ ج ٢ العقد ، ٣٦٣ ج ١ زهر الآداب) .

(٣) راجع ٨ ج ١١ الطبرى .

وإذا كان الشعب يكره الأزراك من بدء اصطدام المتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سببا في زيادة كراهة الرأى العام لهم ، ونقمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأزراك في عهد المستنصر (٢٤٧ - ٢٤٨) ، ثم في عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢) ، ثم عادوا خلعواه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه في الخلافة المعتر بالله بن المتوكل عام ٢٥٢ .

كان المعتر يكره الأزراك ، ويريد أن يثار منهم لايده ، ففي عهده قتل وصيف عام ٢٥٣ ، ثم بغا عام ٢٥٤ ، وفي مصرعه يقول البحتري من قصيدة مدح بها المعتر بالله (١) :

أضحي بناء وأقربوه وحربه وكأنهم حلم من الأحلام
طاحروا فما بكت العيون عليهم بهذه وعما وبضوا بغیر سلام

وبعد قليل سار الأزراك إلى المعتر فويخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه في الشمس حافياً (٢) ، وكان بعضهم يلطمها وهو يتق بيده ، خلع المعتر نفسه عام ٢٥٥ ؛ ثم جبوه وقتلوه ، وولوا مكانه المحتدى بن الوانق ، الذي لم يتعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، خلعواه عام ٢٥٦ ومات بعد خاتمه بأيام .

وفي عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) اشتد الخلاف بين فرق الأزراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم فولى المعتمد أخيه الموفق أمير الجيش والولايات عام ٢٥٧ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلى الموفق للالمعتمد ، وصارت كل منه هي العليا على الأزراك وقوادهم ، فكبح غير قليل من جماحهم ، وأثر ذلك في حسن الأحوال قليلاً .

(١) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ = ٢ ديوان البحتري .

(٢) ١٦٢ - ١٣٠ ج ٢ شهارات الذهب ، ٢٠ ج ٤ مروج الذهب

وسار المعتصد بن الموفق في خلافته (٢٧٩ - ٣٨٩ هـ) سيرة أبيه ،
فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ،
ولم يحابهم على حساب القانون والعدالة ، فاتّص من تركى ارتكب معصية (١)،
وقتل قائد أتراكياً قتل غلاماً له ومدحه ابن الروى على ذلك (٢) ، وفي
المعتصد يقول ابن المعزن من أرجوزته في تاريخه :

قام بأمر الملك لما صاعا
وكان نهباً في الورى مشاعا
وكل يوم ملك مقتول
وخاف مرؤ ذليل
وكل يوم شغب وغضب
وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل
قصبها نفسمها في المخفل
ويطلبون كل يوم رزقاً
يرونه دينماً لهم وحقاً
كذاك حتى أفقروا الخلاقة
وعودوها الرعب والمخافة

ومات المعتصد ، فسار ابنه المكتفي (٣٩٥ - ٢٩٥ هـ) في خلافته بسيرة
والده من الحزم والازم والأخذ على يد الأتراك . وبعد وفاته وللأتراك
أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ، وأيدوا عرشه بيطشهم
وظل خليفة إلى عام ٣٢٠ .

وهكذا كانت أمور الدولة في هذه الفترة تسير في طريق بعيد عن
المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ في أيدي الأتراك ، الذين لم يبالوا بشيء
في سبيل أهواهم وشهواتهم ، واعتادوا على قدسيّة الخلاقة وجلال الخلفاء ،
وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويستعرضون للحرم والغلام ، فسُكّر هم
الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم في الدولة جراحاً داماً يؤلم كل عربي
صحيحاً ، حتى هجا داعي الم توفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

(١) راجع نشوار الحاضرة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان ابن الروى ص ٣٠٣ .

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسم
وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهانة فانت له أم وانت له أب
ويقول العلوى صاحب النجف م ٧٧٠ :

بني عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قدیماً أصلها وعمودها
فما بال مجتمم الترك تقسم فيتنا ونحن لديها في البلاد شهودها
فأقسم لاذقت القرابح وإن أذق فبلغة عيش أو يباد حميدها (١)

وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التي اشتراك فيها
الجند الشاكرية ؛ وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة ، وقد حاول بعض زعماء
الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأي العام وبخضه لهم ، وقاموا بدعويات
كثيرة ، كان من أبرزها رسالة كتبها الجاحظ ياتحه الفتح بن خاقان ، وحاول
بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والأللة بين الأتراك وجمهور الشعب ، وقد
قدمها الجاحظ إلى الفتح ، والظاهر أنه كتبها في أيام المعتصم ، ولكنها لم
تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب ، فأعاد كتابتها من جديد في عهد
المتوكل ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك
وبطوطتهم إلى حد بعيد (٢) ؛ وهذه المحاولة وسواسها من المحاولات قد فشلت
جميعاً في الوصول إلى الغرض المنشود .

وكثير نفوذ الغلبان في هذه الفترة وخاصة في عهد المقندر ، الذي كان
عنه أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان (٣) ، وتولى كثير من الخدم
قيادة الجيوش وأهم الأعمال في الدولة ؛ كبد رغلام المعتصم ، الذي تولى قيادة

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) راجع رسالة الجاحظ في مناقب الترك وهي في أول مجموعة رسائل الجاحظ .

(٣) راجع المقدن ج ٤ ص ١٧٥ ، أدب اللغة لزیدان ج ٢ ص ١٥٤ .

الجند ونقش اسمه على الأعلام، وأُبل في خدمة مولاه بلاه حسناً ، حتى
قتل في سبيله عام ٢٨٩ هـ . ونشطت النساء ، وكثير نفوذهن أيضاً في الدولة ،
وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لسلطان الخدم والحجاج .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية ؛ استقلت كثيرون من البلاد عن خلفاء
بغداد وأئم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٥٢٩٢ - ٢٥٤)
وهي تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٢٢ - ٣٥٣) ، وهي تركية
أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ - ٢٥٩) وهي فارسية ،
والدولة السامانية في ما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩) وهي فارسية أيضاً ،
والدولة الصفوية بفارس (٢٥٤ - ٣٩٠) ، والدولة الدلفية بكردستان
(٢١٠ - ٢٨٥) وهي عربية ، والدولة العلوية بطبرستان
(٣١٦ - ٢٥٠) .

وقد حفل هذا العصر بكثرة ثورات العلوين وخروجهم على الخلافة ،
ما تجد أخباره وتقابله في «مقابل الطالبيين» ، وسبب ذلك راجع إلى
اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فتشهد كثيرون اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الخاطئة ، وأسرف في ذلك
المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهاد الشيعة ، وشدد النكير ،
عليهم ، وصادر أموال العلوين وشيعتهم ، وغال في تشريدهم ، وأمر في عام
٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكر بلاء (١) .

(١) ٢٧٩ ج ٣ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الخضرى بك ، ١٩
جز ٧ وما بعدها ابن الأثير .

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم ^(١) ، من حيث كان المأمون يرعى العلوين ولا يؤذى أحداً منهم ^(٢) ،

وكان الم توكل يبغض المأمون والمعتصم والواشق لمحبتهم لعلى ^(٣) وكان شديد البغض لعلى وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خروالته من الترك وسلطان الأتراك في الدولة . وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة ، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت في الدولة بعد الم توكل موجة اضطهاد العلوين والشيعة ، فالمنتصر كان يقاوم العلوين كأبيه ^(٤) ، وتدذر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلاته بالبيت العلوي ولكن لم تطل مدة ^(٥) .

ولكن عهد المتعضد كان عهد خير على العلوين ، فإنه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذام ولا قتل منهم أحداً ^(٦) .

وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتنى ففهم عنه ^(٧) .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد حسنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

(١) العقد ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل على (٢٧٩ - ٢٨٦ ج ٣ العقد) .

(٣) ظهر الإسلام ص ٤١ ج ١ .

(٤) الإداراة الإسلامية لكرد على ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .

(٥) ظهر الإسلام ص ٤٤ ج ١ .

(٦) الفرج بعد الشدة ص ١٢٢ ج ١ .

(٧) الأغاني ص ١٤٣ ج ٠٩ .

الطابع الاجتماعي لهذا العصر

- ١ -

ترتكز الحياة الاجتماعية (١) على الحالة الاقتصادية للدولة رقياً وضفراً.

والحياة الاقتصادية في هذا العصر كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء (٢) ، وكان كبار الملاك يستقلون بقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسرقونها أمام ضيّارهم (٣) وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب الوزير أمام المهتدى ، وعمت المصادر وانتشرت بين طبقات الناس وأصبحت بتواقي الأ أيام المصدر الرئيسي لبيت المال (٤) ، وأنشئ هاديوان مخصوص (٥) .

وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة (٦) . ويدل على مدى قوّة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث - كما ذكر ابن خرداذبة - نحو ثلاثة ملليون درهم (٧) بعد أن كان في عهد المأمون

(١) يراد بالحياة الاجتماعية ما يُؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .

(٢) ٤٤ تاريخ الحضارة الإسلامية بارتولد .

(٣) ١٥٦ : ٧ مهذب الأغانى .

(٤) ٤ التمدن الإسلامي : ١٦٩ : الإدارة الإسلامية .

(٥) ٣٥ : ظهر الإسلام و ١٦٩ الإدارة .

(٦) ٥٣ بارتولد و ٦٩ : ٥ الفتن .

(٧) ٦١ : ٢ التمدن .

والرشيد أكثر من ٣٩٠ مليونا (١) ، وفي عهد المعتصم ٣٨٨ مليونا (٢) .

وكان نفقات المعتصم سبعة آلاف دينار في اليوم (٣) وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليونا من الدرهم في العام (٤) . قالباقي من مجموع الجباية هو الذي يبق في بيت المال تحت تصرف الخليفة (٥) .

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواعهم من طبقات الخاصة (٦) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليونا من الدنانير - ٦٠٠ مليون درهم - وترك الرشيد واحدا وعشرين مليونا (٧) . وترك المعتصم في خزانة الدولة أموالا طائلة فوق ما تركه من ثروة خاصة .

وكانَ الدُّولَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مَوْلَفَةً مِنْ عَدَدٍ عَنَاصِرٍ أَهْمَهُمَا :

١ - العنصر العربي : أقصى عن النفوذ في الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم في ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون في الشام والجزيرة حيث كانوا لهم هناك دويلات كثيرة وطابع العربي الزهو

(١) راجع ١٧٩ - ١٨١ مقدمة ابن خلدون ، و ٣٥٥ : ٢ التمدن ، و ١٥٢ حضارة الإسلام في دار الإسلام .

(٢) وذلك وفق ما ذكر قدامة في كتاب الخراج ، ٥٩ : ٢ التمدن . ومتوسط الجباية في العصر الأول كان نحو ٣٩٠ مليونا في العام اينفاق منها على مصالح الدولة نحو ٥ مليونا والباقي يظل في بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منه المرتبات والمكافآت ، ٦٩ و ٧٠ : ٢ التمدن .

(٣) ٣٥٥ - ٣٥٣ : ٣ الحضرى بل .

(٤) ٦٦ : ٢ التمدن .

(٥) ٦٧ : ٢ التمدن .

(٦) ١٠١ : ٥ التمدن .

(٧) ٢٣ : ٢ وما بعدها التمدن .

والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة في السيادة .

٢ - العنصر الفارسي : وكانوا أعماد النظام السياسي والإداري للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن مزتهم التي كانت لهم في العصر الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس والمؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال عن الخلافة ؛ وكانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبة ، وبعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف .

٣ - الآراك : وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شئ المناصب الرفيعة في الحكومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة ^(١) ، وكان فيهم عبث بالأخلاق وشرامة في جمع الأموال ^(٢) ، وكانوا مشهورين بالجهال والنظافة ، فكثرت الجواري الآراك في قصور الخلفاء والآثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندي والفروسية والانتصار لذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل في الدين . وحب المال وجمعه من أية سهل ، مع عدم الرغبة في الإصلاح .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وهما الزنج والروم :

أما الروم : فقد كثر أسرارهم في بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وكانت الجواري الروميات والغلبان الروم يملأن القصور ، وتشققهم الشعراء ، فكان للبحترى غلام رومي اسمه نسيم ^(٣) ، وكذلك كان لسواء من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومي م ٥٢٨٣ .

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) معاهد التنصيص ص ١٠ ج ١ : ١٩٤ ص ٧ .

وأما الزنج أو السود فـ كانوا يـ جـلـبـونـ منـ سـواـحـلـ أـفـرـيـقـياـ الشـرقـيةـ ،
وـكانـواـ يـعـمـلـونـ فـيـ الزـرـاعـةـ وـالـصـنـاعـةـ وـفـيـ بـيـوتـ الـطـبـقـاتـ الـمـتوـسـطـةـ ، وـلـيـسـ
أـدـلـ عـلـىـ كـثـرـهـمـ وـخـطـرـهـمـ مـنـ ثـورـةـ الـتـيـ هـدـدـواـ بـاـهـاـ الدـوـلـةـ (٢٥٥ - ٥٢٧) .
وـكـانـ حـرـبـاـيـنـ الـأـجـنـاسـ ، وـظـلـتـ حـتـىـ قـضـىـ عـلـيـهـاـ المـوـقـعـ عـامـ ٢٧٠ .

وـكـانـ الفـرقـ بـيـنـ طـبـقـةـ الـخـاصـةـ وـطـبـقـةـ الـعـامـةـ كـبـيرـاـ (١) ، وـالـنـفـوذـ وـالـثـرـوةـ
فـيـ يـدـ الـخـاصـةـ مـنـ النـاسـ مـاـ يـسـتـلزمـ التـرـفـ وـالـلـمـوـ وـالـمـغـالـةـ فـيـ الـبـنـيـانـ . فـقـدـ
أـنـفـقـ الـمـعـتـضـدـ عـلـىـ بـنـاءـ (ـسـامـرـاـ)ـ أـمـوـالـاـ طـاهـةـ ، وـكـذـلـكـ فـعـلـ الـمـوـكـلـ فـيـ
بـنـاءـ الـجـعـفـرـيـ وـسـوـاهـ . نـمـاـيـاـ الـتـيـ أـنـفـقـ عـلـيـهـاـ نـحـوـ خـمـسـةـ مـلـاـيـنـ مـنـ الدـنـاـيـرـ ،
وـبـنـىـ الـمـعـتـضـدـ قـصـرـ التـاجـ فـيـ الـجـانـبـ الـشـرـقـيـ مـنـ بـغـدـادـ وـأـنـهـ اـبـنـ الـمـكـنـقـ ،
وـبـنـىـ الـمـعـتـضـدـ عـلـىـ بـعـدـ مـيـلـيـنـ مـنـ الدـنـاـيـرـ مـنـ قـصـرـ الـثـرـيـاـ الـذـيـ بـلـغـ طـولـهـ ثـلـاثـةـ فـرـاسـخـ
وـأـنـفـقـ عـلـيـهـ نـحـوـ نـصـفـ مـلـيـنـ مـنـ الدـنـاـيـرـ ، وـرـصـلـهـ بـالـقـصـرـ الـحـسـنـيـ بـسـرـدـابـ
تـحـتـ الـأـرـضـ بـلـغـ طـولـهـ مـيـلـيـنـ وـكـانـ تـمـشـيـ فـيـ جـوـارـيـهـ وـحـرـمـهـ (٢) . وـفـيـ
تـهـنـيـةـ الـمـعـتـضـدـ بـقـصـرـ الـثـرـيـاـ نـظـمـ اـبـنـ الـمـعـتـضـدـ فـيـ صـيـدـتـهـ :

سلـمـتـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عـلـىـ الـدـهـرـ لـاـزـلـتـ فـيـنـاـ باـقـيـاـ وـاسـعـ الـعـمرـ
حـلـلتـ الـثـرـيـاـ خـيـرـ دـارـ وـمـنـزـلـ فـلـازـالـ مـعـمـورـاـ وـبـوـرـكـ مـنـ قـصـرـ
فـلـيـسـ لـهـ فـيـهـ بـنـىـ النـاسـ مـشـبـهـ لـاـ بـيـنـاءـ الـجـنـ فـيـ سـالـفـ الـدـهـرـ

ويـصـفـ فـيـ أـرـجـوزـتـهـ فـيـ الـمـعـتـضـدـ قـصـرـ الـرـبـابـ فـيـقـولـ :

فـنـ رـأـيـ مـثـلـ الـرـبـابـ قـصـراـ كـمـ حـكـمـةـ فـيـهـ تـخـالـ سـحـراـ
أـبـنـيـةـ فـيـهـ جـنـانـ الـخـلـدـ لـكـلـ ذـيـ زـهـدـ وـغـيـرـ زـهـدـ
تـخـبـرـ عـنـ عـزـ وـعـنـ تـمـكـنـ وـحـكـمـةـ مـقـرـونـةـ بـالـدـينـ
وـمـظـهـرـاتـ قـوـةـ إـلـاسـلـامـ عـلـىـ أـعـادـيـهـ مـنـ الـأـنـامـ

(١) رـاجـعـ الطـبـقـاتـ الـاجـتـمـاعـيـةـ وـحـيـاتـهـاـ فـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ فـيـ الـتـدـنـ الـإـسـلـامـيـ

(٢) ٢٠ - ٥٩ - ١٢٩ - ١٠١ ، ٥ : ٥ : ٥ .

(٣) الـتـدـنـ الـإـسـلـامـيـ صـ ٩٣ وـ ٩٤ جـ ٥ ، وـظـهـرـ الـإـسـلـامـ جـ ١ صـ ٩٩ .

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة . على حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس ^(١) .

وكان من مظاهر الترف في هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الواقع حتى امتلأت به القصور، فكثر نسل الجواري واختلطت الدماء، وأشاع هؤلاء الجواري فن الغناه ، كما نشرن لهم والمحبون بين شتى الطبقات .

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضًا للنحل ، وب مجال الدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب ، الذين كانوا يزجرون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة . فكان فيها التشيع برجاته ، والاعتزاز بطرازه ، والستة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبيها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوانف الأديان الأخرى بعبادتهم وآرائهم ،

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمحبون في المجتمع، ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها ، ومنهم الختابة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المحبون والإلحاد والترف . وفي بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول على بن الجهم وأصفه قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

ومازلت أسمع أن الملو كتبني على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجال يقضى عليها آثارها
فلا رأينا بناء الإمام رأينا ثلاثة في دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أمصارها

(١) ظهر الإسلام ١٢ ص ٩٧ .

وللرقم ما شيد الأولون وللفرس آثار أحراها
ولضيق الرزق وأبوابه على كثير من الناس كثراً أهل السكينة ، إذ
كانت تدر عليهم أخلف الرزق .

وحدث املاج شديد بين العناصر والأجناس التي تكونت منها الدولة
وأحدث ذلك آثاره في الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقام الصراع بين
الموالي والعرب ، وشبّت نيران الشعوبية ، وكثير لفظ دعاتها ، من يسرون
الشعوب الأجنبية بالعرب أو يرفعون من شأنهم ويفضلونهم على العرب ؛
وكانت غلبة النفوذ الفارسي ذات أثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فانتشرت
الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد الفارسية ، وصعد الموالي إلى أعلى
مناصب الدولة ، وانشر الرفيق والغناء ، وكان لها أثرها في الحياة الاجتماعية
وفي ازدهار الشعر كذلك .

ولقد فتح الله لل المسلمين الأرض ، ودان حكمهم الشرق والمغرب ،
وخلقت سلطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ،
ومدنية باهرة وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفي أقل من قرن أصبحت
دولتهم تمتد من الأندلس ومراکش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم
العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها
قبائلهم ، واحتلوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة
في الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن السكري ، واتصلوا بالعرب
في السكنى والمعيشة ، والتجارة وشئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ،
وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا
من آباء عرب وأمهات أجنبيات (١) .

(١) يقصد بالعجم ماعدا العرب ، أي السلالات الأجنبية غير العربية : من
فرس وروم وهنود وسريان وحبيش وزنج وسواهم .

وكان العرب قبلهم السادة والحكام ، وييدهم شئون الدولة والولاية ، ولم ينفوا النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ما هو عربي ، ويضعون الأعاجم في منزلة دون منزلتهم . فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالى يرثون رؤسهم ويعتزون بكرامتهم؛ وينون بأياديهم على الخلافة ، وينادون بأن لافضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأعرق منهم سلطاناً ، وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد ، وأصبح منهم الوزراء والقواد ، وكبار الكتاب وحاشية الخليفة ، وعمالة ولاته . . . وهكذا زاد امتناعهم بالعرب ، وتغلغلو في أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالي ، أثره البعيد .

وحسينا أن السكثير من العلماء والأدباء؛ بل الخلفاء والأمراء ، كانوا من أعمىيات : فالمادي والرشيد ابنا «الخيزران» ، وهي أم ولد من خرضنة - بأرض الروم - ، والمأمون أمه «مراجل» ، والمعتصم أمه «ماردة» ، والوانق أمه «قراطيس» ، وهي رومية ، والمتوكل أمه «شجاع» ، خوارزمية ، أما الأمين فآمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهي عربية هاشمية - وكان خصوم الدولة كثيراً ما كانوا يلوحون للخلفاء بشتاهم في أحضان أمهااتهم الأعمىات . كتب محمد بن عبد الله العلوى للمنصور : «ولا أعرف في الإمام ولا حضنني أمها الأولاد» ، فبعث إليه المنصور برسالة يقول : «وأما ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الإمام ، فقد غرت على بنى هاشم طرا : أو لم يبرأهيم ابن رسول الله ؟ ثم على بن الحسين الذى لم يوله فيكم بعد وفاة رسول الله مولد مثله» ؛ ويقول الشاعر متلماً من كثرة أولاد الإمام :

إن أولاد السراري كثرت يارب فينا
رب أدخلنى بسلاماً لا أرى فيها هجيننا

وكان للجواري والقيان الواقى كثُر في قصور الخلفاء والأمراء والآذرياء ، أثر كبير في زيادة الامتزاج والاختلاط؛ يرى أن الرشيد كان في قصره ألفاً جارية . والمتوكل ضعف ذلك؛ وكانت هؤلاً الجواري من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكل يوزعن على الفاتحين ، ويعين في الأسواق ، ويهدن كما تهدى الطرف التاذرة .

ولقد نشا عن تقارب الخلفاء للعمجم ، أن بدأ نفوذ العرب في الأضيق حلال وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندجنوا في غمار العامة ، وتسكّبوا بالزراعة ، والحرف الصغيرة ، وضدّعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتراجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والأدبية بالصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. وممّا يكن من شيء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاف البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفسّيرات والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلّم بالعربيّة ، وتدّين بالإسلام ، وترتبطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة والاختلاط الدمام .

ولاريّب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطّر ، عظيم الآثر ، في حياة الدولة الاجتماعيّة ، حتى لقد ظهرت تناقضاته واضحة جليّة في الأخلاق والعادات والتقاليد، وفي العقول والأجسام، وشّى نواحي المعيشة والحياة، مما نستطيع أن نصوّره فيها بيلـ :

١ - انتشرت العادات الفارسية في المجتمع في هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذي صورناه ، وذلك الامتزاج الذي شرحتاه ، سواء في الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والفناء . فذاع اللعب بالشطرنج والترد ، والخروج إلى البوادي والقرى للراحة أو الصيد ، واصطدام حباب الإخوان للنزة بين الرياض والوديان ، وأخذ العرب يحاكون الفرس في العناية بموانئهم ، ووضع الزهور والرياحين عليها ، وفي تنسيق البيوت ، وإعداد الحجرات ، وفي الاهتمام بالأعياد الفارسية اهتماماً شديداً ، ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان ، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيما التهاني والمدحيا .

وذاعت الأزياء الفارسية ، من قلائنس وأقيمة ، وعمائم ، وسواماً .

وتبعد ذلك كثرة اللهو والترف حتى لاتهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة في غير طائل ، اللهم لا إشباعاً للنفس ، وإرضاء لداعي اللهو واللذة ، فلا يعجب أن غالوا في مآدبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة ، حتى ليروى أن الرشيد لما بني بزريدة بنت جعفر بن المنصور أخذ ولبة لم يكن لها شبيه فيها من المآدب على طول الأيام ، وكانت المبات فيها لاتنتهي . وكذلك فعل المأمون في بناته ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ ، فقد أعطاها في صداقها ألف حصة من اليافوت ، وأوقف الشموع المائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمسداب الفاخرة ... وأدخلوا بالفناء ، وتفتنوا فيه ، وأبدعوا في الحانة وجدروا في آلاته ، وأكثروا في مجالسه من الملح والعbeit والشراب .

وكانت بغداد تعجب أصحاب الشراء لسعة عمرانها ، وبهجة منظرها ، وروعة قصورها ومتزهاتها وميادينها وشئ مظاهر الحضارة فيها ، قال الشاعر :

أعاليت في طول من الأرض والعرض
كبغداد داراً ؟ إنها جنة الأرض

صفا العيش في بغداد وآخض عوده
ويعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاماها
مرى، وبعهن الأرض أمر أمن بغض
أما الفقراء وذوي الحاجة فكانوا يضيقون بها ذرعا ، للشقاء والبؤس
الشديد الذي كانوا يعيشون فيه ، قال شاعر م فيها :

تصلح للموسر لا لامرئ
يبيت في قبر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى أصبح ذا هم ووسواس
ويصور أبو العتاية غلاء الأسعار في بغداد تصويراً رائعاً فيقول :

من مبلغ عن الإما م ناصحاً متوايله
إن أرى الأسعار أسعار الرعية غالبه
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غنوم الدهر را ثحة تم وغاديه
من للبطون الجائما ت وللجسم العاريه
يا ابن الخلاف لاقد ت ولا عدلت العافيه
ألقيت أخباراً إليك عن الرعية شافيه

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديداً : فالفوذ والثراء
وحياة اللذة والنعيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم .

وقد استلزم الترف : المغالاة في البناء ، والتنافس في تشيد القصور ،
حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامراً أموالاً طائلة ، وأنفق المتوكل على
بناء «الجعفرى» ، الملايين من الدنانير ، وأكثروا من تشيد البرك والحدائق
والدور والقصور وبيوت العبادة ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم .

وعلى نعط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت
المناصب الرفيعة في الخلافة ، كمنصب الوزارة الذي تقلده في هذا العصر
أفذاد من الرجال كأبي سلمة الخلال ؛ وأبي أيوب المورياني وزير

المنصور ويعقوب بن داود وزير المهدى ، والبرامكة الذين وزروا للرشيد ،
وبنى سهل الدين وزردا للأمان ، وقد مكن هؤلاء لنفوذ الفارسي ،
والتقايد والعادات والتقطم الفارسية في دولة الخلافة .

٢ — وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد
والزنقة التي حاربها المهدى والرشيد حرباً لاهوادة فيها ، كما شاعت
الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والغزل
بالمذكر ، وانشرت الرشوة والخلاعة في كل مكان ، وكان للق bian والجوراي
أثرهن في هذا الميدان .

ولأن كنا لا نتسرك أن الامتزاج قد أكسب العربي سعة أفق ، ورحابة
صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لا يتأثر بالخير ، بل يشرك معه في الفضل
سواء ، وضاعت منه عنجهية البداؤة ، وحبسة الجاهلية الأولى ، وجفاه
الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار ابن العريسك ، موطاً للأكناfe ، دمثا
مهذباً ، يدين بالمحبة والإخاء .

٣ — وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد في العقول والأفكار ، فاتسعت
الثقافة ، ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت
المدارك . ونمّت الموهاب ، وجذب الناس إلى العلوم والفنون والآداب ،
يررون منها ظمائم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ،
الذى دعا إلى امتراح الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم
القديمة من فرس ويونان وروماني وسريان وسواها ، وأخذ العرب
يتحضرون أو ينشئون المدارس ويشيرون خزانات الكتب ودور الحكمة ،
ويجتمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهند ، ومعارف
سواهم من الشعوب .

أما أثره في الأجسام فهو غير خفي أو منكور ، فلا شك أن العربي قد
صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة في الجسم وسلامة في البدن ،

ونشأ جيل جديد من المؤلدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم^(١) ، ويتسارون بفراحة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة والخلق في الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص وعيارات .

٤ - وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة في تهذيب الأفكار ، وصفل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجوييد ألوان الكلام من شعر وثر ، حتى ليس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربي في هذا العصر والأدب في العصور السالفة :

(١) فلقد نشأ - بتأثير هذا الامتزاج - في الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الرزد والتتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلعة والمجون في الأدب ، كالأغراق والمبالغة في وصف المخدر والتشبيب بالجواري والتغزل بالذكر .

ولاشك أن تفشي هذه الألوان وذريوع تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما ترخر به من الترف والمقاصد ، ومانحمل بين ثنياهما من شهوات طاغية ، ونزوات طائشة ، ومتاع آثمة .

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كلية ودمته من الفارسية إلى العربية ، فرأى العرب طراز القصة في النثر . وأكبوا عليها ، وأحببوا بها ، حتى لقد نظمه أبان اللاحق شعراً بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كلية دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعه المند
فوصفو آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهائم

(١) الابن الذي يولد من أب عربي وأم أجنبية يسمى « جينيا » ، والذى يكون من أب عجمي وأم عربية يسمى « متوفا » .

فالمكتبة يعرفون فضلها والسيخانة يشتهرون هرمه
وهو على ذلك يسير الحفظ لذ على اللسان عند الفاظ

(ب) وكان من تأثير الامتناع أن تطور فن الوصف في الأدب العربي،
ونما نمواً واضحاً، واتسع مجاله، وانفسح مداه . فهذه مظاهر المضاراة
ال المختلفة من قصور ورياضن ، وأنهار وبرك وغدران ، تتوالى صورها أمام
أنظارهم ، فتلبيب شاعرية لهم . وتسمو بأفكارهم ، وتحلق بآخيلتهم .

وهذه أيضاً عادات العجم وتقاليدهم وأزيائهم ، ومواسمهم وأعيادهم ،
ربما ملهم وشرابهم وغذائهم ، ورماعيم جواريهم وغلانيهم . كل ذلك
قد أطلق الآلسنة ، وفتحت الآخيلة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى المواسن
فأخذوا يصفون هذه الألوان التي بهم برقيتها ، وأسرهم جمالها ، وأخذوا
بالبابهم ما فيها من حسن ونضارة . فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف ،
وعبروا عنها أجمل تعبير .

يسعن الأمين لنزهته في دجلة نحس حرارات على صور الحيوانات ،
فيأخذ أبو نواس في وصفها ، فيقول :

سفر افة للأمين مطايلا	لم تسخر لصاحب المحراب
إذا ما ركابه سرن برأ	سار في الماء راكباً ليث غالب (١)
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث ثمر من السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليها	كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢)
ذات زور ومنسر وجناح	ن تشق العباب بعد العباب (٣)

(١) أي سفينة على صورة الأسد وتنسى الحرارة بالتشديد وفيها مراى نيران
يرى بها العدو .

(٢) أي فوق سفينته الأخرى التي صنعت على شكل العقاب .

(٣) الور : الصدر .

تسيق الطير في السحاب إذا ما استعجلوها بجيشه وذهاب
ويبني المتوكّل قصره ، الجعفري ، فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :
ومازلت أسمع أنَّ الملو
ك تبني على قدر أقدارها
رأينا الخلاة في دارها
فلما رأينا بناء الإمام
بدائع لم ترها فارس
ولا الرؤم في طول أمغارها
إذا أوقدت نارها بالعراق
أضاء الحجاز سنا نارها
لما شرفات كأن الرياح بأنوارها
كماماً الرياض

ويصف البحترى الريح وصفاً رائعاً فيقول :

من الحسن حقٌّ كاد أن يتكلما
أناك الريح العلق يختال صاحكا
أوائل ورد كن بالأمس نوماً
وقد نبه النيروز في خنق الدجى
يبيت حدثاً كان قبل مكتبة
يفتقها برد الندى فكانه
عليه كأ نشرت وشياً منها
فمن شجر رد الريح لباسه
وكان قدى للعين إذ كان محراً
أحل فأبدى للعيون بشاشة
ورق نسيم الريح حتى حسبته
يجئ بآنفاس الأحبة نعما

إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، تبسط
بها هذه الحياة المترفة اللامهية .

(ج) ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته ،
وعمق الفكرة وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ،
وبراعة التحليل . فظاهر ذلك بصورة واضحه في آدابهم ، ومؤلف أشعارهم ،
ومن هنا رأينا طول النفس يتجلّى في القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد
والاستقصاء والتحليل . كما رأينا شعرهم يحمل السكثير من المعانق الدقيقة ،
والأخيلة البعيدة ، وال فكرة العميقه .

ومما زاد في ظهور هذه الآثار أنَّ كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا را

يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشرار وأبي العتاهية وأبي نواس ثم ابن الرومي وغيرهم .

ويقول أبو الحسن إبراهيم بن موسى :

فهبا لها طرف ليدفع عن قلبي
يريد اغتصاب القلب قسر أعلى الحب
جعلت فؤادي في يديها على العصب
على كبدى : ياصاح مالى وللحب
قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

غرتى بمحياش من محسن وجهها
فلما التقى الجيشهان أقبل طرفها
ولما نجاهنا بأسياف لحظنا
وناديت من وقع الأسنة والقنا
ضررت صريراً للهوى وسط عسكر

ويقول إسحق الموصلي :

فأهجر هالشهرين خوفاً من المهر
ولكتنى أملت عافية الصبر
أعافبه فيها لترضى فما أدرى
فما فاقته فيها من المهر بالمهر
فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

أخاف عليهما العين من طول وصلها
وما كان هجراني لها عن ملاحة
أفسكر في قلبي باى عقوبة
سوى هجرها والهجر فيه دماره
فكنت كمن خاف الندى أن يبله

ويقول مسلم :

فطليب تراب القبر دل على القبر

أرادوا ليحفوا قبره عن عدوه

ويقول ابن المتن في الملائكة :

قد أقتلته حسولة من عنبر

أنظر إليه كزورق من فضة

ويقول سعيد بن حميد :

أتيت ذنباً فغير معتمد
فلا يرى قطعها من الرشد

لم آت ذنباً فإن زعمت بأن
قد تطرف الكف عن صاحبها

ويصور أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ؛ فقد روى أن لاماً لام ابن الروى فقال له : لم لا تشبه كتشيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدك شيئاً من قوله الذي استعجزت عن مثله ، فأنشده قوله في الحال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حولة من عذير
فقال له : زدن ، فأنشده قوله في الآذريون — وهو زهر أصفر
في وسطه خل أسود وليس بطيب الراحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه
وبفرشه في المنازل :

كان آذريونها والشمس فيه كالية^(١)
سداهن من ذهب فيها بقايا غالية^(٢)

فصاح واغوثاء ؛ تاله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف
ناعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ! ولكن انظر إذا
أنا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولى من الناس ! هل لأحد قط قول مثل
قولى في قوس العمام :

على الجبود كنا والحواشي على الأرض	وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً
على أحمر في أصفر إثر مبيض	بطرزاً ها قوس السحاب بأخضر
مصبغة والبعض أنصر من بعض ^(٣)	كاذياً خود أقبلت في غلائل

(١) كالية : عنفف من كاثمة بالمعنى أي ناظرة ، من كلاً بصره في الشيء إدارده.

(٢) غالية : نوع من الطيب .

(٣) الخود : الشابة الحسنة الخلقة ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهي شمار يلبس تحت التوب .

وقولى في صانع الرفاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مرت به
يدحو الرقاقة مثل اللح بالبصر (١)
ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها فوراء كالقمر (٢)
إلا بعقدر ماتسداح دائرة
في لجة الماء يلقى فيه بالحجر (٣)

وقولى في قال الزلالية :

رأيته سحراً يقلل زلالية
في رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيأ من أنامله
فيستحيل شبابيك من الذهب

(د) وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت
المبالغة والغلو الشديد في أدب الأدباء ، وشعر الشعراء . . يقول
أبو نواس :

واخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف الذي لم تخلق

ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها على مافيك من كرم الطياع

وبقول بشار في محبوته :

إن في بري جسماً ناحلاً لو توكلات عليه لانهدم

ويقول ابن الروى :

يقترب عيسى على نفسه وليس بياق ولا خالد
نفس من منخر واحد فلو يستطيع لتقتيره

(١) دحاه يدحوه : بسطه .

(٢) قوداء : واسعة .

(٣) انداح : اتسع .

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليلات ، العقلية في الأدب : شعره
وثره ..

يقول صالح بن عبد القدوس :

لابلغ الأعداء من جاهل
والشيخ لا يترك أخلاقه
 وإن من أدبه في الصبا
حتى تراه مورقاً ناضراً
ما يبلغ الجاهم من نفسه
حتى يوارى في ثرى رممه
كالعود يسوق الماء في غرسه
بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول أبو تمام :

ينال الفتى من دهره وهو جاهم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا
ويسكدى الفتى في دهره وهو عالم
لسات إذا من جهنمن اليهائم

وقال بشار :

عن الشريف يشين منصبه
والصدق أفضل ما حضرت به
وزرى الوضيع يزينة أدبه
ولربما ضر الفتى كذبه
وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ومن التعليلات العريفة قول أبي تمام :

ليس الحجاب بمقدح عنك لي أملا إن السهام ترجي حين تختبب

وقوله :

لاتنكري عطل الكريم من الغنى فالليل حرب للسكان العالى(١)

(١) عطل من الأدب عطلا ، وعطل إذا خلامنه ، والعطل : التجرد من الحال .

وقال العباس بن الأحنف :

لاجزى الله دمع عيني خيراً
وجزى الله كل خير لسان
نم دمعي فليس يسكن شيئاً
ورأيت اللسان ذا كنهان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى
فاستدلوا عليه بالعنوان

(٥) وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت في اللغة العربية ألفاظ
جديدة من لغات الأعجم ، فزادت ثروتها في الألفاظ ... وإن كان
للامتزاج آثار سلبية ، مثل شیوع اللحن والعجمة واللکنة في الألسنة ،
حتى أصبح شعر هؤلاء المولدين لا يحتاج به ، كما كان يحتاج بالشعر القديم .



الطابع الشفافي للعصر العباسي الأول

- ١ -

في العصر العباسي الأول ازدهرت الحياة الثقافية أو العقلية (١) أزدهاراً كبيراً، وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العربية وأثارها ، في العلم والثقافة .. كانت الدولة من يجا من شعوب كثيرة، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلّى عليها أثر الثقافات والوراثات.

كان النفوذ فيه للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على أيدي الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون - من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة ، وإنما الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادرأً عن عقليتين وثقافتين ؛ وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم (٢) . . . ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بامتزاج الجنسين في الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلقاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن يزيد م ٨٩ أول من ترجم - أو ترجمت له - كتب النجوم والطب والكيمياء (٣)، فقد عنى المنصور م ١٥٨ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبعث إلى إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلتة بما لديه من كتب الفلسفه واستخار

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية في جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والأداب .

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون .

(٣) ٢١٣ : ١ : البيان والتبيين للجاحظ ، ٤٩٧ الفهرست لابن التديم .

لما هريرة الترجمة وكلفهم ياحكم ترجمتها^(١) ، بل كان المنصور أول خليفة قرب المترجمين وترجمت له السكتب من اليونانية والرومانية والقلمونية والفارسية والسريانية^(٢) ، وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك^(٣) .

وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين^(٤) وهي مملكة لدار الحكمة التي بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقليد الإيرانية في أمور الدولة ، فقد أخذت في ساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بين نظرة^(٥) وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفلك الإسلامي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً ؛ أما الآتراك فلم يكن لهم مدينة ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبع منهم في الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كلها ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هي أهم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثراً هاماً في العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل في انتزاع هذه الثقافات^(٦) .

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الاندلسي ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة (٢٢٩ - ٢٣٣) الأدب العباسى محمود مصطفى ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ - ٢٦٨ - ٢٧٠ : ١ ضحي الإسلام) .

(٢) ٤٤١ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٣) ٤٨٠ - ٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(٤) ١٢٣٠ الأدب العباسى محمود مصطفى .

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد . (٦) ٣٨٠ : ١ ضحي الإسلام .

وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معانٍ للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلاً كبيراً .. وأقبلوا عليها إقبالاً شديداً ، كما أقبل عليها الناشيون ، بمحاباة دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكopian سليماً وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الوفيعة .

وأخذت العلوم الداخلية المنقوله إلى العربية ، والمعارف العامة التي تنتفعت بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا فضلت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، وبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين ومؤلفين ، وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والری وخوزستان وأذريجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبـة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفصل ، ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثراً هاماً الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وخالفتهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجابة والذكاء وسعه التفكير وخيال .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحًا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين الذي بدأ فيه بناء الحضارة ، وذاعت فيه لوان الثقافة ، وقامت بقيادته حركة الترجمة على ساقها ، وأخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وأدابها .

زاد انتزاع هذه الثقافات واتصالها ، بتناول الزمن وتلاقي العقول
وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان
هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية .

وفي أوائل العصر العباسي الأول تغلبت نزعة الاعتزاز التي أيدتها
المأمون بكل ما يستطيع وفي آخره وهو عصر التفود التركي انتهى سلطان
المعتزلة وارتفع شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن ،
واضطهد رؤساء المعتزلة كمحمد بن أبي الليث في مصر ، وأحمد بن أبي دواد
في العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أمم المحدثين ؛ وكان
هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له ^(١) .

— ٢ —

ومن أكز الحياة العقلية كانت كثيرة متعددة ، فنشست الدراسات
الدينية واللغوية في مصر ، وتفوقت الشام في الشعر والأدب واللغة ^(٢) ،
وكان للعراق الصدارة في العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة
وحران أمراً كثراً في العلم والحضارة . فالباحث والسكندي بصرىيان ،
والبستاني الرياضي الفلسكي م ٣١٧ من حران ، وكانت بغداد تجذب العلماء
إليها من كل أرجاء العالم الإسلامي واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان
في ميدان التفكير والثقافة . قتيغ منها أبو زيد البلاخي م ٣٢٢ أحد تلاميذ
السكندي المشهور ، وأبو مومى الخوارزمى صاحب المؤلفات القيمة في
الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهانى مؤلف الأغافى ، وسوادهم
من العلماء .

وبعد فهذا العصر كان زاخراً بالعلوم ، قدّمها وحديّتها ، كما كان حافلاً

(١) راجع ٤١ : ١ ظهر الإسلام .

(٢) راجع ٨ : ١ اليقنة الشعابى ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

بالعلماء والمفكرين والفلسفه .. وكانت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج عالم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (١) والأدباء ، وعلى أي حال فلم تكن مناهج التفسكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشدّه في العراق ، ويثير ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب السكان » على الحالة في عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٢) ، وكانت جماعة الأدباء يضيّرون من الثقافات المترجمة وعلومها ، حتى قال ابن المعزن يصف من يؤثّره بصفاته :

فإن طلبه تقتضيه بحاجة
ولإلا بيستان وكرم مظللة
ولا قائلًا : من يعزلون ومن بلي
ينظر في تفضيل عثمان أو على
ليعرف أخبار العلوم من أسفل
يقلب في أصط ráبه عين أحول
ولكن فيها قد عناء وسره
وعن غير ما يعنيه فهو بعزل
وقد أزدادت الحركة العقلية ازدهاراً بعد ذلك ، وظهر أذاذ من
الفلسفة والمفكرين الذين يعزّ بهم العقل الإسلامي

وقد نبغ في جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية في مصر العباسى كثير من أئمّة العلماء :

(١) واشتهر على بن جور الفارسي - وكان كاتباً متربلاً ذاتياً بالنجوم -
بادخلما في شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

(٢) راجع ص ٢ وما بعدها أدب السكان بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع تفاصيـة اليونانية وسواما (راجع ٤٠٢ - ٤٠٦ ج ١ ضمـيـة الإسلام) .

(ا) فـي التشريع الإسلامي نبغ : أـحمد بن حـنـبل مـ ٢٤٠، وـالـكـرـاـيـسـىـمـ ٢٤٥ـ، وـالـعـفـرـانـىـ مـ ٢٦٠ـ، وـداـودـ الـظـاهـرـىـ (٢٠٢ـ - ٢٧٥ـ)ـ، وـإـسـمـاعـيلـ اـبـنـ إـسـحـاقـ قـاضـىـ بـغـدـادـ ٢٨٢ـ، وـعـبـدـ اللهـ بـنـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبلـ ٢٩٠ـ، وـالـخـرـبـىـ مـ ٢٨٥ـ، وـيوـسـفـ بـنـ يـعقوـبـ القـاضـىـ (٢٠٨ـ - ٢٩٧ـ)، وـمـحـمـدـ بـنـ دـاـودـ الـظـاهـرـىـ مـ ٢٩٧ـ.

(ب) فـي التـصـوـفـ : المـحـاسـيـ مـ ٢٤٣ـ وـالـبـطـاطـىـ مـ ٢٦١ـ وـسـهـلـ التـسـتـرـىـ مـ ٢٨٢ـ وـأـبـوـ سـعـيدـ الـخـزـازـ مـ ٢٨٦ـ، وـهـوـ أـوـلـ مـنـ تـكـلـمـ فـيـ الـفـنـاءـ وـالـبـقـاءـ، ثـمـ إـمـامـ الصـوـفـيـةـ الـجـنـيدـ مـ ٢٦٧ـ، ثـمـ الـحـلـاجـ وـقـتـلـ عـامـ ٢٣٩ـ بـغـدـادـ.

(ج) فـي عـلـمـ الـلـغـةـ وـالـأـدـبـ : مـصـبـ الـزـيـرـىـ مـ ٢٣٦ـ، وـالـتـوزـىـ مـ ٢٢٨ـ، وـأـبـوـ الـعـيـثـىـ مـ ٢٤٠ـ، وـابـنـ السـكـيـتـ مـ ٢٤٤ـ، وـمـحـمـدـ بـنـ حـبـيـبـ مـ ٢٤٥ـ، وـالـماـزـنـىـ مـ ٢٤٩ـ، وـأـبـوـ حـاتـمـ السـجـسـتـانـىـ مـ ٢٥٥ـ، وـالـزـيـرـ بـنـ بـكـارـمـ مـ ٢٥٦ـ، وـالـرـيـاشـىـ أـبـوـ الفـضـلـ العـبـاسـ بـنـ الـفـرجـ مـ ٢٥٧ـ، وـالـأـشـنـادـانـىـ مـ ٢٥٧ـ، وـعـصـرـ بـنـ شـبـةـ مـ ٢٦٢ـ، وـابـنـ أـحـدـ مـ ٢٧٢ـ، وـالـطـلـحـىـ مـ ٢٧١ـ، وـالـسـكـرـىـ مـ ٢٧٥ـ، وـأـبـوـ الـعـبـاسـ الـيـزـيـدـىـ مـ ٢٧٨ـ، وـأـبـوـ حـنـيـفـةـ الـدـيـنـورـىـ مـ ٢٨٢ـ، وـالـمـبـرـدـ ٥ـ - ٢١٠ـ، وـتـلـعـبـ ٢٠٠ـ - ٢٩١ـ، وـالـرـجـاجـىـ الـبـغـدـادـىـ النـحـوـىـ مـ ٣٠٧ـ، وـابـنـ السـرـاجـ تـلـيـذـ الـمـبـرـدـ وـالـمـتـوـفـ عـامـ ٣١٦ـ، وـالـرـجـاجـ مـ ٣١١ـ، وـالـأـخـفـشـ مـ ٣١٨ـ، وـنـفـطـوـيـهـ مـ ٣٢٣ـ، وـابـنـ درـيدـ ٢٢٣ـ - ٣٢١ـ، ثـمـ اـبـنـ الـأـبـارـىـ وـسـوـاـهـ.

(د) فـي عـلـمـ الـكـلـامـ ظـهـرـ مـنـ الـمـعـزـلـةـ : بـشـرـ بـنـ الـمـعـتـمـرـ مـ ٢١٠ـ، وـنـمـامـةـ اـبـنـ أـشـرـسـ مـ ٢٢١ـ، وـالـنـظـامـ (٢٠٠ـ - ٢٣٥ـ)، وـابـنـ أـبـيـ دـوـادـ (١٦٠ـ - ٢٤٠ـ)ـ وـبـيـهـىـ بـنـ أـكـشـ مـ ٢٤٢ـ، وـالـعـلـافـ الـبـصـرـىـ مـ ٢٣٥ـ، وـابـنـ الـرـاوـنـىـ مـ ٢٤٥ـ، وـالـجـاحـظـ (١٥٠ـ - ٢٥٥ـ)، وـأـبـوـ عـلـىـ الـجـبـائـىـ (٢٣٥ـ - ٣٠٣ـ)، ثـمـ ظـهـرـ أـبـوـ الـأـحـسـنـ الـأـشـعـرـىـ (٢٧٠ـ - ٣٣٣ـ)، وـقـدـ اـسـتـرـ

المعزلة في العراق يملئون ويدرسون على يدي الجبائى وتلبيذه في الاعزال:
محمد بن عمر الصimirى .

(ه) ومن المفكرين وال فلاسفة وأقطاب العلماء : ابن ماسويه الطيب م ٢٤٣ ، وابن سهل الطيب م ٢٥٥ ، ومحمد بن موسى بن شاكر م ٢٥٩ ، والكندى م ٢٦٠ ، وبنو المنجم ، وأبو موسى الخوارزمي وهو مذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب ، والفارابى م ٣٣٩ ، ثم بعد ذلك ابن سينا م ٤٢٨ ، والغزالى م ٥٠٥ ، والرازى المتوفى ٦٠٦ وسواهم ..
ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر في الفكر العباسى : حنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠) ، وأبو معشر الفلکى م ٢٧٢ ، والبلاذرى م ٢٧٩ ، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام ٢٧٨ ، وأبو حنيفة الدينورى م ٢٨٢ ، والسرخسى م ٢٨٦ ، وثابت ابن قرة (٢٢١ - ٢٨٨) ، واسحاق بن حنين م ٢٩٧ ، والرازى ، م ٣١١ وسواهم .

ترجمة العلوم والأداب الأجنبية

— ١ —

كان للعجميين شغف شديد بالعلوم والأداب وولع كبير بالمعرف والثقافات ، إذ توالت حضاراتهم ، واتسع عمرانهم ، رامة سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العربية في العلم ، الأصيلة في الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التي امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب و المعارف ، تميخت عنها عقوفهم ، وتفتققت بها فرائحهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التي اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يذخر بها العالم إذ ذاك ، ولا غنى لملوكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيه من شوق ونهم ، يترجمونها ويعرفونها . ويضيقون إلى قدميها جديداً ، تخوض عنه إدراكهم وتفاسيرهم .

فليونان حكمتها وفلسفتها وطبيها ، ولها أعلامها الأفذاذ ، كسراط وأرسططاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

والسكلاديين شهرتهم في الطب والنجوم .

والهند ثقافة واسعة مدونة في النجوم والطب والحساب والأداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة في الطب والفلك ورصد الكواكب ، ولمدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كدرسة الرياح ، وقنسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان في أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق

كما نقلوا من علوم الهند كتبًا في النجوم والطب والأداب . هذا بالإضافة إلى ما ورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعثات إلى بلاد اليونان بطلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جندىسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهند واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنو شروان العادل ، ففتح أبواب دولته للاوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين والوثنيين الهاربين من اضطهاد «جوستينيان»، فبصراً الروم لهم على إثراقها المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة في الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

وأتصنل المسلمين في هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حباً لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة في الإفادة منها .. وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتدارها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهكذا بدأت الترجمة في العصر العباسى : صغيرة ناشئة ، ثم أُمِّرت ثُمَّ هُنَّا ، وَآتَتْ أَكْلَمَهَا بَعْدَ قَلِيلٍ .

وكان الباقي على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والأداب ، وكذلك رغبة العلماء في استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبة على هذه الممالك المفتوحة . فكان لا بد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعزز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة . إذ وجدت في اللغة العربية استجابة وسرعة .

ومن الباقي كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التي أصبحت هي الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخي الفسق حرفة ترجمة العلوم في العصر العباسي من أعظم الحوادث الفكرية في تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارية ، التي كان لها أكبر الآثار في سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

ولم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسين أنهم ترجموا من كتب الأولئ شيتا . اللهم لاكتناش أهرون في الطب ترجمه ماسر جويه طبيب مروان بن الحكم وأذاع هذه الترجمة عمر بن عبد العزيز في الناس . وكان خالد بن نزيده بن معاوية المتوفى عام ٨٩ هـ ذا ولع بالكباتن والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له في هذه العلوم كما يقول المباحث (١) وغيره ، ولكن ذلك لا يدل على أن حركة الترجمة كانت ذاتية في عصر بني أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واحدة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة في العصر العباسي الأول فيسكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

١ - فالطور الأول : يبدأ من خلاقة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من عام ١٣٦ هـ حتى عام ١٩٣ ، وقد مضى عمد السفاح دون عناء منه بالترجمة لقصر حكمه ، واغسله الشاغل بتأسيس الدولة وتوسيع أركان الخلافة العباسية .

فليا ولـ المنصور عنى بترجمة العلوم عنـ فـاتـة ، وـ خـاصـةـ الطـبـ والـهـندـسـةـ وـ النـجـوـمـ ، وـ بـعـثـ إـلـىـ اـمـبرـاطـورـ الـدـوـلـةـ الـرـوـمـانـيـةـ الـشـرـقـيـةـ يـسـأـلـهـ أـنـ يـصـلـهـ بـالـدـيـهـ مـنـ كـتـبـ الـفـلـاسـفـةـ ، وـ اـسـتـخـارـهـ لـمـهـرـةـ التـرـاجـمـةـ وـ كـلـفـهـ

(١) ٢١٣ : ١ البيان والتهيئ ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

يأحكام ترجمتها إلى العربية (١) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية (٢) .. ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معيناً بعلم التنجوم عنانية فاتحة ، وقرب إليه من المترجمين نوبيخ المترجم الفارسي وأولاده ، وإبراهيم الفزارى ، كاقرب إليه جورجيس بن بختيشوع السريانى رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذه طيباً له .. ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .

أما المهدى والمادى فقد شغل بمحاربة البدع والزندقة ، فألمحاها ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فليا ولى الرشيد الخليفة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل ما في قواه من جهد وعريمة ، فقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وترجمة له من السريانيين ، كأَل بختيشوع وآل ناسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخليل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد دار الحكمة ، التي كانت تحتوى نفائس الكتب من شئ اللغات ، وقد أعيده في عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور .

وفي هذا الدور الخظير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كلية ودمنة من الفارسية ، وكتاب السندي من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسططاليس في المنطق وغيره ، وترجم كتاب الجسطنطي في الفلك ، وأخذ المعزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناقشة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسمخون سخاء قادرًا على كل محمود يتصل بالعلم والثقافة . فكان تشجيعهم أبلغ

(١) مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى .

(٢) المسعودي : ٢٤١ .

الآثار في ازدهار العلوم وتقدير المعرف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

٢ - والتطور الثاني لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهي ب نهايته ، وكان المأمون عالماً متضلعًا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان بهم العقل والعلى لاحد له ، وقد أولى الترجمة عناته الشديدة واهتمامه بعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج الترجمة .

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنها كانت له مشاركة في كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزاز ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان يتفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم في تعلمها ، ويخلوا بالحكماء ، ويأنس بمحاضرهم .

وبعد الأمراء والوزراء الخليفة في هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون في العرب كبريكليس في اليونان ، وأوغسطس في الرومان ، فأنتم مابدأ به آباء ، واتخذ له بطانية من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يبعثوا إليه بالكتب التي تقع في أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بيته وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة ؛ ومن المترجمين في عهده : الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريرق ، ويوحنا بن ماسويه ، وسلم ، وقسطا ، وحبيش ، واصطفان ، وهم مترجمون من اليونانية .

٣ - أما الطور الثالث : من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

في عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن لل الخليفة تحصيل في العلم أو رغبة في المشاركة فيه .

وجاء بعده الواشق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة، يشجع العلم والعلماء ، فنشطت الترجمة في عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم في عصره هو الأسمار والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطافاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آذروا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

— ٣ —

١- ومن أشهر المترجمين عن اليونانية: الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان هن جملة المترجمين للآمدون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطى إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيها بعد ثابت بن قرة الحراني .. ومنهم كذلك قسطا ابن لوقا البعلبكي ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة في الطب . و منهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للآمدون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة: محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادي شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٥٢٩٨ . و منهم: حبيش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وآل بختيشوع وهم من السريان ، وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواء كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم في المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن إسحق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر إقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سocrates وأفلاطون وأرسطو .

٢ — ومن أشهر المترجمين عن الفارسية: عبدالله بن المقفع، وآل نوخت، والحسن بن سهل، وجبلة بن سالم، وأسحق بن يزيد، وهشام بن القاسم، وسواهم.

وقد ترجموا عن الفارسية كتبًا كثيرة، من أشهرها: كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع؛ وكتاب خدایانمه، الذي ترجمه كذلك ابن المقفع، وسماه كتاب سیر ملوك الفرس، وترجم كذلك الأدب الكبير، والأدب الصغير، والدرة اليتيمة، وكتاب انتاج في سيرة أبو شروان. ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضًا: عهد أردشير؛ وتوقيعات كسرى، وهزار أفسانة^(١)، وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة، وكتاب أدب الحرب، وكذلك عهد أردشير إلى إبنه سابور ترجمه البلاذري شعرا^(٢) إلى العربية، ويقرنه صاحب الفهرست بكتاب كليلة ودمنة^(٣). . وسوى ذلك من نفائس المؤلفات.

٣ — ومن مشهورى المترجمين عن الهندية: منشك الهندى الطبيب الذى عالج الرشيد، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضًا، ونال شهرة واسعة، واشتدت مخالطته للأطباء... . ومنهم محمد بن ابراهيم الفزاري، وأبن دهن.

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والتنجوم والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسفار. وما ترجم من كتب الأدب الهندى: كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب ييدباف الحكمة، وكتاب السندي هند - أى الدهر الظاهر - في الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن ابراهيم الفزاري.

(١) معناه ألف غرفة.

(٢) ١١٣ و ١١٤ الفهرست.

(٣) ١٣٦ الفهرست.

٤ - وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والكلدانية . وما نقل عن الكلدانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار السكواكب .. وسواء من نفائس المؤلفات .

- ٤ -

وقد عزى المترجمون عنایة خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الإسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليوناني في العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئاً يذكر من آداب اليونانيين .. فإذا قرأنا ثبت الكتب المترجمة نجدها تبحث في كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نكاد نعثر على كتاب أدبي يوناني مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ما في اليونان والرومان من آثار أدبية عالية في القصص والتسليل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات في علوم قرية إلى الأدب والتاريخ والأسفار ، فهذا ابن النديم ينقل في كتابه الفهرست أسماء كتب للروم في هذين الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين ، ومن الموالي الذين احتلّطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، مما تحفل به مصادر الأدب العربي ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار ... وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفينياغورس وسفراط وأفلاطون وأرسطو . يرى ابن النديم أن على بن دين النصراوي نقل كتاباً في الأدب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) .. وهذه

(١) ٣٠٦ و ٣١٦ الفهرست .

(٢) ٣٠٥ الفهرست .

الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف منها عند العرب . وقد كان ولوغ العرب بهما حافزاً على ترجمة بعض ما يؤثر منها إلى العربية . بعد تجربتها مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلايهما من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية .. إذها حينذاك قريباً من إلف العربي ، وليس فيما ماينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لاتستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء في البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن بعض اليونانيين ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روايات الأدب اليوناني القديم ، كالأساطير والملامح والتسليلات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة وشعر غنائي ، فلم تترجم إلى العربية إلإادة هوميروس ، ولا ما شابها من الآثار .. مما يدل على أن المתרגمين صرفاً نظراً عندهم ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها إلى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليوناني في الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتماداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آداب اليونان ، ولا يقدرونها حتى حق قدرها .. وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أساموا ، وخضعوا للحكم الإسلامي .. ولعل في هذا مايفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرین من أدب اليونان وثقافتهم في صناعة البيان ، فهذا ابن الأثير يذكر في كتاب «المثل السائر» أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأنرا بشقاقة اليونان البشائية ، وينفي أن يكون هو قد تأثر في رسائله وكتاباته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعانى ، ويدرك أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذرقة ، ورأى أن ماذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً (١) .

(١) من ٢٠ المثل السائر .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً، وأعلام كعباً، وأكثربن آثاراً، في الأدب والشعر؛ فهم في غنى عن أن ترجم لهم أداب الأمم القديمة، وخاصةً أن عنايةتهم كانت موجهة إلى نقل ما هي حاجة ماسة إليه من تقافسات ومعارف.

ولهذا ترجموا ألوانًا من الأداب الفارسية، لأن الأدب الفارسي على العموم قريب من ذوق العربي كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات وجوار، والأدب الفارسي في جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير لما تحفل به الأداب اليونانية الوثنية، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس، فهذا ابن الأثير يقول في كتاب «المثل السائِر»: إنني وجدت العجم يفضلون العرب في الإيمان، مع الاحتفاظ بالجودة، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أواله إلى آخره شعرًا، وهو شرح قصص وأحوال، ويكون مع ذلك في غاية الفصاححة والبلاغة في لغة القوم، كما فعل الفرس في نظم السكتاب المعروف بشاهنامة. وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أ Finch منه. وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها، وتشعب قوتها وأغراضها، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر».

ولم يجد المترجمون حائلًا يحول بينهم وبين نقل هذه الأداب الفارسية إلى العربية، بل كانوا يلقون السكير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية، وخاصة الوزراء الذين ينتسبون إلى أصول أعمى؛ وكان المترجمون يتقدرون أحباباً إلى «رؤساء الوزراء» بترجمة آداب أممهم، التي تتجدد تاريخهم القديم، وقرويهم الحالية، وملوكهم الأمجاد وأبطالهم المغاوير، كما كانوا يتقدرون إلى الخلفاء بترجمة الطراف الأدبية، والملح الممتعة، لتكون مادة للمفاكرة والسرور.

وفي هذا جمِيعه ما يدلُّنا دلالةً واضحةً على أنه لم يكن هناك تأثير الأدب اليوناني في الأدب العربي.. أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستتب أن الأدب الفارسي كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الأدب اليوناني .

ولقد أثمرت حركة الترجمة ثمارها النافعة في العلوم والأدب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة في لغة العرب ، فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية في الألفاظ والأساليب ، ففوق تعریف العرب الأسماء الأعجمية لتأدية أغراضهم ومعانיהם وأفكارهم ، ولتقسيم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ، كذلك عربوا بعض مصطلحات العلوم ، وأكثروا من التوسيع في مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والسكنية والتسييد وما إليها .. هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوه وحياته وتجدد ودقة تصويره وبلاغة تعبيره .

وقد هنَّ المتعلق والفالسبة أفكار الأدباء ومعانיהם ، ووصل إلى تاجهم وخيالاتهم ، وغير نظرتهم إلى الأشياء ، ظهر العمق والترتيب العقلي ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر فيها يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم . وينتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمبارات الساذبة .

فضلاً عن أنه قد نشأت علوم جديدة في عصر الترجمة كانت أثراً لها ، أمدت اللغة والأدب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة في النواحي اللغوية والأدبية والعليمة .

على أن حركة الترجمة كان لابد أن يكون لها بعض الأضرار التي عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها :

١ - كثرة استعمال أساليب المتعقين والفلسفه وأفعال السكون والبناء للجهول وصوغ المصادر الصناعية، مثل الكيفية والكمية والذاتيه والعرضيه والمائية والحيوانية والإنسانية، وكثرة الفصل بالضمير الغائب ، وسوى ذلك مما أورث الآلسنة لكتنه ، والأساليب بعجمة ، والمنطق التواه ، والملكات ضعفاً ، والفطرة والطبع تعقيداً وضيقاً .

هذا إلى ماتخرج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوخ الأسلوب العلمي ، واستحداث أصحاب كل علم لنـة تأليفـة لها رموزها ومعانـها وألفاظـها ، وصعوبة فهم البعـيد عن هذا العلم لأغراضـ العلماء والكتـابـين فيه .. وهذه المصطلـحـات كثـيرـة متـعدـدة : فـي الفـلكـ والـرـياضـةـ نـجدـ: المرـصـدـ والـزـيـجـ والتـعـديـلـ والـخـروـطـ والـدـائـرـةـ والـمـثـلـثـ والـمـرـبـعـ وـفـيـ الطـبـ نـجدـ: الصـيـدـلـةـ والتـشـريـجـ والـجـراـحةـ والتـوـليـدـ والـسـوـدـاءـ وـلـصـفـارـاءـ . وـفـيـ الـفـلـسـفـةـ نـقرأـ: الجـوـهـرـ وـالـعـرـضـ وـالـتـصـوـيرـ وـالـتـصـدـيقـ وـالـمـوـضـوعـ وـالـمـحـمـولـ وـالـقـيـاسـ وـالـشـكـلـ وـالـكـيـفـيـةـ وـالـكـيـمـيـةـ وـالـمـاهـيـةـ وـالـهـوـيـةـ وـالـلـاتـهـائـيـةـ .. إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ المصـطلـحـاتـ الـتـيـ كـثـرـتـ حـتـىـ وـضـعـتـ لهاـ مـعـاجـمـ خـاصـةـ ،ـ مـنـهاـ كـلـيـاتـ أـبـيـ الـبـقـاءـ ،ـ وـكـشـافـ اـصـطـلاحـاتـ الـفـنـونـ ،ـ وـكـتـابـ التـعـرـيـفـاتـ لـلـجـرـجـانـيـ المتـوفـيـ عـامـ ٨١٦ـ .

التـأـثـيرـ الـأـجـنبـيـ

فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ وـآدـابـهاـ

كان امـتزـاجـ الـعـربـ بـالـعـجمـ ،ـ وـماـذـاـعـ بـسـيـهـ مـنـ أـفـكـارـ ،ـ خـطـرـهـ الشـدـيدـ ،ـ وـدـوـيـهـ الـبعـيدـ ،ـ فـيـ الـبـيـتـةـ الـإـسـلـامـيـةـ الـعـرـبـيـةـ ..ـ وـمـنـ أـظـهـرـ مـاـتـجـ عنـ ذـلـكـ الـامـتزـاجـ ،ـ وـرـتـبـ عـلـيـهـ ،ـ تـرـجـمـةـ الـعـلـومـ الـمـخـلـقـةـ ،ـ مـنـ شـتـىـ الـلـغـاتـ ،ـ إـلـىـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ كـاـفـصـلـنـاـ .

وـلـقـدـ شـغـلـ بـهـذـهـ الثـقـافـاتـ الـجـدـيدـةـ الـمـتـرـجـمـةـ طـبـقـاتـ مـنـ الـمـفـكـرـيـنـ وـالـعـلـمـاءـ

والأدباء والشعراء شغلاً كبيراً ، وأقبلوا عليها إقبالاً شديداً ، كما أقبل عليها الناشتون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكopian سلباً وليعدوا أنفسهم للنماضب العالية ، والدرجات الرفيعة :

وأخذت العلوم الداخلية المنشورة إلى العربية ، والمعارف العامة التي تتفق في بها عقول المستعرين ، يدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتلخيص والتلخيص ، حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ويستقلون ببحوثها ، فيبعد أن كانوا مترجمين أصبحوا باحثين ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة في العاصمة الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والری وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنيت أهل الفضل ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعيرة - من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثراً واسعاً في العرب الذين اتصلوا بهم وخالفتهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجابة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا يأنفون قبلًا من الزواج بالطبعيات ، ويعذرون عبياً ومهابة وجناية على الآباء ، أقبلوا في هذا العصر على الزواج منهم ، لصاروا من وفرة جملهن ، ونجابة أولادهن ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يزهدون في التسرى ، إلى أن نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماء ، فرغبو فيه وأقبلوا عليه .

فليس بجحيناً إذن في هذا العصر أن تكثير طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها في الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحًا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين . أما في عصر بنى أمية فكان أثره قليلاً محدوداً ، لقلة الاختلاط ، وأنفقة العربي من الزواج بالأعمىات ، ونفور العربية من الزواج بأعمى ، ولأن حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العلمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار . وكان خول الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب لا يزالون يعيشون في بلاد العرب ، أو قريباً من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالى لاتزال تكون نفسها في اللغة ، ونأخذ بتصنيفها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد نضجت بعد مواهيبها وملائكتها الأدبية . .

فلما جاء العصر العباسي ، وبدأ بناء الحضارة ، وذاعت أبوان الثقافة .
وcame حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها .

وقد ازدهرت الثقافة العربية وعلومها ازدهاراً كبيراً في هذا العصر ، سواء علوم اللغة أو الدين أو الأدب أو الفلسفة ، وتلاقت بالثقافات الفارسية واليونانية والهنودية ، تلاقت هذه الثقافات المتعددة ، وكان لكل ثقافة منها شيعة وأنصار ، وإن كان كثير من الأدباء قد جمعوا بين مختلف الثقافات .

ولقد كان للإسلام أثر كبير في هذا الامتزاج ، فإن من أسلم من أبناء الأمم الأخرى كان يقبل على قراءة القرآن ودراسته ، وعلى تعلم العربية وآدابها . .

الثقافات الأجنبية وأثرها في اللغة والأدب

- ١ -

أولى هذه الثقافات الأجنبية هي الثقافة الفارسية ، وترجع صلات العرب بالفرس إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ؛ وسبيلاً لتوسيع الروابط السياسية والاقتصادية .

ولقد أقام الأكاسرة إمارة الخيرية على حدود مملكتهم ، مما ينبع منها من عدواً للقبائل العربية ، ولتأمين تجاراتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوخ كثير من الأقنان الفارسية في لغة العرب وأدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت .

وتأثر كذلك بعض الفرس بالأدب العربي ، حتى ليقال إن بهرام جور - وهو فارسي قديم - تعلم في الخيرية ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية .

فلا جاء الإسلام خصصت بلاد الفرس للحكم الإسلامي ، وما جرت القبائل العربية إلى هذه البلاد ، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية ، وحقق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وأدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب .

ثم زاد اتصال الأمتين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة المولى من الفرس ونقلت الخليفة إلى بغداد ، وأنشئ منصب الوزارة وجعل في الغالب وفقاً على النبغاء الأذكياء من الفارسيين .

ولقد جد الوزراء والكتاب الفرس في نشر ثقافتهم وأدابهم والتيسير

لُعَارِفِهِمْ فِي الْبَيْتَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، حَتَّى صَارَ الْإِلَمَامُ بِهَذِهِ النِّقَاوَةِ وَالنِّكَيْنِ مِنْ تِلْكَ الْأَدَابِ مَا يَرْفَعُ قَدْرَ الْأَدِيبِ ، وَيَجْعَلُهُ مَلْعُونَ مَكَانَةً مَرْمُوقَ الْمَزَلَةِ . إِنَّا كَانَ مَطْلَعًا عَلَى تَارِيخِ الْفَرْسِ وَأَنْظَمْتُهُمْ فِي الْحُكْمِ وَطَرَانَهُمْ فِي السِّيَاسَةِ ، اشْتَدَتِ الرَّغْبَةُ فِيهِ وَكَثُرَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ .

يَقُولُ عَبْدُ الْحَمِيدَ الْكَانِبُ مِنْ وَصْفِهِ إِلَى الْكِتَابِ : « وَاعْرُفُوا أَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ، فَإِنْ ذَلِكَ مَعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُونَ إِلَيْهِ بِهِمْكُمْ » ، وَقَالَ الرَّشِيدُ لِلْكَسَانِي مَعْلُومَ بِنِهِ : « دَرَوْنَا مِنَ الْأَشْعَارِ أَعْفَهُمَا ، وَمِنَ الْأَحَادِيثِ أَجْعَمُهُمَا لِخَيْرِ الْأَخْلَاقِ ، وَذَكَرْنَا بِأَدَابِ الْفَرْسِ وَالْمَنْدِ » .

وَأَصْبَحَ لِلنِّقَاوَةِ الْفَارَسِيَّةِ فِي بَغْدَادِ وَالْخَوَاضِرِ الْعَرَبِيَّةِ مَقَامٌ كَبِيرٌ ، زَادَ مِنْ شَانِهِ وَعَظَمَ مِنْ خَطْرِهِ حِرْصُ الْوَزَارَةِ وَالْكِتَابِ وَأَرْبَابُ النَّفَوذِ مِنْ نَبْتَوْا مِنْ أَصْوَلِ فَارَسِيَّةِ عَلَى النِّكَيْنِ لِمَا وَإِشَاعَتْهَا ، ثُمَّ حَرَكَهُ التَّرْجِمَةُ الْوَاسِعَةُ مِنَ الْفَارَسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ .

وَيُظْهِرُ أَثْرَ النِّقَاوَةِ الْفَارَسِيَّةِ فِي لِغَةِ الْعَرَبِ فِيهَا يَلِي :

١ - الْأَلْفَاظُ الْفَارَسِيَّةُ الَّتِي عَرَبَتْ وَنُقْلَتْ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، وَهِيَ كَثِيرَةُ لَا حِسْرُ لَهَا ، مِثْلُ الْفَالُوْذِجَ لِمَا يُسَمِّي عِنْدَنَا « الْبَالُوْذَةَ » ، وَالْلَّوْزِينِجُ^(١) ، وَالْجَلْوْزِينِجُ لَنْوَعٌ مِنَ الْفَطَائِرِ يُجْسَى بِاللَّوْزِ أَوِ الْجَبُوْزِ ، وَالسَّكَانِجُ وَجِمْعُهُ كَوَافِعُ وَهُوَ مَشْهُدُ الْطَّعَامِ يَتَحْذَذُ مِنْ دَقِيقِ وَلِبِنِ وَمَلْحِ وَيَخْفَفُ ، وَالطَّبَاهِيَّةُ^(٢) لَطَعَامٍ مِنْ يَعْصِ وَبَصْلِ وَلَحْمٍ ، وَالسَّكَبَاجُ لَرْقٌ يَعْمَلُ مِنَ الْعَصَمِ وَالْخَلِ وَأَصْلَهُ سَكَبَاجٌ وَسَكَكٌ بِمَعْنَى خَلٌ وَبِأَبْعَنْتِ طَعَامٍ .. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَطْعَامِ .

(١) فِي الْلِسَانِ : هِيَ مِنَ الْحَلَوَى شَبَهِ الْقَطَافِ .

(٢) هُوَ الْلَّحْمُ الْمُشَرَّحُ فِي الْقَامِوسِ ، وَقِيْ شَفَاءُ الْفَلِيلِ لِلشَّهَابِ الْخَفَاجِيِّ : هُوَ السَّكَبَاجُ ، وَفِي الْلِسَانِ : ضَرْبٌ مِنْ قَلِ الْعَصَمِ .

ومثل : الدوشاب وهو نبيذ الفر ، والجلاب لماء الورد ، والمسطار الخزنة حلوة ، قال الأخطل : « حمر آعيونهم من المسطار » . وغير ذلك من أسماء الأشربة .. ومثل السمور^(١) والسنديجان ، والخشنشار لطير الماء ..

ومثل : الدار صيني ، معناه شجر الصين ، والجلاندار وهو زهر الرمان ، والبستان معرب بostenan و « بو » معناها رائحة و « ستان » معناها موضع ، والسكروديا ، والتوت ، والأذريون لنور أصفر معرب آذركون أى لون النار ، وكانت الفرس تتفاصل به ؛ إلى غير ذلك من أسماء النباتات .

ومثل : الأسطرلاب^(٢) . والزبيج لخيط البناء ، والممندر ، والزنبق ، والإكسير ، والمعنطيس ، والزرنيخ .. وغير ذلك من مصطلحات العلوم والصناعات .

ومثل : البربط للعود و معناها صدر العود لشبهه به . وبـ بمعنى صدر - ولـ بـ الزير وـ هـ ما من أـ تـ اـ رـ العـ وـ دـ ، وـ الطـ لـ سـ اـ نـ لـ ما يـ لـ يـ سـ فـ وـ قـ السـ كـ لـ فـ ، والدـ رـ فـ الـ عـ لـ مـ الـ كـ بـ يـ وـ عـ سـ كـ » ، وـ التـ خـ تـ (٣) لـ مـ اـ تـ وـ ضـ فـ يـ هـ اـ ثـ يـ اـ بـ ، وـ الـ دـ هـ قـ اـ نـ لـ رـ ئـ يـ اـ قـ لـ قـ رـ ، وـ الـ دـ وـ رـ قـ لـ كـ يـ الـ شـ رـ اـ بـ كـ اـ فـ شـ فـ اـ لـ غـ لـ لـ بـ ، وـ فـي الـ قـ اـ مـ وـ سـ مـ اـ خـ يـ طـ : هو الجرة ذات العروة ، والبـ هـ اـ سـ تـ اـ نـ لـ مـ وـ ضـ عـ لـ اـ جـ المـ رـ ضـ وـ بـ هـ اـ رـ معـ نـ اـ هـ مـ رـ يـ ضـ وـ اـ سـ تـ اـ نـ مـ وـ ضـ . إلى غير ذلك من أسماء الفارسية العربية .

وهـ كـ ذـ أـ خـ دـ الـ عـ رـ بـ كـ ثـ يـ اـ مـ الـ سـ كـ لـ هـ اـتـ الـ فـ اـ رـ سـ يـ وـ صـ قـ لـ وـ هـ اـ بـ يـ تـ فـ قـ وـ لـ سـ اـ نـ هـ مـ . وـ كـ انـ هـ ذـ اـ تـ عـ رـ يـ فـ مـ وـ جـ وـ دـ اـ مـ مـ نـ اـ هـ زـ اـ دـ وـ نـ اـ مـ فـ عـ صـ رـ نـ فـ وـ ذـ اـ خـ لـ فـ اـ مـ عـ بـ اـ سـ يـ يـنـ .

(١) دابة يتخذ من جلدتها فراء

(٢) آلة اقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين .. وتعرف بواسطة ذلك الأوقات .

(٣) هو الدرلاب

٢ — قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التي زادت في ثروة العربية ، وجعلتها أقدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعرّيب والتَّوسيع في مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ — ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية في الأخلاق والأدب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره في زيادة مادة اللغة العربية وأعراضها ومعانها وأفكارها .

وأثرت كذلك انتقافة الفارسية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلي :

١ — كانت زعامة التجديد في الأدب العربي شعره وثره في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواوها يد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فبعد الحميد السكاكب وابن المفعع مما إماما التجديد في المثل في هذا العصر ، وبشار وأبونواس شقاطرين التجديد للمولدين في الشعر .. وكان نشأج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس من الذين يجيدون العربية يجمع خير ما في بلاغات العرب والفرس جمِيعاً من معانٍ وخيالات وأساليب ، لذلك أحدثوا آثاراً واسعة في الشعر والنثر ، فجددوا في المعانٍ والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب في عهد بنى أمية عرياناً خالساً ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح في عهد بنى العباس يزدان بأعلى وأروع ماق أبد الفرس من معانٍ وأخيلة فتعددت الأغراض واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التناقض في التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبهما ، ويقول الجاحظ عن وسی بن سیار وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاصين في هذا العصر : « كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ،

ومنه كثيرون أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقتين : كابن المقفع وسهل ابن هارون والفضل بن سهل وسواهم ، من كان لهم فضل كبير في رقي الآسلوب العربية ، واقتباس المحسنات البدوية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعانى والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

وكانت لفروس حكم وأمثال وتصورات بدئعة وأخيلة دقيقة ، وضع ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعانى الفارسية ترشد العربي إلى أمثل طرق التصور والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرّب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنو شروان مشهوراً بالترجيح ، وكان يقول : « هو يافوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر » ، فقال الشاعر :

وياقوته صفراه في رأس درة مركبة في قائم من ذبرجد
كان بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد
وكان أردشير بن بابل يصف الورد بأنه در أبيض وياقوته أحمر على
كرسي ذبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخير ونفحات
العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواليت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فأشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجلير في اللهب

وكان ابن الرومي يأخذ حكم بهرام جور فينظمها شعرآ عرييا .. ويقول
بزر جمیر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لاتنقى ، وإذا أدبرت عنك
فأنفق فإنها لاتبقى ، فقال الشاعر العباسي :

فأنفق - إذا أتفقت إن كنت موسرأ وأتفق - على ماختيلات - حين تسر
فلا الجود يفني المال والجند مقبل ولا البخل يفني المال والجند مدبر

وقيل لابن المقفع : لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعانى
مشوهة بالمسكاره ، فانتصرت على الخول صناً بالعافية ، فأخذته العتابي فقال :

وإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأسود^(١) ،
وكان العتاي الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعانى والأخيلة ،
وسئل لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعانى إلا في كتب العجم ،
فالبلاغة لنا والمعانى لهم .

ويقول أبو هلال العسكري في رسالته : « التفضيل بين بلاغتي العرب
والعجم » : للفرس أشعار لاصنفه كثرة ، ولليونانيين أشعار دون الفرس ، .

٢ - هذا إلى ماجد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس
وانتشار الثقافة الفارسية ، كالأدب القصصي ، وأدب الرhed ، وأدب المقام ،
وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً .

وإن كنا لا ننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من
ضعف الملاكات ، وكثرة العناية بالبديع الذي يحول دون البساطة والاعتماد
على الطبيع .

- ٢ -

وثانية هذه الثقافات هي الثقافة الهندية فلقد اتسعت الفتوحات الإسلامية
وأنسابت جيوش العرب المظفرة في كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم انتقفي
السند في عهد الوليد بن عبد الملك وذلك عام ٩١ .

وقد اخالطت بعض المندو بالعرب ، ودخل العرب بعض جهات من
الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط . فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم
العربي ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة
بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التي كانت
قد التهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

(١) الحيات العظيمة .

وكان الهند تشتهر بالحساب وعلم التنجوم والطب والصناعات والقائل والنحو ، وبالحكمة ، التي كان الهند معدنها ، وبالآلهيات والرياضيات .

ويقول القسطنطيني في «أخبار الحكام» (١) : الهند هي الأمة الأولى ، كثيرة العدد . نسمة الملك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالخبر في فنون المعرفة كل الملل السالفة . وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة ويتباهي العدل والسيامة ، ولبعد الهند من بلادنا فلت تألفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم » .

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكي بعض الأطباء من الهند أمثال منشكه . ولشيخ من الموالي الذين جلبوه من الهند وغنموا في الحرب وزعوا على الجندي ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ؛ كأبي عطاء السندي الشاعر ، وكابن الأعرابي العالم اللغوي المشهور ، وسواءها .

وللهند نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء في البلاغة والأدب .. قيل لبلهله الهندي : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا في ذلك صيحة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أ能找到 هذه الصناعة فائقة من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص اطائف معاناتها . فترجمت فإذا فيها ما ترجمته «أول البلاغة اجتماعاً لـ البلاغة» ، وذلك أن يكون الخطيب رابطاً الجأش ، ساكناً الجوارح قليلاً للحظة ، متغيراً الفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الأمة بكلام السوق .. الخ (٢) .

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثيرة ، واستمعوا بالهنود في الفلكل ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير الجليل ، قال ابن الرومي في أبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة طويلة :

(١) ص ٢٦٦ المرجع . (٢) ١: البيان والتبيين للجاحظ .

غلط الناس : لست تلعب بالشط سرنج لكن بنفس اللعباء
لك مسکر يدب في القوم أخني من دبيب الفناء في الأعضاء
وأظن افتراسك القرن فالقرن من ملابسا وشيكه الإرداد
وأرى أن رقعة الأدم الأسر أرضًا جعلتها يدماه
تقراً المست ظاهراً فتؤدي به جميعاً كاحفظ القراء

على أن أثر الثقافة المندية في لغة العرب كان ضئيلاً يتمثل في هذه
الكلمات المندية التي عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والأنبوس ،
والبيضاء ، والخيزران ، والأهليلج ؛ وسوى ذلك من أسماء الحيوانات
والنباتات المنقولة من المندية .

أما أثراها في أدب العرب فيبدو فيها انتباهه الآداب العربية من القصص
والحكم المندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم المند وأمثالهم وأقوالهم في
الفلك ، وهذا أبو نواس يقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فانت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظره في علم الطبائع لأن المند تزعم
أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً .

ومن مظاهر تأثر الشعر بأقوال المند في الفلكل قول أبي نواس في الخمر :

تخيرت والنجم وقف لم يتسكن بها المدار

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلكل ، وأصحاب الحساب يذكرون
أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ثم سيرها من هناك
وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه ، وإذا عادت
إليه قامت القيامة .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء في غير الشعر ، يقول ابن قتيبة :
قرأت في كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا ينفق منه ، وشر الإخوان
الخاذل ، وشر السلطان من خاقان البرىء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب
ولا أمن » .

إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربي من الثقافة الهندية .

وثالثة هذه الثقافات هي الثقافة اليونانية ، وحين ازدهرت النهضة العلمية
في العصر العباسي ، وشجع العلماء ترجمة العلوم ، أخذ السريان يترجمون
الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت السكريتب الفارسية المترجمة
الكثير من المعارف اليونانية . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان
وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم^(١) ، ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات
اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية في لغة العرب فيها اكتسابه من ألفاظ متعددة
عربت مثل : « البرجد » وهو كساء غليظ مخاطل ، والزبرجد ، والياقوت ،
والمرسد ، والتيراط ، والأوقية ، والبلغم ، والبرقوق ، واللوبيا ، والترمس ،
والجائليق ، والبطريق .

ومثل : إيساغوجي بمعنى المدخل وسموا به مقدمات المنطق وهي الكلمات
الخلس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والمرض العام . ومثل السفسطة
والفلسفة بمعنى الحكمة ، والميوبي بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون .
إلى غير ذلك من أمثل هذه الألفاظ التي لا عد لها .

(١) كانت مراكز الثقافة اليونانية في الشرق كثيرة ، ومن أشهر هذه المراكز :
الاسكندرية - حران بالجزيرة - جنديسابور .

وقد أثر المنطق اليوناني في الفكر العربي تأثيراً كبيراً إذ أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضيات أثر كبير في عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل في امتصاص الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معانٍ جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية في أدب العرب يتجلّى في نقل بعض الحكايات والأسئل القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعانى الفلسفية فتأثر بها الأدب العربي واكتسب منها سعة في الخيال وتهذيباً في الفكر .

ويهمنا أن نقر أن الأدب العربي قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفيد من الأدب اليوناني نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روايته لما أسلفنا.

وكان الباعث على الترجمة من اليونانية إلى العربية عوامل كثيرة ، منها أن حياة الحضارة في الدولة العباسية استلزمت أن تستند بالعلم ، ومنها الرغبة في استخدام الفلسفة والمنطق للدفاع عن الدين ، ومنها غلبة اللغة العربية على الأقطار المفتوحة ، فكان لابد أن تنقل علوم هذه الأقطار القديمة إلى العربية ، ومن أهم بواعث هذه الترجمة ميل بعض الخلفاء العباسيين إلى العلوم الفلسفية كالمأمون ..

الشعر في العصر الأول

آميسد :

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبّت الحياة العقلية والاجتماعية في هذا العصر بأصباغ جديدة ، فقد كان أثراً في الأدب ولغة متفاوتاً ، فظللت مناهج الأداء والأساليب ولغة السكتاب والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نضجت معانى السكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وفسكييرهم العقلي ، إلى حد كبير .

ولذا كانت الثقافات الحديثة قد طفت موجتها على كثير من نواحي الحياة والتفكير ، فإن العربية كانت أعز من أن تخسر رأسها للعواصف الجامحة التي تهدم من صرحاها الشاهق ، أو تزروع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كأهي لغة التفكير والأدب ، وإن سايرت حركة الرق ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

ولذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فإن الأدب اليوناني لم يترجم منه شيء ، ولم يتتأثر به الأدب والشعر في نهضتهما الوثابة في هذا العصر الحافل (١) ، لتباهي الأذواق ، ولا عتاد العرب بنفسهم ولنفهم وأدبهم ، ولا اختلاف حياة العرب واليونان التي يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها ، وعلى أية حال فإن الثقافة اليونانية قد صبّت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقه في التفكير والخيال والمعنى (٢) وطراة التقسيم .

(١) ٤٥ بار تولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه - ٢٨٧ التوجيه الأدبي - ٢٣٥ الأدب العباسى محمود مصطفى - ٢٨٠ ج ١ حتى الإسلام - ٢٤٤ الزيارات .

(٢) وقد أفاد الأدب العربي من القصص والحكم اليونانية التي انتشرت في الثقافة الإسلامية وعربت ، كثيراً من الألفاظ اليونانية .

وتأثير الثقافة الهندية في الأدب العربي كذلك كان طفيفاً لا يعدو ذلك الأفكار التي كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة في الشعر ، وهذه القصص الهندية التي أولع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككليلة ودمنة الذي نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التي تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التي عربوها وأدخلوها إلى العربية .

وأثر الفرس في الأدب العربي كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون ووصف الراح ، وأدب الرهد تأثيراً كثيراً بتراث الفرس ، وعنهم نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصي ككليلة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوصيات كان للفرس فيها أثر كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توصيات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعتابي وأبي نواس وبشار وسوادم ، فأخرجوا أدباءً عريباً فيه معانٍ الفرس وبلاهة العرب ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرّب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشهراً بالترجيح ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوت صفراً في رأس درة مركبة في قائم من ذبر جد
كأن بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد (١)
وكان أردشير بن بابل يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على
كرسي ذبر جد أخضر يتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخز ونفحات
العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب ، وراجع ص ٧٠ من هذا الكتاب .

(٢) وينسب البيت الأول لعلي بن الحسن (٢٣ ج ٢ ديوان المسافى) قال أبو هلال : وهو من قول أردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى ذبر جد يتوسطه شذور من الذهب .

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فأشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كايلر في المهب
وأخذ ابن الروى معنى حكمة إبراهام جور (١) فنظم له شعراً (٢). وكان
من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء
(الكتابية الفنية) في الدواوين، وكان منهم شعراء أحدثوا آثاراً واسعة في
أغراض الشعر ومعانيه، وأوزانه ونوافيه، ونقلوا للخلفاء والأمراء
والوزراء كثيراً من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم
وأسفارهم، مما ظهر أثره في الأدب العربي واضحًا. وإذا كان الأدب في عهد
بني أمية عريباً خالصاً في المادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته
وحفظه وروايته، فقد كان في عهد بنى العباس أثره أعمق لافي الأسلوب
البيانى، بل في التفكير والخيال. وبتأثيرهم تنوّع الأغراض وظهر التأنيق
في التتر والشعر، وطلبت الرقة والدمانة، مع المحافظة على فصاحة العربية
والأخذ بأساليبها.

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق
تشيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم وأخبار الرهاد فيه، وبتأليف
الكتب الجامحة في الأدب كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكامل
والعقد، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف،
وأظهر ما يتجلّى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبانفة الشديدة والإكثار
من الحكمة والمثل والبراهين العقلية. وقد أصاب الأدب كعاد وانصرف
الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسّطه ابن قتيبة في مقدمة أدب المكابن
بوضوح .

(١) فارسي قديم تعلم العربية في الحيرة وشعر بها، ويقول شمس الدين الرازى
في كتاب د المعجم، إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذنه عنه العرب وكان عليه
الفرس يستجذرون منه قرض الشعر .

(٢) ٢٧٨ ج ٢ وما بعدها ذهر الأدب .

ولقد كان ظهور الموالى ، وعلو شأنهم (١) مما أحياناً في نقوسهم الشعورى
القومى ، وذكرى بما كان لهم من مجد بائده ، وعزقديم ، فلعلت الشعوبية ، تنفس
عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان آثارهم وترى
على العرب بتلمس المثالب لهم ، وتسجل ذلك في الشعر ، من أمثال بشار ،
ومتوكل ، والخريبي ، ومهميار ؛ وفي الكتب يضعها أمثال أبي عبيدة ،
والمهيم بن عدی ، وسعيد بن حميد ، وعلان أشعوى ، وابنرى لهؤلاء من
الشعراء والعلماء من يرد عليهم ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال محمد
بن يزيد الأموي ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدى
العصبية الجنسية بما عالجه في رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين
استشرى شرها ، وكاد يوقع الفتنة في صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال في جانب الحكام والأمراء ، جعل الأدب يستمر في اتجاهه
القديم إلى ناحيتهم ، ويسير في ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى بذكرهم ،
وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت
أسبابهم بالقصور ، وذافروا في رحابها حلاوة النعيم .

وبعد ذلك المصر استمر الأدب في النفو والازدهار على الرغم من انقسام
الخلافة وضعفها . . . ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات
الإسلامية في تشجيع الآباء والشعراء ونائهم لبغداد وخلافة بغداد في
العمل على إحاطة عروشهم بالملفkin وأعلام الشعر والأدب .

وانهيار الأدباء في الحضارة ، ومشاركةهم في هرها الخليع ، وجرنها
السافر ، مكن لهم من تصويرها في جميع جوانبها ، فوصفوها في مظاهرها الرائعة
وفي مبادلها الوضيعة ، وملا شعرهم بالتحرىص على متع الحياة وتحسين
الخلافة والمجون في صراحة مكشوفة ، وعرى فاضح ، وابتذال مهين ، ومن

(١) الأدب العربي الاستاذ أحد شعراء .

شاء فليرجع إلى الأغاني ، أو يتيمة الدهر ، أو دواين كثير من الشعراء ،
ليستطلع ذلك في شعر بشار ، ومطیع بن إبراس ، ووالبة بن الحباب ،
ومسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، وحسين بن الصحاك ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه الماديات الجارفة ، وتصد عنها بالتنفير
من الدنيا والزريب في الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالا
في نتف لبعض الشعراء والعلماء ، وفي كثير من شعر أبي العتاهية ، وفي كل
ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من آواال .. وكذلك قسوة الحياة
وشقاوتها ، وشظف العيش ، ورنق المشرب ، انعكست صورها في كتب
المقامات ، قصصاً للــكادحين ، يحتالون على العيش بالمسكر والخداع ، وفي أدب
الحررمين ، سخطاً على الزمان ، وأنينا من البؤس والحرمان . واضطراب
نظام الحكم ، وفساد أدائه ، لم يعد من ينعي عليه ، ويندد به ، أو من يروم
علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع .

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر ، نبحث عن أشد الظواهر
الاجتماعية تأثيراً في الحياة ، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالي
وامتزاجهم على الوجه الذي يبناه ، من ظهور الموالي وقوة نفوذهم . فهم
الذين أثروا في المجتمع ، ولو نوا الحضارة ، بما ورثوا عن دولهم الدائمة ،
وحضارتهم الزائدة . وصيغوا الدولة بصبغتهم ، وأدخلوا فيها أنظمتهم وتقاليدهم ،
وقد تنبه إلى شيء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد بخارى الأمور فيه ،
وهذا أبو حيان التوسي يصور ذلك كله فيقول : « ضعف أمر الدين ،
وتحلل ركنه ، وتداوله الناس بالغلبة والقهر ، فتطاول له ناس من آل الرسول
صلى الله عليه وسلم بالعمجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعادتهم فمساورة الملك
وإزالته الدول ، وتناول العز كيف كان .. ألا ترى أن الحال استحال
عجماً كسروية وقصريّة ؟ . هذا الريع - وهو حاجب المنصور - يضرب
من شئت الخليفة عند العطسة ، فيشكوا ذلك إلى أبي جعفر المنصور ، فيقول :
أصحاب الرجل السنة ، وأخطأوا الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة

شرف من الأدب ، بل الأدب كله في السنة ، وهي الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى ، ولتكنها العزة بالإيمان ، وقد سمو آئين العجم أدبا وقدمه ورث على السنة التي هي ثمرة النبوة .

تطور الشعر في العصر العباسي الأول

١ - كان الشعر - ولابد - صورة المجتمع في كل بيته ، ومرآة الحياة في كل عصر ، وسجل الأحداث في كل زمان ذلك لأنه فيض الخاطر ، ونبع الشعور ، ونبضة الحس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان ، ولأن الشعراء أبلغ من الكتاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوباً مع أحوال المجتمع ، وأشد تأثيراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا نرى الشعر في كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة للمجتمع ، وأنه كأساً للأمال والمشاعر ، وتاريخاً محييناً لعصره ومصره ، فهو في الجاهلية ديوان العرب الذي يسجل مفاخرهم ، ويدون ما ثرهم ، ويصور أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجمة واستقرار ، وبأس ونجد ، وحماسة وفتوة ، ونحو ذلك من ألوان خلقهم ، وأحوال عيشهم . وأنت تقرؤه فتتجدد في صفحاته صورة البادية ، بوعرة مسالكها ، ووعرة شعابها ، وخشونة هضابها ، وترى فيه الرمال والكشان والرسوم والأطلال ، والأباعر والغزلان ، والصيد والطراد أكثر مما زر أي شىء آخر .

وهو في ظلال الإسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ويستجيب لدعائياها ، وتحور أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ، وتأثيراً بيانياً الحكيم ، وتجاوزاً مع ما أتيح للدولة من حظ في الحضارة ،

وما استجد من شتون في السياسة ، وما طرأ من عرمان وعرفان . فنراه قد خاض في المقصية ، وجال في السياسة ، وصال في المدح والمجاه ، وأيد وعارض ، وجادل وخاصم ، وجد في ميادين المجددين ، ونكشف في محاريب الراهدين ، وتبذر في مواطن الغزل والجنون مع المترفين الإباحيين .

ومع هذا فإنه لم يبعد كثيراً عن منهجه الجاهلي ، لأنصالة العروبة، وقرب العهد بالبداوة ، وقلة الحظ من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالأعاجم ، والترفع عن خلطهم ، فلم تتغير مناهجه ، أو تتعدد مذاهبه ، أو تتجددألوانه ، إلا بمقدار ما سمح به التغيير الطارئ في مناهج الحياة ، وأساليب العيش ، ومظاهر الحضارة . وهو في جاهليته وإسلامه أنغام شجية تهدى الأشيان وتنهى العبرات ، وتستير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتحمل الحياة .

٢ - وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أو محدودة ، وخياله المجنح يحلق في آفاق الجمال ، فيبني من الصخر قصرآ ، وينبت من القفر زهرآ ، ويخلق من الرسوم الدوارس ، شخصاً وأوائل ، ويصور من البعر المتثار لآلئه وجواهر ... فما بالك به في العصر العباسي ، والحضارة في الأوج ، والمدنية في القمة ، ولطبيعته في جلوة ، والأرض في زينة ، وانوثة متزوعة ، والمناظر متتجدة ، والعمان في عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملوكهم (بغداد) في ديار الأعاجم ، وامتزجوا بهم كل الامتزاج ، واندمجاً فيهم كل الاندماج . ولم يلأ ألوان من الثقافات ، وأنماط من العيش ، وأنواع من الخلوق وأشتات من العادات والتقاليد .. فكان لهذا كله أثره في نفوس الشعراء ، كما كان له أثره في نفوس العرب جميعاً، ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة مالم يألفه خيالهم من قبل ، فهند رياض ناصرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر

منقة ، وتلك مجال مفاكحة وسر ، وجال منادمة وطرب ، إلى غير ذلك
ما يهدى الشعر ويغذيه ويشيره وينميه ، ويجعله يخلق في أرحب آفاق وأعلى سماء .

كذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف ، وألصق بالمدنية . وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدلى إلى مظاهر الحضارة في قصورهم ولهم رأينا الشعر يخلق في كل آفاق ويفرد فوق كل فن ، فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الحب ، ويفاكه السمار ، ويساجل الآوتار ، وينشد الحسن ، ويتهافت بالجمال وهكذا انتقل من الصحاري الجديدة ، والخيام المطيبة ، إلى الرياض والفياض والقصور والزهور ، والجدائل المترفة أو المروج المنعة ، ومطارح اللهو والترف والنعم .

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تجرب لهاته خشونة الحياة ، ويختنق شدو لفح المغير ، حتى إذا أشرقت شمس الرياح ، وهبت نسماته ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ماشاء فرحا ، وابتدع أقانين الشدو والغناء وما العصر العباسي إلا ذلك الرياح .

وهكذا يتطور بتطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الإنسانية ، فيكون في الجاهلية أنغام صبي ، وحماسة فتاة ، وعواطف أثرة وفي الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطامع حياة ، ثم يستحر شبابه ، ويكتمل في صدر الدولة العباسية ، فيظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما: عبث شباب ، وأغاني طرب ومظاهر ترف (١)

وظهر في هذا العصر تياران في الشعر لكل منهما خصائصه وعيزاته : تيار الشعر البدوى بما يشتمل عليه من خصائص فكرية وفنية ، وتيار الشعر المرضى بما يتميز به من سمات وخصائص . .

ونفصل الحديث في بعض الأسباب لتطور الشعر في هذا العصر . .

(١) الزيات في تاريخ الأدب العربي ص ٤٧

عنابة الخلفاء ومنزلة الشعراء

١ — كان الخلفاء والأمراء في عصر نفوذ الدولة العباسية عرباً، جرى في عروقهم دم العربوبة، وتأصلت ملكتها، وسرتهم بلاغتها، ورأوا في الشعر مجدهم التليد ونورهم القديم، فخرصوا على روايته وإحيائه، واهتزت أريجيتهم لسماعه وإنجاده، وخلب أفتادهم القول الواقع، والبيان الفائق، واحتلب عطائهم المدح الجيد، وانتقاء البليغ . ولهذا قربوا الشعراء، وفرضوا لهم في بيت المال ، وأغدقوا عليهم العطايا والصلات ، وأغرقوهم بالمنح والهبات حتى تجاوزت آمالهم اتكسب بالشعر للعيش والسكناف ، إلى التراء الواسع والغنى السابع واحتزان المال ، والأحد بأكبر نصيب من الرفاهية والبذخ والنعيم . حتى رأيتم بهم يقتلون التروات الواسعة . ويسامون الملوك في المنزلة ، ويسارون ذوى اليسار في نعيم العيش ، وترف الحياة ، وامتلاك القصور و "الضياع" .

قالوا : إن سلاما الخاسر مات عن خمسين ألف دينار ، ويحدثنا صاحب الأغافى أنه كان يأنى بباب المهدى على البردون قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والوشى ، وما أشبه ذلك من اثياب الغالية الثن ، وراحته المسك والطيب الغالية تفوح منه .

ومروان بن أبي حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات ، وكان أبو نواس مخطوظاً لا يدرى ما يصل إليه ، وكان يتتساجل في الإنفاق هو والعباس بن الأحنف صريح الغواني ، وكان البحترى ملياً ، قد فاض كسبه ، وكان يركب في موكب من عبيده (١) .

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لا نكاد نصدقه اليوم عن ثراء الشعراء
وما كانت تستدره رقام السحرية من مال . ولم يقف إلافاء والأمراء عند
سماع الشعر ، والارتياح لإن شاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصر
وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق وإلمام . فهذا المنصور يفجعه الدهر
في ابنه جعفر ؛ فتستبد اللوعة بقلبه ، ويُسَدُّ الحزن عليه منافذ السلوى ،
فلا يجد سبيلاً للعزاء إلا قصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه ، فيطلب إلى
الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع؟

فلا يجد الربيع من يحفظها ، فت تكون مصيّبته في أهل بيته أشد من
لوعته في ابنه ، ثم يبعث إلى القواد والولاة ، حتى يصادف الربيع شيخاً
مؤديباً ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشده المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ
قول أبي ذؤيب : «والدهر لا يرقى على حدثائه» ، عرف موطن الإبداع .
فاستعاده مائة مرة ، وهو يقول : سلاماً أبو ذؤيب عند هذا القول .. وكذلك
كان المأمون ، وسيأتي من أخباره ما يدل على ذوقه وبصره .

وكان الناس يعرفون للضرير منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أحرج
المواقف ، التي يتحاشون المواجهة فيها . كالذى جدث من نقض تقىور
ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجوريه . فلم يجرؤ
أحد على إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن
ينبئوه . فتقدم إليه شاهر من أهل جدة يكنى أباً محمد ، وأنشده :

نقض الذى أعطىته نقىور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح آناك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيده ، قال الرشيد : أود فعل ؟ ثم غراه وفتح هرفة
وكان الرشيد شاعراً كفيراً من الخانق العباسين ، الذين شاركوا في

النهاية الشعرية بقول الشعر ، إلى جانب عنائهم به ، وإغراقهم على قائليه .
يررون أن الرشيد قال في قيته :

بدي صدوداً وتخفي تحته مقة
فالنفس راضبة والطرف غضبان
يا من وضعت له خدى فدله
وليس فوق سوى الرحمن سلطان

وقال في رثاء جارية :

فارق عيشى حين فارقها فا أبالي كيما كانا
قد كثر الكلام ولكتنى لست أرى بعدك إنسانا

وقال في جواريه الثلاث : سحر وضياء وحنث :

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبي بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الموى وبه قوين أعز من سلطانى

أما الذى لاشك فيه فهو أنه كان أدق حسا ، وأنق ذوقا ، وأصح فهما
ويصرأ به من سواه ؛ ولقد أشد النعاني يوماً في صفة فرس :
كان أذىـه إذا تشوفـا قادمة أو قـلـا محـراـ
فقال له : دع كان ، وفل تحـال ، حتى يستـوى الشـعـر .

وقالوا : إن المأمون وصف الشطرنج بقوله :

أرض مربعة حمراء من أدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة في عسكرين بلا طبل ولا علم
ومنزلة مثل بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحترى في عصرهم معروفة
ما يدل على أنه كان عصر ازدهار للشعر ، وعناية شديدة من الدولة والشعب
بنهضته ، بل لقد كان اليكثير من الأمراء وأئمـاء الخلفاء شـعـراء مـجـيدـين ،

من مثل إبراهيم بن المهدى وعبد الله بن المعتن وغيرهما ، ويفيض الصولى
في قسم من أقسام كتابه الأوراق ، في ذكر الأمراء وأولاد الخلفاء من
الشعراء ، ويقال إن المهدى حفظ شعر ذى الرمة في صباه ، ولو لديه جمع
المفضل الضبي مختاراته « المفضليات » .

هذا إلى سعة الثقافة الأدبية ، ونمو العلوم العربية ، واتساع الدوق
الأدبي باتساع المعرفة والاطلاع ، وغير ذلك ، ما كان له أثره في زيادة
العناية بالشعر والشعراء في هذا العصر .

ومن الأدلة على فطنتهم بالشعر وتذوقهم له ، ما يروى عن الأصمعي (١)
أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء (٢) وخلف الأخر (٣) يأتيان بشاراً (٤) ،
فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحصدت ؟
فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال
ثم ينصرفان ؛ فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التي أحصدتها في
ابن قتيبة (٥) ؟ قال : هي التي بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت
فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ،
فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ؛ قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ
فأنشدهما :

(١) عبد الملك بن قریب الإمام في اللغة والأدب ، توفي عام ٢١٦ هـ
ويتجدد الرواية في الأغاني : ص ٤١ ج ٣ ، وفي الدلائل ص ١٠ وفي المفتاح ص ٧٥ .
(٢) وفي الأغاني : خلف بن أبي عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة
توفي عام ١٥٤ هـ وخلفه ابنه توفي في أو أخر القرن الثاني المجري .

(٣) من أئمة اللغة والشعر والأدب توفي عام ١٨٠ هـ

(٤) أبو معاذ أمام الشعراء الحمدلين توفي عام ١٦٧ هـ

(٥) قائد من كبار القواد المشهورين في بدء هبة الدولة العباسية .

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهُجَيرِ إِنْ ذَاكَ النَّجَاحُ فِي التَّبَكِيرِ^(١)

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا بأباما عاذ مكان : إن ذاك النجاح
بَكْرًا فَالنَّجَاحُ ، كَانَ أَحْسَنُ ، فَقَالَ بَشَارٌ : إِنَّمَا بَذِيَّتَهَا أَعْرَايَةً وَحُشْبَيَّةً ، فَقَالَتْ :
إِنْ ذَاكَ النَّجَاحُ ، كَمَا يَقُولُ الْأَعْرَابُ الْبَدْوِيُّونَ ، وَلَوْ قَلْتَ (بَكْرًا فَالنَّجَاحُ)
 كان هذا من كلام المولدین ، ولا يشبه ذلك اسکلام ولا يدخل في معنى القصيدة ،
 قال : فقام خلف فقبل بين هينيه ؛ فهل كان ماجرى بين خلف وبشار بمحضر
 من أبي عمرو بن العلاء — وهم من فورة هذا الفن — إلا للطف المعنى في
 ذلك وخفايه؟^(٢) .

ولم تكن السياسة وحدها هي الباعث على الاحتفال بالشعر ، بل التلذذ به
 والتأند به وترى أخبار الماضين فيه ، ولهذا كانوا يذدون مجالس الشعراء
 ويأنسون بهم في خلوتهم ويقررون عليهم نظمه فيما يقول بخواطرهم ويسألون
 العلماء به عمما يستغلق من المعانى ويستقدمون الرواة لسؤال عن بيت مفرد
 ليصلوه بقصيدة أو ينسبوه إلى قائله .

سأل الوشيد أهل مجلسه مرة عن الصدر لقول الشاعر : « ومن يسأل
 الصعلوك أين مذاهبه ، فلم يعرفه أحد وكان الأصمعي مريضاً فأرسل إليه
 إسحاق الموصلي وبعث معه ألف دينار فأرسل إليه إن هذا عجز بيت لابي
 النشناش وصدره (وسائله أين الرحيل وسائل) من قصيده : »

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يربح سواما ولم تعطف عليه أقاربها
 والوشيد من أكثر الخلفاء بحثاً في الشعر ، سأله أهل مجلسه مرة عن معنى
 قول الشاعر :

(١) البيت تجده في الدلائل ص ٢٢١ و ٢٤٣ وفي المطول ص ١٠٢ وفي
 المفتاح ص ٧٥

(٢) راجع ٩٧٥٦: شرح الإيضاح للخطيب القرافي بقلم محمد عبد المنعم خفاجي

قتلوا ابن عفان الخليفة حرما ودعا فلم أر مثله خنثولا
فتجادل الأصمي والكساني ولجا بين يديه في الخصومة وكان رأيه [فاحصل
بينهما ... وأعطي الفضل خاتماً قيمته ألف وستمائة دينار مكافأة على أحسن
بيت قيل في الذئب .. وكان المأمون على غراره، ولـى ابن الجهم ولـى يـعـوف عنـهم
بيـت طـلـبـه فـوـجـدـه عـنـهـ، وـكـانـ الـمـأـمـونـ يـيـالـغـ فـيـ إـكـرـامـ الشـعـرـاءـ وـيـعـفـوـ عـنـهـ
وـإـنـ تـطـارـلـواـ عـلـيـهـ، دـخـلـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ الـمـهـدـيـ عـضـبـانـ فـقـالـ المـأـمـونـ : ماـبـكـ؟
فـقـالـ نـالـ مـنـ دـعـبـلـ ، فـقـالـ : لـكـ فـيـ أـسـوـةـ أـمـاـ سـمـعـتـ مـاقـالـ :
أـيـسوـمـنـيـ الـمـأـمـونـ خـطـةـ عـاجـزـ أوـ مـارـأـيـ بـالـأـمـسـ رـأـسـ مـحـمـدـ
إـنـ مـنـ الـقـوـمـ الـذـيـ سـيـوـفـهـ قـتـلـتـ أـخـاكـ وـشـرفـكـ بـمـقـدـعـ .
فـقـالـ : زـادـكـ اللـهـ حـلـيـاـ يـأـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ ، وـذـهـبـ عـنـ إـبـرـاهـيمـ الغـضـبـ .

ولـمـ يـجـتـمـعـ عـلـىـ بـابـ الـمـلـوـكـ مـاـجـتـمـعـ عـلـىـ بـابـ الـمـأـمـونـ وـالـرـشـيدـ
مـنـ الشـعـرـاءـ وـيـشـبـهـ بـهـمـاـ سـيـفـ الـدـوـلـةـ الـجـدـانـيـ وـ"ـصـاحـبـ بـنـ عـبـادـ ، وـإـذـاـ
ذـكـرـ الـمـحـبـوـنـ لـلـشـعـرـ الـمـثـيـرـوـنـ عـلـيـهـ الـعـارـفـوـنـ بـمـكـانـهـ الـمـيـزـوـنـ بـلـيـدـهـ وـرـدـيـتـهـ
فـاشـدـ بـالـبـرـامـكـ وـآلـ سـهـلـ وـآلـ طـاهـ .

وـقدـ بـلـغـ مـنـ مـنـزـلـةـ الشـعـرـاءـ أـنـهـ كـانـواـ يـحـتـكـمـونـ فـيـ أـمـوـالـ الـخـلـفـاءـ
وـيـفـرـطـونـ فـيـ الدـالـةـ عـلـيـهـمـ ، وـيـشـفـعـوـنـ فـيـاـ لـازـجـيـ الشـفـاعـةـ فـيـهـ ، فـيـفـكـونـ
رـقـابـ الـعـنـاـةـ وـيـجـيـرـونـ مـنـ الـمـوـتـ وـيـدـخـلـونـ بـيـنـ الـخـلـفـاءـ وـخـاصـتـهـ ، وـكـتبـ
الـأـدـبـ مـلـيـتـهـ بـأـخـبـارـهـ ؛ وـقـدـ بـلـغـ مـنـ تـأـيـرـ الشـعـرـ فـيـ الـبـيـتـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ أـنـ
نـقـشوـهـ عـلـىـ جـدـرـانـ الـمـازـلـ وـالـأـدـبـ وـفـصـوصـ الـخـوـاتـمـ وـصـدورـ الـمـجـالـسـ
وـطـرـزـوـهـ عـلـىـ السـتـائـرـ وـالـطـنـافـسـ ، وـعـلـىـ الـأـفـدـاحـ وـالـكـاسـاتـ وـسـائـرـ آـنـيـةـ
الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ وـالـأـلـعـامـ وـالـمـصـابـنـ ، وـزـيـنـوـاـ بـهـ أـبـداـنـهـ فـكـتـبـوـهـ بـالـخـنـاءـ
عـلـىـ الـخـدـوـدـ وـالـأـفـدـامـ ، وـكـانـ الـجـمـعـ الـعـربـيـ كـلـهـ أـصـبـحـ ذـاـ فـنـ شـاعـرـةـ مـلـهـمةـ ..

٢ - وهذه أمثلة لعنابة الخلفاء بالشعر :

(١) عنابة الجلفاء العباسين في هذا العصر بالشعر والشعراء معروفة مشهورة يروى أن أبو دلامة أقبل على المنصور، فأنشده :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقليل أعدوا يا آل عباس
ثم ارتفوا في شعاع الشمس كلّمكوا إلى السماء فأتم أطهر الناس
وقدموا القائد المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذنان في الرأس

فهز أرجيبيته ، وأنساه حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شيء تجد أن
تعينك ؟ قال أبو دلامة : تملاى هذه الخريطة درام ، فلئت فوسيت أربعة
آلاف درهم .

وقال الريحان بن زياد : قلت للمنصور يوما : إن الشعراء ببابك وم
كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحني
منكم فلا يصفني بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحيث فإنما هي دويبة متنة
تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو جب .
فن كان في شعره هذا فلينصرف فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة الذي
دخل فأنشده قصيدة قال منها :

له طينة يضاء من آل هاشم إذاً أسود من كوم الزراب القبائل
إذاً ما أتي شيئاً مضرى كالذى أتى وإن قال إنى فاعل فهو فاعل
فقال : حسبيك ، هذا عين الشعر ، قد أمرت بخمسة آلاف درهم .
وهذا ابنه المهدى (١) يدخل عليه عمرو بن سلم الخاسر ، فينشده :

(١) كان المهدى يعجب برأية زهير ويقول : ذهب والله من يقول مثل هذا
٢٥٨ : البيان والتبيين للجاحظ ط الخانى ،

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجي أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدى عدلا ونائلا كأنهما عَدْلُ النبى ونائله

قال: أما ما ذكرت من الجبود ، فواه ما تعدل الدنيا عندي خاتمى هذا .
وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله أحد فيه ، وإنما لأنحراء جسمى ،
ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنسده :

إن الخليفة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بنى العباس
شدت مناكب ملوكهم بخليفة كالدهر يخلط لينه بشناس
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . ثم دخل عليه بعدها فأنسده :
أنت سؤال السائلين بجسده ملك مواهبه تروح وتغتنى
هذا الخليفة جوده ونواله نفس السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً، ودخل عليه ابن الخطاط فدحه ،
فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :
لمست بكني كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجبود من كفه يعدى
فلا أنا منه مأعاد ذرو الغنى أفت وأعداني فأتألفت ماعندي
فليا بلغ المهدى ما فعل أعطاه بكل درهم ديناراً .

ودخل مروان بن أبي حفصة على المادى فأنسده في مدحه :
تشابه يوما بأسره ونواله فـا أحد يدرى لأيهما الفضل
قال له المادى : أيهما أحب إليك ثلاثون ألفاً معجلة أرماته ألف تدور
في الديوان؟ قال تعجل الثلاثون ألفاً وتدور المائة ألف ، قال : بل تعجلان
لك جميعا ، فحمل له ذلك .

وروى الصولى عن سعيد بن مسلم قال : إنما أرجو أن يغفر الله لامادى

بشيء ، رأيته منه . حضرته وأبو الخطاب السعدي ينشده في مدحه :
 ياخير من عقدت كفاه حجزته وخير من قلته أمرها مضر
 فقال المدادي : إلا من ؟ ويلك . فقلت يا أمير المؤمنين : إنما يعني من أهل
 هذا الزمان ، فتسكت الشاعر فقال :
 إلا النبي رسول الله إن له فضلاً وأنت بذلك الفضل فتغتر
 فقال ، الآن أصبحت وأحسنت ، وأمر له بخمسين ألف درهم (١)

أما الرشيد فقد جاوز عطاوه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنائه بالشعر
 كل عناء ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم العلماء ،
 وينثر بالشعر أبلغ التأثير ، حتى إنه لما آلمه لحن الملحنين الذين كانوا يتغدون
 في دجلة ، أمر أبا العتابية وهو في السجن أن يعمل لهم شعرآ يغدون فيه
 ليصلح من السنتهم ، فعمل أبو العتابية شعرآ في الوعظ والتذكرة بتقلب
 الأيام ، ليغتصب على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر
 بإطلاقه من السجن . فسكن الرشيد يسكي وينتحب إذا سمع هذا الشعر
 الذي كان منه :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجروح
 هل مطلوب بذنب توبة منه نصوح
 كيف إصلاح قلوب إنما من قروح
 سيسير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
 بين هيئي كل حى علم الموت يلوح
 كلنا في غفلة والا موت يندو ويروح
 نح على نفسك يامسى سكين إن كنت توح

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٧٦ و ١٧٧

لتوتن ولن عمر ت ما عمر نوع

ولقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسلت بها دون التغور فأحكمت
بـه من أمور المسلمين المراثر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية
على الرغم قسراً عن يده وهو صاغر
ترى حوله الأملالك من آل هاشم كـا حفت البدر النجوم الـواهر
فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وكـاـهـ خـلـعـتـهـ . وأـمـرـ لـهـ بـعـشـرـةـ مـنـ رـقـيقـ
الـروـمـ ، وـحـلـهـ عـلـيـ بـرـذـونـ مـنـ خـاصـ مـرـاكـبـهـ .

ومدحه لـإـبرـاهـيمـ المـوـصـلـيـ لـماـلـىـ الـخـلـاـةـ وـاسـتـوزـرـ يـحيـيـ بـنـ خـالـدـ، فـقـالـ:

أـلمـ تـأـنـ الشـمـسـ كـانـتـ مـرـيـضـةـ فـلـمـ أـنـىـ هـارـونـ أـشـرـقـ نـورـهـاـ
تـلـبـسـتـ الدـنـيـاـ جـسـالـاـ بـلـكـهـ فـهـارـونـ وـالـيـهـاـ وـيـحـيـيـ وـزـيـرـهـاـ
فـأـعـطـاهـ مـائـةـ أـلـفـ دـرـمـ ، وـأـعـطـاهـ يـحيـيـ خـمـسـيـنـ أـلـفـاـ .

وـقـالـ الـمـأـمـوـنـ يـوـمـاـ لـمـحـمـدـ بـنـ الـجـهـمـ : أـنـشـدـنـيـ ثـلـاثـةـ أـيـاتـ فـيـ الـمـدـحـ
وـالـثـنـاءـ ، وـلـكـ بـكـلـ بـيـتـ كـوـرـةـ ، فـأـنـشـدـهـ فـيـ الـمـدـحـ :

يـجـرـدـ بـالـنـفـسـ إـنـ ضـنـ الـجـوـادـ بـهـ وـالـجـوـدـ بـالـنـفـسـ أـنـهـ غـاـيـةـ الـجـوـدـ
وـأـنـشـدـهـ فـيـ الـمـجـاهـ :

قـبـحـتـ مـنـاظـرـهـ خـيـنـ خـبـرـهـمـ حـسـنـتـ مـنـاظـرـهـمـ لـقـبـحـ الـخـبـرـ
وـأـنـشـدـهـ فـيـ الرـنـاءـ :

أـرـادـواـ لـيـخـفـواـ قـهـرـهـ عـنـ عـدـوـهـ فـطـيـبـ تـرـابـ الـقـبـرـ دـلـ عـلـىـ الـقـبـرـ
وـكـانـ الـمـتـوـكـلـ جـوـادـ آـمـدـحـ ، يـقـالـ : مـاـعـطـىـ خـلـيـفـةـ شـاعـرـآـ مـاـعـطـىـ
الـمـتـوـكـلـ . دـخـلـ عـلـيـهـ عـلـىـ بـنـ الـجـهـمـ ، وـيـدـيـهـ درـتـانـ يـقـلـيـمـاـ ، فـأـنـشـدـهـ قـصـيـدةـ
فـرـمـىـ إـلـيـهـ بـدـرـةـ ، فـقـلـبـهـ ، فـقـالـ : تـسـتـنقـصـ بـهـاـ وـهـيـ دـاـلـهـ خـيـرـ مـنـ مـائـةـ أـلـفـ؟

قال: لا، ولكنني أفكِر في أبيات آخذ بها الأخرى، فقال: قل، فقال:

بسر من را إمام عدل تعرف من بحره البحار
 المالك فيه وفي بيته ما اختلف الليل والنهار
 يرجى وبخشى لكل خطب كأنه جنة ونار
 يداء في الجود ضرثان عليه كلتاهما تغار
 لم تأت منه اليمين شيئاً إلا أنت مثله اليسار

فرمى إليه بالدرة الأخرى^(١) ، ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان ابن أبي حفصة ، فأنشده :

سوق الله نجداً والسلام على نجد
 وياحدنا نجد على القرب والبعد
 نظرت إلى نجد وبغداد دونها
 لعل أرى نجداً وهيات من نجد
 ولا شيء أحلى من زيارتهم عندي
 فلياً أنتم التصييدة نفعه بعشرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة
 من الطبر ، حتى أنتبه بالشكر في قوله :

تخير رب الناس جعفرأ فلتك أمر العباد تخيرا
 فلياً انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد فقد خفت أن أطغى وأن أنجبرا
 قال المتسوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، ولا تبرح أو تسأل
 حاجة ، فسأله ضياعاً كانت قد أنقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فرد لها إليه .
 ودخل عليه البحترى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ،
 فقال له : قل في هذا يا بحترى : قال البحترى ولم أكن ذا بديبة ، ولكنني
 اعتزلت جانباً ، فقلت :

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢١٦

ذات ارتياز بحنين الرعد
 مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)
 لما نسيم كنسيم الورد
 مسفوحة الدمع لغير وجد
 ورقة مثل زئير الأسد
 ولمع برق كسيوف الهند
 فانثرت مثل انتشار العقد
 جامت بها ريح الصبا من نجد
 فراحت الأرض بعيش رغد
 من وشى أنوار الربا في برد
 كأنما غدرانها في الوهد
 يلعن من حبها بالزد

فقال المتكأ : انظروا ماذا في الخزان من ماء الورد العتيق ، فادفعوه
 إلى البحترى . قال فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، وبعثه بهال .

(ب) ولم يكن عظام الدولة ولا هناؤها أقل اهتماماً بالشعر، أو بذلك
 للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال، حتى كرمهم خالد بن برمك
 وسيام الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم . فقال بشار :

فجده له مستطرف وأصل
 لهذا خالدا في فله حذو برمك
 وكان ذور الآمال يدعون قبله
 بلفظ على الإعدام فيه دليل
 يسمون بالسؤال في كل موطن
 وإن كان فيهم تابه وجليل
 فسيام الزوار ستر أعليهما
 فأستاره للمجتدين سدول

فأمر له خالد لكل بيت بآلف درهم . وكان يعطيه في كل وفادة خمسة
 آلاف ، بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثة ألف درهم .

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء وانتقادات والرؤساء والعظام
 والأثرياء يبذلون للشعراء ، ويندفعون عليهم ، وكأنما أخذتهم رق ، الشعر ،
 وصرعاتهم شيئاً طيبـة ، فهم يعطون بالدين وبالشـال ، ويـتـخرـقـونـ فيـ هـذـاـ العـطـاءـ

(١) الارتياز : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طولية
 والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلباً .

حتى كأنهم لا يدرؤن ماذا يعطون ، وكان الأمراء من حوطم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، وينهبون هذا المانع .

ولو أتنا أفضنا في أخبار هؤلاء وتتبينا عطاياهم الجسام ؛ وصلاتهم التي تفوق الخيال ، لما اتسع ذلك المجال ، فحسبنا هذا القبس دليلا على عنايتهم بالشعر ، وانطباع نفوذهم على جهة ، وإثارةهم للشعراء ، وتقربهم ، والإسراف في مثوابتهم ، حتى صارت لهم منزلة لاتدانيها منزلة ومكانة لا تساويها مكانة ، فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويتقربون إساتهم ، ويغضون عن أذام ، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من مجاه ، ولقد قالوا إن دعبلًا هجا المأمون بقوله :

أو مرأى بالأمس رأس محمد فأكفف لعابك عن لعاب الأسود قلت أخاك وشرفتك يمقد شادراً بذكرك بعد طول خموله	أيسوني المأمون خطبة عاجز إن الترات مسهد طلابها لمن من القوم الذين سيفهم واستنقذوك من الحضيض الأسود
---	---

فذهب أبو سعد المخزومي ، وأنشد المأمون هذا المجاه ، وقال له : أنا ذنن ل يا أمير المؤمنين أن أجئيك برأسه ؟ فقال له : لا ، هذا رجل شرف علينا ، فانظر أنت عليه ، فأما قتله فلا .

ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلًا ، متى كنت خاماً ؟ في حجر الخلافة ولدت ، وبذرها غذيت ، وفي مهدها ربيت (١) » .

وقالوا إن المتوكل غصب على محمد بن العبيث ، لخروجه عليه ، فارسل إليه من أتى به أسيراً ، فأمر بضرب عنقه ، فأنسده :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتل وعلق أنا إلا جلة من خطبته ولا شك في خير الفعالين تفعل	إمام المهدى والصفح بالناس أجل وعفوك من نور النبوة يجبل فإنك خير السابقين إلى العلا
--	--

قال المตوكل لجلساته : إن فيه لادباً ، وأمر بإطلاقه والغفو عنه .
وهكذا شفع له مقام الأدب . وجاء الشعر ، وما أعظمه من جاء عن
هزلاه الناس .

بل إن أبعد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم . ما كان
من أبي تمام حين شفع للواثق عند أبيه في ولادة العهد ، فقال :
فأشدد بحرون الخلافة إله سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذاك معصم ما كنت تركه بدون سوار

مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويحملون الشعر امداً ذلك الإجلال ، ويحملونهم
من نفوسهم وقلوبهم تلك المكانة ، وينزلونهم من عنائهم ورعايتهم هذه
المنزلة ، فلا يكتفون بما يسرد مقدمهم ، أو يغنى حاجتهم ، بل يغمرونهم بالعطاء
ويغزونهم بالثراء ، ويفهمونهم بالترف والبذخ والنعيم ... قوم هذا شأنهم
لابد أن تعم مجالسهم بالأدب ، وتحفل نواديهم بالشعر ، وتزخر قصورهم
بـالشعراء والأدباء ، ولابدّع فهم عرب ترنح أعطاوهم نسمة بالأدب ، وتهنئ
أريجيتهم نشاطاً له ، وتهفو مشاعرهم صبوة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء في هذا العصر - كما كان لغيرهم من رجال القرن
والأدب - مجالس يتفاكون فيها بالطريف من الشعر ويتسامرون بالغرائب
من الرواية ، ويتجاذبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليق والنقد ،
ويستجدون الجيد ويجهذون الضعيف . وكما تدل على دقة الحس ، ورقعة
الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنائهم بالأدب ،
واعتبار مجالسه متعة للنفس ، وغاية للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل
والقلب والشعور ؛ وهذا مما يدل على مدى العناية الفائقة التي أولاهما
الخلفاء والأمراء والولاة للشعر والشعراء في هذا العصر .

وهذه بعض أمثلة مجالس الأدب والشعر في هذا العصر :

١ - قالوا إن المنصور ركب يوماً هجيننا في وقت المهاجرة ، فجعلت الشمس تلمع بين عينيه . فقال ملن حوله : إني قائل بيتنا ، فمن أجازه فله جبتي هذه ، وقال :

وهاجرة نصبت لها جبتي يقطع ظهرها ظهر العظاية^(١)
فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص قاض دمعي على خدي وأقصر واعظايه
قزع المنصور جبته وهو راكب ، وأعطاه الله ، فباعها بأربعين ديناره

٢ - وعقد المهدى يوم مجلساً لموان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بنى العباس فلما أكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كان أمير المؤمنين محمدأ لرأته الناس للناس والد
على أنه من خالق الحق منهم سقط به الموت الح توف الروا صد

فأشار إليه فامسلك ، فقال يابني العباس ، هذا شاعرك المنقطع إليك المعادى فيكم ، فآتوه ما يسره ، فأعطيه موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وأعطيه هرون منها ، وأعطيه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطيه هو ثلاثة ألفا ، ثم قال له : وسيأتيك مني ما يزيدتك إلى الغنى ، فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت مني ماسأزداد به شعراً .

٣ - وكان المادى مغرماً بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو ابن معذ يذكر الزيدي ، عقد مجلساً للشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز حصامة الزيدي من يـ ن جبـيع الأـنـام مـوسـى الـأـمـين
سيـف عـمـرو وـكـانـ فـيـا سـمـعـنا خـيـرـ ماـ أـغـمـضـتـ عـلـيـهـ الجـفـونـ

(١) العظاية : دريبة صغيرة ملساء تشبه سام ايرون .

أَخْضَرَ اللُّونَ بَيْنَ حَدِيهِ بَرْدَ
فَإِذَا مَاسَلَتْهُ بَهْرَ الشَّمْسِ
مَا يَبْلُغُهُ مِنْ اِنْتَصَاهَ لَحْبَ
يُسْتَطِيرُ الْأَبْصَارَ كَالْقَبْسِ الشَّهِ
وَكَانَ الْفَرِندُ وَالْجُوهرُ الْجَاهِ
مِنْ زَعْافِ يَمِينِ فِيهِ الْمَنْوَنِ
سَضِيَاهُ فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَبِينِ
أَشْهَالَ سُطْتَ بِهِ أُمَّ يَمِينِ
عَلَى مَا تَسْتَقِرُ فِيهِ الْعَيْوَنِ
رَى عَلَى صَفَحَتِهِ مَاءُ مَعِينِ
فَنَحْهُ عَشْرِينَ أَلْفَ دَرْهَمَ .

٤ — وكانت مجالس الرشيد أعمى هذه المجالس ، وأخلتها بالأدب ، لأنَّه كان عالماً شاعراً أدبياً ، ذا حسٍ مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب وغرام بالشعر ؛ كما كان أجزل الخلفاء عطاء ، وأبلغهم تأثيراً وتقديرًا ؛ وهو الذي شق عليه امتناع أبي العتاهية عن قول الشعر وحضور منادمه حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح في رده عن هذه الحال ، أمر بضربه ستين عصا ، ثم سجنَه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر ، ولكن أبو العتاهية أقسم ألا يتكلم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد وأمر بالتوسيعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية في أمره :

مَنْ لَقْبَ مَتِيمَ مَشْتَاقَ شَفَهَ شَوْقَهُ وَطَولَ الْفَرَاقَ
طَالَ شَوْقِي إِلَى قَعِيدَةِ بَيْتِي لَيْتَ شَعْرِي فَهَلْ لَنَا مِنْ تَلَاقٍ؟

فَلَمَّا سَمِعَ الرَّشِيدُ الشِّعْرَ ، أَعْطَاهُ بَدْلَ السَّتِينَ عَصَماً ، سَتِينَ أَلْفَ دَرْهَمٍ .
وَدَخَلَ عَلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَأَنْشَدَهُ ، فَقَالَ : يَا أَعْرَابِيَّ أَسْمَكَ مُسْتَحْسِنًا ،
وَأَنْكَرَكَ مَهْمَاء ، فَقُلْ لَنَا بَيْتَنِ فِي هَذِينِ - الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ - فَقَالَ : يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ حَلَتِنِي عَلَى الْوَعْرِ الْقَرَدَدَ^(١) ، وَأَرْجَعْتِنِي عَنِ السَّمْلِ الْخَدْرَدَ ، رَوْعَةَ
الْخَلَافَةِ ، وَبَهْرَ الدَّرْجَةِ ، وَنَفُورَ الْقَوَافِي عَلَى الْبَدِيهَةِ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : قَدْ جَعَلْتَ

(١) القرداد : ما لا ترفع من الأرض .

أعتذرك بدلاً من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفسك الخناف ،
وسهلت ميدن السباق ، ثم أشد :

بنيت لعبد الله ثم محمد ذر قبة الإسلام فاخضر عودها
ما طبها بارك الله فيما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك
قال : المنيدة^(١) يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمائة ناقة وسبعين خلعاً .

وروى حاد بن إسحاق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعي
والكسائي ، فسأل الرشيد عن بيت الراعنى :

قتلوا ابن عنان الخليفة حرماً ودعا فلم أرد شمله مخدولاً

فقال الكسائي : كان قد أحرب بالحج ، فضحك الأصمعي وتهانف^(٢) ،
فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال : والله ما أحرب بالحج ، ولا أراد أيضاً أنه
دخل في شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعوام إذا دخل في شهر أو عام . فقال
الكسائي : ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للحرام ؟ قال الأصمعي : ثثروني
عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل حرماً فتولى لم يمتع بكفن
أى إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان لم
يأت شيئاً يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعي مات طلاق في الشعر .
وردخل عليه سهل بن هرون ، وهو يصاحك الأمون ، فقال : اللهم زده
وابسط له في البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه ،
مقصرًا عن عده . فقال الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده

(١) المنيدة : مائة من الإبل .

(٢) التهانف : ضحك في قبور واستهزاء .

ومن الحديث أصحه وأبلغه ، ومن البيان أفصحه وأوسعه ، إذا رأي أنس يقول
لم يعجزه .. قال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمني إلى هذا
المعنى . فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

وَجَدْتُكْ أَمْسَ خَيْرَ بْنِ لَوْيَ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرُ مِنْكَ أَمْسَ
وَأَنْتَ غَدَّاً تَزِيدُ الْخَيْرَ ضَعْفًا كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسٍ
هـ - ولم يكن المأمون بأقل من أبيه فيما للشعر ، وبصراً بالأدب ، وعناية
بالآدباء وإفساحاً في مجالسه .

ولقد حضر بمجلسه مرة مروان بن أبي حصمة ، فأنشده :

أَنْجَى إِمَامَ الْمُهْدِيِّ الْمُأْمُونَ مُشْتَغِلاً بِالدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مُشَاغِلٌ
فَلَمْ يَطْرُبْ الْمُأْمُونُ ، وَلَمْ يَسْعُ مَا قَالَ الشَّاعِرُ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَقَالَ
مَرْوَانَ لِعَمَّارَةَ بْنَ عَقَيلٍ : أَعْلَمْتَ أَنَّ الْمُأْمُونَ لَا يَعْصِي الشِّعْرَ ؟ فَقَالَ عَمَّارَةُ :
وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ ؟ وَاللَّهُ إِنَّا نَنْتَشِدُهُ أَوَّلَ الْبَيْتِ ، فَيُسَبِّقُنَا إِلَى آخِرِهِ ،
قَالَ مَرْوَانٌ : إِنَّهُ لَمْ يَتَحْرُكْ لِقَوْلِي . فَقَالَ عَمَّارَةُ : إِنَّكَ وَاللَّهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ،
وَهُلْ زَدْتَ عَلَى أَنْ جَعَلْتَ عَجُوزًا فِي مَحَابِّهَا ، وَفِي يَدِهِ مَسَاجِبُهَا ؟ فَنَّ القَاتِمُ
بِأَمْرِ الدُّنْيَا إِذَا تَشَاغَلَ عَنْهَا وَهُوَ الْمُطْلَقُ بِهَا ؟ هَلَّا قَلْتَ فِيهِ كَمَا قَالَ عَمَّارٌ
جَرِيرٌ فِي عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيْعٌ نَصِيبٍ وَلَا عَرْضٌ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلٌ

فَقَالَ مَرْوَانٌ : الْآنَ عَلِمْتُ أَنِّي أَخْطَأْتُ .

وقال النضر بن شمبل : دخلت على المأمون في سهره ليلة ، فدار الحديث
على ذكر النساء ، فروى المأمون عن هشام حديث الرسول «إذا تزوج
الرجل المرأة لديها وجالها كان فيها سداد - بفتح السين - من حوز»
قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبي جحيلة عن الحسن عن علي كرم

الله وجهه عن رسول الله . إذا ذُوِّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا وَجَاهَهَا كَانَ فِيهَا سَدَادٌ بَكْسَرُ السِّينِ - مِنْ هُوْزٍ ، وَكَانَ الْمُؤْمِنُ مُتَكَبِّراً فَاسْتَوَى جَاسِساً ، وَقَالَ يَانْصَرٌ ، كَيْفَ قَلْتَ سَدَاداً بِالْكَسْرِ ؟ فَقَلَّتْ نَعَمُ ، لَأَنَّ السَّدَادَ بِالْفَتْحِ لِهِنْ ، قَالَ أَوْ تَلْحَتْنِي . قَلَّتْ : إِنَّمَا لِهِنْ هَشَامٌ فَتَبَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِفَظِهِ ، قَالَ فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ؟ قَلَّتْ : السَّدَادُ بِالْفَتْحِ الْبَصْدُ فِي الدِّينِ وَالسَّدِيلُ ، وَبِالْكَسْرِ الْبِلْغَةُ وَكُلُّ مَا سَدَدْتَ بِهِ شَيْئاً فَهُوَ سَدَادٌ . قَالَ : أَوْ تَعْرَفُ الْعَرَبَ ذَلِكَ ؟ قَلَّتْ : نَعَمُ ، هَذَا الْعَرْجَى يَقُولُ :

أَضَاعُونِي وَأَيْ قَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيَةٍ وَسَدَادٌ ثَغَرٌ
قَالَ الْمُؤْمِنُ : قَبِحَ اللَّهُ مِنْ لَا أَدْبَرَ لَهُ ، ثُمَّ أَمْرَ لِي بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ،
وَدَفَعَ لِي الْفَضْلَ بْنَ سَعْلَةَ ثَلَاثَيْنَ أَلْفَ ، فَأَخْذَتْ ثَمَانِينَ أَلْفَ بَحْرَفَ وَاحِدَ .

٦ - وَاجْتَمَعَ الشَّعْرَاءُ فِي مَجْلِسِ الْمُعْتَصِمِ فَقَالَ طَمُ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَحْسَنُ
أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مُنْصُورِ التَّبَرِيِّ فِي الرَّشِيدِ :

خَلِيفَةُ اللَّهِ إِنَّ الْجَوْدَ أُوْدِيَةُ أَحْلَالُكَ اللَّهُ مِنْهَا حِيثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ امْرَأَ فَالَّهُ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعَتْ مِنَ الْأَقْوَامِ مَتَضَعُ
مِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمْيَنِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنَّ أَخْلَفَ الْقَطْرَ لَمْ تَخْلُفْ خَابِلَهُ أَوْ ضَاقَ امْرُ ذَكْرِنَاهُ فَيَتَسَعُ

فَلَيَقُلْ ، فَقَالَ عَمَدْبَنْ وَهِبَ التَّبَرِيُّ : فَيَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ ، وَأَنْشَدَ :

ثَلَاثَةُ تَشْرِقُ الدَّنِيَا بِيَهْجَتِهَا شَمْسُ الصَّبْحِيِّ وَأَبُو إِسْحَاقِ الْقَمْرِ
فَالشَّمْسُ تَحْكِيمَهُ فِي الْإِشْرَاقِ طَالِعَةٌ إِذَا تَقْطَعُ عَنْ إِدْرَاكِهَا النَّظرُ
وَالْبَدْرُ يَحْكِيمَهُ فِي الظَّلَامِ مُنْبِلِجًا إِذَا اسْتَنَارتْ لِيَالِيهِ بِهِ الْغَرَرُ
فَهِشَ لَهُ وَبَالِغُ فِي جَازِتَهِ :

٧ - وَكَذَلِكَ كَانَ الْمُتَوَكِّلُ فِي هُجَالِسِهِ ، وَالْبَحْرَى يَصُولُ فِيهَا وَيَجُولُ :

ولقد شهد أبو عنبر الصيمرى بعض هذه المجالس ، فقال : كنت في مجلس
المتوكل والبحترى ينشده :

هن أى ثغر تبسم وبأى طرف تختكم
حق انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر || متوكل بن المعتصم
والجندى بن الجندى والمعتصم بن المنقى
مسلم الدين محمد فإذا سلت فقد سلم

وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ، وأشدهم غروراً ، فضجر
المتوكل وقال لى : أما تسمع ما يقول يا صيمرى ؟ قلت بلى يا سيدى ، فرنى
بما أحبيت قال بحيراتى : أهجه على هذا الروى ، نقلت :

أدخلت رأسك في الرحم وعلمت أنك تهزم
يا بحترى حذار وير حك من قضاقة ضخم^(١)
فلقد أسلت بوالديك من المجا سبل العرم
فبأى عرض تعتصم وبهتك جف القلم
وبحق جعفر الإمام م ابن الإمام المعتصم
لأصيرونك شهرة بين المسيل إلى العلم
فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق يديه ، وخرج البحترى غاضباً .

(١) قضاقة : جمع قضاقض وهو الأسد ، ضخم : جمع ضيقهم وهو الأسد .

المحدثون والمولدون

الشعراء المحدثون هم الذين نشأوا في العصر العباسي وتأثروا بظاهر الحضارة المختلفة فيه ، والمولدون منهم هم الذين نشأوا من أب عربي وأم أجمعية ، وبعضاً منهم كانت أصولهم كلها أجمعية ؛ وقد يطلق لفظ المولدين على ما يطلق عليهم لفظ المحدثين من شهود العصر العباسي وحضارته ومن اتساع أفق الخيال باتساع المشاهد وختلف المناظر فيه .

وللمولدين حسناتهم و سيئاتهم فيما يمكن أن نعدّها فيها يلي :

١ - تناولوا معانى المتقدمين فزادوا عليها وكشفوا عن مواطن الجمال فيها .

٢ - واخترعوا معانى جديدة لم تكن تخطر على بال متقدم .

٣ - وكسوها أسهل الكلام وأذبه على اللسان وأخفه في السمع وألصقه بالقلب .

٤ - وفتحوا في الأدب العربي فتحاً جديداً بزيادتهم في أغراضه التي جعلته أدباً رفيعاً خليقاً بالعناية به والاحتفال له وصيرته فناً عالياً يذهب النفس ويصدق الفكر ويسمو بالوجدان حين يطالع ماتضمنه من أمثال سائرة وحكم عالية ومواعظ شافية وتصوير لمجال الطبيعة ومظاهر الكون .

٥ - ولم ينفع بباب الخيال الشعري الصور الرائعة التي تسحر النفس وتجل عن الوصف وحسبك أن تستعرض ما مر بك في فن البيان لتشدرك بداعي خيالهم وتعلم ما قدمه المحدثون للأدب العربي من حسنات ومن محاسن المولدين .

٦ - براعة الاستهلال وحسن التخلص والخروج تمام حذقهم وجودة

صنفتهم وعلّمهم بأنّها مواطن إذا وفّيت حقّها من النجوى يد استهالت الأسماع
إليها وعطفت القلوب عليها ومن ابتداءاتهم الحسنة :

على قدر أهل العزم تأقى العزائم وتأقى على قدر السكرام المكارم
رأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي الحال الثاني

على أنّهم لم يسلّموا من العيب فقد نعى عليهم العلماء أموراً زرجم إلى
اللحن في الإعراب والخروج على أوضاع اللغة وأنّهم يسلّمون كلامهم حتى
يصيروا به إلى الساقط السوق وأنّ لهم معانٍ غامضة متناقضة واستعارات
بعيدة أو سخيفة ينبو عنها الذوق وأن فرط شفّفهم بالبديع دعاه إلى استهلاك
المعنى وإلى أن يصير الكلام ضرباً من الخداع والتزويف لا نأدبة للمراد
وأنّهم قد تدعوه شهوة الإغراب إلى التشبيه بالأعراب فيخلطون بكلامهم
الرقيق العذب وأسلوبهم السهل المتنع الألفاظ الغربية ، والحق أنّ هذا
تحامل وأن المتقدمين وقع لهم مثل هذه المفوّات ولكن العلماء بالغوا في
الاحتياط لهم والاعتذار عنهم بضرورب من التخريج تكشف عن المتابع
دون أن تمحوها :

إذا كان وجه العذر ليس بين فإن اطراح العذر خير من العذر

فإذا لم يسع المتأخرین ما وسع المتقدّمین كنا باعین فی الحسک بجاوزین
حد الإنصال وقد يقال إن المتأخرین أهل نجوى وفقه في اللغة وهرفان
المطرد والشاذ فكان عليهم أن يجنّبوا كلامهم ما يهجهنه وللقائل وجه ولكن
يبدو أن الضرورة تنزل الشعراء في كثير من الأحيان على حكمها .

ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا العصر

تأثرت ألفاظ الشعر وأساليبه بعوامل ثلاثة : الحضارة ، والغناء ، واختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية .

ا - أما تأثير الحضارة في ألفاظ الشعر وأساليبه فهو شديد الوضوح ، فقد تغيرت الحياة العربية في هذا العصر الذهبي تغيراً ملحوظاً يوشك أن يجعلها جديدة كل الجدة في جميع مظاهر العيش والاجتماع . فقد أطلت الحضارة الناس بظلاتها ، وألوانها ، وغيّرتهم المدنية بزخارفها وزينتها . حتى رأيناهم يتأنقون في اللباس ، ويغتنون في الطعام ، ويزخرفون في المسكن ويتصنعون في كل مظهر . فلم يعد مسكنهم بالخيمة التي ترفع عمدّها ، وتشد أطنانها في رمال الصحراء المنبسطة ، وإنما هو غرف تزدان بالمناضد ، وتزركش بالستائر ، وتحلى بالمرصعات ، وتقائق بالثريات ، وبالقرب منها ، قصور إخلافة بسوقها المحلاة ، وحيطانها الموشاة ، وأرائكها الوثيرة ، وثرياتها الناصعة ، وأبهاتها العاهرة ، وليلاتها الساهرة ، وقيانها المفردة ؛ ولم يعد طعامهم بالثرید أو الحيس وإنما هو ألوان وأنواع ، يتأنقون فيه فيطعمونه في صحاف الذهب والفضة ، ويخلطونه بهاء الورد والمكافور (١) ، كما يحلون أوانى الشراب بالصور المنقوشة ، والحللى المزركشة ، على نحو ما يصف أبو نواس في قوله :

تدار علينا الراح في عسجدية جنبها بأنواع التصاویر فارس
وكذلك كان تأنقهم في الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب
المصبغة بألوان الزهر كا يلبس النساء ، والنساء يلبسنه مطرزة موشاة ،
وهذا ابن الروى يشبه بها قوس فرح فيقول :

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠١

فقد نشرت أيدي الجنوب مطارفأ
على الجو دكنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر لاثر مبيض
كاذبال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وكن يحيان الرؤوس بحل من الذهب ، ويزينها بالعصابات المنضدة ،
ويحاكيهن الفارسيات في صبغ الشفاه والخدود .

هذه الحضارة الزاهية بألوانها ، ومظاهرها ، وما فيها من جمال وتجميل
وزخرف ووشى ، وصنعة وتصنيع ، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة
الفنية الخاصة ، كما يقول ابن خلدون : « وعلى مقدار عمران البلد يمكنون
جودة الصنائع للتألق فيها حيثئذ ، واستجادة ما يطلب منها ، بحيث تتوفر
دواعى الترف والثروة ^(١) »؛ وهكذا تأثر الأدب بالمدنية والحضارة ، وكان
الشعر دائماً أكثر تأثيراً ، وأسرع استجابة للمدنية والحضر ، لأنه المجال
للظرف والتألق ، والمصور للحسن والجمال ، والمحاجق فوق الطبيعة بأجنحة
الخيال . والموضع الأول للحن والغناء ، ومن مظاهر تأثير الحضارة
في ألفاظ الشعر وأساليبه ، ما يلي :

١ - رقت ألفاظه وعدبت ، ولانت تراكيه وسهلت ، حتى كاد كل
منهما يسلل رقة حاشية ، وأناقة مظهر ، وعذوبة مخرج ، وسمولة بيان .
فهجرت الكلمات الغربية ، ووضحت الأساليب ، وأشرقت ديراجة الكلام .

قال البحترى :

مختلف في الذي وعد سيل وسلام فلم يجد
وهو بالحسن مستبهد وبالدل منفرد
يتثنى على قضيب ويفتر عن برد

قد تطلب مخراجا من هواء فلم أجد
ضاق صدرى بما أجد
وتفضلت أن شكرت جوى الحب والكدر
واشتکأی هواك ذهب فإن تعف لم أعد

وقال أبو تمام في وصف الروض :

إن الرئيس أثر الزمان
لكان ذاروح وهذا جسمان
مصورا في صورة الإنسان
بوركت من وقت ومن أوان
تحتسال في مغوف الألوان
من فاتح ونافع وقان
رأي جفون زهر الألوان
شك أن كل شيء فان

ألاست ترى أثر الحضارة في رقة اللفظ وصفاته ، وسماحة الأسلوب
وبهاته ، وسماحة الكلام وإشرافه ؟ . وقد اجتمع مسلم بن الوليد
وأبونواس وأبو الشيص ودعبل في مجلس ، فقالوا ليشند كل واحد منكم
أجود مقال ، فأنشدتهم أبو الشيص :

وقف الموى بي حيث أنت فليس لي متاخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيدة حبا لذكرك فلمن الوم
فقال أبو نواس إني أرى نھطا خسرانيا مذهبها (١) . ويحدثنا ابن
رشيق أن أبا العتابية وأبا نواس والحسين بن الصبحاك اجتمعوا يوما
فقال أبو نواس ، ليشند كل منكم قصيدة لنفسه في مراده ، فأنشد
أبو العتابية :

يالإخوٰى إن الموى قاتل فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الموى فإتى في شغل شاغل
عينى على عتبة منملة بدمها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الصبحاك ، وقالا : أمامع سهولة هذه الألفاظ
وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا نزند شيئاً (١) .

وهكذا لأن عيشهم فلان ألقاظهم ، ورقت شمائهم فرفقت عباراتهم.

٢ - وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، وما زد ان
به الحياة من قصور ورياض ، وملعب حسان ، وبجالس هو وشدو ، أن
خلا أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبقاء المديار ، وانصرف
الشعراء عن هذا النحو الذي يذكّرهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة
وبريقها . ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطبيع بن إياس . ذكروا أنه
اجتمع بقى من أهل المكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ،
فقال مطبيع :

لأحسن من يهدى بحار بها القطا
ومن جبل طى ووصف كاسلاعا
تلحظ عيني عاشقين كلامها

وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كاف قوله :
قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ماضر لو كان جلس
وقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة السكرم

وقوله :

تبُكى على طلل الماضين من أسد
لادر درك قل لي من بنو أسد
ولا صفا ثلب من يصبو إلى وتد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر

وقوله :

دع الرسم الذي دثرا يعاني الريح والمطرا
ألم تر مابني كسرى وسابور لمن غبرا

وقد كان لهذه الجملة أثرها في الشعراء ، فكان منهم من استبدت به نشوة الراح ، وصرعته حميا الأفداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتداها بالغزل ، ومنهم من بره جمال الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة ، فراح يشدو بمحاسنها ، ويتعيني بوشيهها وروانها ، ويجعل ذلك استهلال قصيده وفاتحة موضوعه . وإنما لترى أبا نعام مدح المعتصم ، فيقدم بين يدي هذا المدح وصف الربيع ، ويمثل الدهر في حواشيه الزاهية التي يتغایل فيها الثرى ، كعروس تتنى في حلتها ، وتتسکر في زينتها :

وقت حواشى الدهر فهى تمر من
وغدى الثرى في حلية يتتسکر
من كل زاهرة ترقق بالندى
فكأنها عين إليك تحدى
تبعد وتحجبها الجيم كأنها
عناء تبدو تارة وتختفى
حتى خدت وهادتها وتجادها
فتثنى في حلل الربيع تبختر
أرأيت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يختال في وشيهاؤ زينتها ورقها

٣ - على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر في هذا العصر ، تلك هي أن الشعراءأخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويتخذون لها سمتا آخر غير ذلك كله . يخلو المطلع دالا على القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع القصيدة ابتداء ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو شفامة ، وسمولة أو جرالة . ومن ذلك ابتداء أبي تمام في مدح المعتصم بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من السكتب في حده الحد بين الجيد واللعن

وقوله في مطلع مرثية :

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح متى الجود بعده بلقعا

وقوله :

كذا فليجل الخطيب وليفضح الأمر فليس لعين لم يغض ما ورها عنر

وقد تبع ذلك احتفاظهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذنا بالفراغ ، مشيراً إلى الاتمام ، باشتثاله على ما تسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو نحو ذلك .

؛ - وسرى زخرف الحضارة ووشيعها ، وما فيها من تصنيع وتحميم إلى "شعر فظاهر المحسن البديعى" ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباقي وتورية وتحوّل ذلك؛ وقد كان أول أمره ماذجاً وآخر في شعر مسلم وأبي توأم والبحترى، ثم غلا فيه أبو نحّام وأوغّل ، حتى غض من جمال شعره ، وما زال الشعراء يلحون فيه ، ويتوسعون في فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الإبداع فيه ابن المعتن . ومستحدث عن المصنعة عند المحدثين في بحث خاص .

وانظر إلى الجناس والطباقي في شعر مسلم بن الوليد الذي يعد أول من سمى هذه الحسنهات بالبديع كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح في شعره . قال يمدح يزيد بن مزيد الشيباني :

**يغشى الوعى وشهاب الموت في يده يرى الفوارس والأبطال بالشعل
إذا (تغير) عند (افتار) الحرب (متتسما)
موف على (مهج) في يوم ذي (رهج) كأنه (أجل) يسعى إلى (أمل)**

وأقرأ هذا الطباقي الذي يعد أم لون كان يستخدمه البحترى . إنه

طبق لاتعديد فيه ولا تسلف ، ولكن بسيط ساذج ، أشبه ما يكون بتداهى
المعانى ، لامشقة فيه ولا صعوبة :

مني وصل ومنك بغير وفي ذل وفيك كبر
وما سواه إذا التقينا سمل على خلة ووغر
قد كنت حراً وأنت عبد فصرت عبداً وأنت حر
أنت نعيم وأنت بوسى وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثيره العريق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ،
يستخدم ألوان البديع استخداماً فلسفياً ، ويزجها بالتصوير مزجاً غريباً
حتى يكدر الذهن في فهمه ، ويتعجب العقل في إدراكه .

إنه يصف بعيده وما أصبه من نحو وسقمه لكترة الأسفار فيقول :

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة رعاها ومام الروض ينهل ساكبه
فلا تبعد طباقاً بادياً بين رعته ورعاها ، إنه بعيير يرعى الفيافي وترعاه
الفيافي ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتوصير .

وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب

ـ وافق له في المشاكلة :

أظن الدمع في خدي سيفق رسوماً من بكائي في الرسوم
وكذلك كان جنابه يتكئ على التصوير ويلتف على التشيه والاستعارة :

تعلن الطول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواتل
فقد سببت فيها السعائب ذيلها

وكذلك (التدبيج) في مثل قوله :

كان سواد الليل ثم اخضراره طيالسة سود لها كفاف خضر

وهكذا كان أو تما مغرب في المحسنات إغرا به في معاناته ، حتى إنها تستنجد منه جهداً شاقاً ، إذ يغرقها في استعارةه وتصويره ، فيجللها الفموض.

ومن مطرف الجناس قول البحترى :

فإن صدفتنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

ومن مقلوبه قول العباس بن الأخف :

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حتف

ب - وأما تأثير الغناء في الشعر في هذا العصر فهو أشد وضوها . فقد كان للغناء - وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة - أثره في انتقام ألفاظ الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب .

وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندرجها فيها ، وقد استجذب الشعراء للبغين ، فنظموا لهم المقطوعات الصغيرة التي تناسبهم ، وتخيروا لهم الألفاظ الرقيقة الرشيقه ، والأساليب السهلة الأنبلة ، والأوزان المستحدثة القصيرة ؛ وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائي المذهب الرقيق ، واحتفل الشعراء به ، وتسابقو فيه ، وذهبوا في ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل مذهب ، حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأخف ، الذي يقول عنه صاحب الأغاني : « لو لا أن العباس أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخطراً ما قدر أن يكثُر شعره في مذهب واحد ويجهده » .

وقد أثر الغناء في أوزان الشعر لأن المغنيين كانوا يدخلون في الغناء أحانا فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا في أوزانهم ، على النحو الذي سنتحدث عنه فيما بعد كما يلاحظ أنهم تجنّبوا كثيراً - في شعرهم الغنائي - الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان التقليدية الأخرى ، وأكثروا من البهور المجزوءة التي تلائم الغناء .

ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر في الشعر بوجه عام، غنائياً كان أو تقليدياً، من حيث الموسيقى الداخلية؛ التي تعنى اختيار السكلمات وترتيبها والمشكلة بين أصواتها ومعاناتها. ومن الممكن اعتبار البحترى أربع شاعر يصور هذا الجانب. قال البافلاني: «إنه كان يتبع الألفاظ وينقدوها نقداً شديداً (١) . . . وما يزال يتبعها حتى يؤلف منها ألفاظاً عذبة، كأنها نساء حسان عليهن غلات مصبنات، وقد تحلين بأصناف الخل» (٢). اقرأ له في رثاء التوكيل، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة؛ لأنه ثائر غاضب كان لها قمعة السلاح؟ وكيف ربط القوافي بالماء الساكنة. فصوته ينطلق بال وكلمات والمقاطع، ثم ينخفض جفاً كالنازع المتعب:

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
 تغير حسن الجعفرى وأنسه وقوض بادى الجعفرى وحاضره
 تحمل هنـه ساكـنـه بـحـامـه فعادت سـواه دوره وـمـقاـبهـه
 ولم أنس وحش القصر إذريع سربـه
 وإذا ذـرـتـ أـطـلاـوهـ وجـاذـرهـ
 وإذا صـيـحـ فيهـ بالـحـيلـ فـهـشـكـتـ عـلـىـ عـمـلـ أـسـtarـ وـسـتـارـهـ
 واقـرأـ لهـ :

وأـعـادـ الصـدـودـ منهـ وأـبـدـىـ
 فـاـ،ـ وـيـدـنـوـ وـصـلـاـ،ـ وـيـبـعـدـ صـدـأـ
 نـ؛ـ وـأـمـسـىـ مـوـلـىـ وـأـصـبـحـ عـبـدـأـ
 شـادـنـاـ لـوـ يـمـسـ بالـحـسـنـ أـعـدـىـ
 لـلـ وـعـرـضـتـ بـالـسـلـامـ فـرـداـ
 فـ قـبـلـتـ جـلـنـارـاـ وـورـدـأـ
 فـلـاجـازـىـ بـهـ وـلـاـ خـنـتـ عـمـدـأـ
 لـ حـيـبـ قـدـلـجـ فـ الـحـرـ جـداـ
 يـتـابـيـ منـعاـ،ـ وـيـنـعـمـ إـسـعاـ
 أـغـتـدـىـ رـاضـيـاـ وـقـدـ بـتـ غـضـبـاـ
 وـبـنـفـسـىـ أـفـدـىـ عـلـىـ كـلـ حـالـ
 مـرـبـيـ خـالـيـاـ مـأـطـمـعـ فـيـ الـوـصـ
 وـتـقـىـ خـدـهـ إـلـىـ عـلـىـ خـوـ
 سـيـدـىـ أـنـتـ مـاـ تـعـرـضـتـ ظـلـماـ

(١) لِعِجَازِ الْقُرْآنِ ١٠٦ . . .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ١٠٦ .

أتراني مستبدلاً بك ما عشت بديلاً أو واجداً منك ندا
 حاش لله أنت أفن الخواص ، وأحلى شكلًا ، وأحسن قدماً
 فأنت زاهي قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق في فن الصوت ،
 فقد كرر الجيم في "شطر الأول" ، وكسر الدال في الثاني ، فأخذت في البيت
 الأول توافقاً صوتيًّا ، وفي البيت الثاني يوفق بين الألفاظ ، فيأتي بكلمة
 (يتافي) كأنها مشدودة إلى (نعم) بهذا الرباط المحكم (منعاً) ، وعلى هذا
 النحو في شطره الثاني . وانظر إلى الطلاق بين يدנו ويدعوه صلاً وصداً .
 ثم انظر إلى إقبال كل كلمة آخرها في البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة
 واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسي أندى وتشابكهما . وكذلك ماف الآيات من
 طلاق وتقسيم و مقابلة ، وما في قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد
 الحروف والسكنات والحركات ، مما يسميه البدريون بالتطيز ، وهكذا تتجدد
 الجوانب الموسيقية المتعددة (١) .

ج - أما اختلاط العرب بالعجم فهو أشد تأثيراً في ألفاظ الشعر وفي
 أساليبه في هذا العصر ، فلقد كان لاختلاط العرب بغيرهم من العناصر
 الأجنبية التي لها ثقافتها ولغاتها وألفاظها وأصطلاحات علومها وفلسفتها .
 كان لهذا الاختلاط ، بل لهذا الامتزاج أثره في ألفاظ الشعر إلى جانب
 آثاره في نواحيه الأخرى :

١ - فقد شاعت في الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أو عربت
 ووصلت ، وربما كان يقاومها على حالها للتطرف والتفتك ، على نحو ما كان
 يصنع الأعشى وغيره من الشعراء .

يقول أبو نواس :

خنز إسماعيل كالوش في إذا ماشق يرف

(١) راجع الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوق ضيف ٥٦ :

إن رقامك هنذا أحذق الأمة كفا
فيإذا قابل بالنص ف من (الجردق) نصفا
أحذق الصنعة حتى لاترى مفرز إشني^(١)
ويقول إبراهيم الموصلى :

إذا ما كنت يوما في شجاعها فقل للعبد يسوق القوم (يرأ) ^(٢)
ويقول العانى في وصف من وقف بين الآساد :

لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف المزير الورد
آلى ينونق الدهر آب سرد ^(٣)

أما ماصقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون مغرب آذركون، أى لون
النار ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو أصفر اراه ، يقول
ابن المعتن :

عيون آذريونها للشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها يقایا غالبة
وكذلك نيروز مغرب نوروز ، ونحو ذلك .

٢ - كما شاعت في ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التي كانت
تتجلى على الألسنة في العلوم السكلامية والفلسفية والكميائية والهندسية
ونحو ذلك . قال أبو نواس :

وذات خد مورد قوهية المتجرد
تأمل العين منها محسناً ليس تتفد
فبعضها قد (تنهى) وبعضاً (يتجدد)

(١) الجرد في الرغيف مغرب كردة: والأشني الشتب .

(٢) الي لفظ فارسي معناه ملآن وهو بتضديد الزاء .

(٣) آب سرد : هو الماء البارد .

ويقول أبو تمام في الخير :

خرقاء يلعب بالعقل جبابها كتلاعب الأفعال بالآسماء
ويقول :

هُبْ مَنْ لَهْ شَيْءٌ يَرِيدُ حِجَابَهُ مَا بَالَ لَاشِئَةُ عَلَيْهِ حِجَابٌ
فَعَمِّرْ عَنِ الدُّمُّ بِكَلْمَةِ (لَاشِئَةُ) الْفَلْسَفِيَّةِ .

ويقول :

صَاغِهِمْ ذُو الْجَلَالِ مِنْ (جُوَهْرِ) الْجَهَادِ دُو صَاغِ الْأَنَامِ مِنْ (عُوْضَهِ)
كَمَا يَقُولُ :

لَنْ يَنْالِ الْعَلَا (خَصْوَصَاهُ) مِنَ الْفَتَيَّهِ سَانَ مَنْ لَمْ يَكُنْ نَدَاهُ (عُوْمَاهُ)
وَيَقُولُ غَيْرُهُ :

مَحَاسِنَهُ (هِيَوْلِي) كُلُّ حَسْنٍ وَمَغَانِطِيَّسُ أَفْتَدَهُ الرِّجَالُ (١)
وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ سَارَ الشُّعُرُ أَمَّا بَعْدُ هَذَا الْعَصْرُ فِي الْاقْتِبَاسِ مِنَ
الْمُصْطَلِحَاتِ حَتَّى رَأَيْنَا الْمُتَنَبِّيَ يَقُولُ :

إِذَا كَانَ مَاتَنْوِيهِ فَعَلَّا مَضَارِعاً مَضَى قَبْلَ أَنْ تَلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازُمُ
دَ - وَبِعِلَّةِ الْأَمْرِ أَنْ عَوَافِلَ الْحُضَارَةِ وَالْغَنَاءِ وَالْإِمْزَاجِ أَثَرَتْ تَأْثِيرَهَا
فِي لَفْظِ الشِّعْرِ وَأَسْلُوبِهِ، بِمَاطِرًا عَلَيْهِمَا مِنْ رَقَّةِ الْفَظْ، وَعَذْوَبَةِ السَّكَلَمِ،
وَبِسَاحَةِ التَّرْكِيبِ، وَسَهْوَةِ الْأَسْلُوبِ، وَإِشْرَاقِ الْدِيَابَاجَةِ، وَجَهَالِ الْإِسْتِعَارَةِ
وَلَطْفِ التَّشْيِيَّهِ، وَاسْتِحْدَاثِ الْبَدِيعِ وَالْإِكْثَارِ مِنْهُ، وَإِلَّا كَثَارُ مِنَ النَّظَمِ
فِي الْبَحُورِ الْقُصِيرَةِ، وَابْتِدَاعُ أُوزَانِ جَدِيدَةِ، وَاسْتِعْمَالُ الْأَلْفَاظِ

(١) الميول : الأصل .

والمصطلحات الأجنبية ، والمعناية بطالع القصائد وختامها ، والحرص على التنااسب بين أجزاء القصيدة .

قال الحاتمي : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه بعض ، ففي الفصل واحد عن الآخر وبابته في صحة التركيب ، غادر الجسم ذاعاته تتبعون حاسمه ، وتخفى معالمه ، وقد وجدت حذاف المتقدين وأرباب الصناع من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال حتى يقع الاتصال ، وأنني القصيدة في تنااسب صدورها وأمجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطركم ولطف أفكاركم ... ». أما الذي يجر فهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر ، والاستهلال بذكر الأطلال .

أوزان الشعر وقوافيها في هذا العصر

١ - حل الغناء الشعراً على متابعة المتنين بتحرى الأوزان الملائمة للألحان ؛ وابتداع أوزان أخرى تسير فنون الموسيقى والغناء ؛ وقد رجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بحراً ، وجعل ما تلبيذه الآخافش ستة عشر بإضافة المتدارك ؛ وراح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التي تناسب الغناء : كالمتقارب والمزوج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألموا بالبحور الطويلة نوعوا فيها أو جزاوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يخترعون أوزاناً أو سجبي بها مراجهم ،
أودعا إليها فن الغناء ، فلمسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يأيها المعسود قد شفك الصدود
فأنت مستهام حالفك السهود

(١) راجع كتاب « البناء الفنى للقصيدة العربية » ، للخفااجي .

وآخرى مطلعها :

نبأ به الوساد وامتنع الرقاد

وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى المادى على جزء واحد :
موسى المطر غيث بكر عدل السير باق الآخر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق : إنه أول من ابتدع ذلك في الرجز ؛ وكان أبو العتاهية مشغوفاً باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب يوماً فسمع صوت مدقق ، فشكى ذلك في ألفاظ شعره :

للنسون دائرا ت يدرن صرفها
ثم ينتقيتنا واحداً فواحداً

ولما روجع في هذا قال : أنا أكبر من العروض ، وهو الذي يقول :

عتب ما للخيال خبرني وما لـ
لا أراه أتاني زائراً منذ ليس

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا في هذا العصر المقتضب والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل في الشعر العربي (١) .

مثال المقتضب قول أبي فواص :

حامل الموى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبي العتاهية :

أيا عتب ما يضر لك أن تطلق صفادي

٢ - أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فيبعضه استنبطوه من دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة .

(١) الفصول والغايات ١٣٢

فالتوع الأول يشمل ما يلى :

١ - المستطيل ، وهو مقلوب الطويل (مفاعيلن فولن مفاعيلن فولن) مرتبة :

لقدماج اشتياق غير الطرف أحور أدير الصدغ منه على مسلك وعابر

٢ - الممتد ، مقلوب المديد (فاعلن فاعلان فاعلن فاعلان) مرتبة :

صاد قلب غزال أحور ذو دلال كلما زدت حباً زاد مني نفورة

٣ - المتوافر ، عرف الرمل (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتبة :

ما وقوفك بالوكاب في الطلل ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

٤ - المستند ، مقلوب المجتث (فاعلان فاعلان مستفتح لن) مرتبة :

كن لأخلاق التصافى مستمراً ولا حوال الشباب مستحلياً

٥ - المنسرد ، مقلوب المضارع (مفاعيلن مفاعيلن فاع لان) مرتبة :

على العقل فول في كل شأن ودان كل من شئت أن تداعى

٦ - المطرد ، صورة أخرى من المضارع (فاع لاتن مفاعيلن

مفاعيلن) مرتبة .

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد
وأما النوع الثاني ، فنه :

١ - السلسلة (فعلن فعلان متفعلن فعلاتان) وهو من اختراعات
البغداديين :

السحر بعينيك ماتحرك أو جال إلا ورمانى من الغرام بأوجال

٢ - الدوبيت ، وهو مأخذ من الفارسية بدليل اسمه ، لأن (دو)

بالفارسية معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، وزنه (فعلن
متفعالن فولن فعلن) :

قد أقسم من أحبه بالبارى أن يبعث طيفه مع الأشجار
يانار أشواقى به فانقدى ليلا فمساه يهتدى بالنار

٣ - القوماء وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس
للسحور في رمضان ، ولعله مأخذ من قولهم (قوما نسحر قوما) ، وزنه
(مستفعل فعلان) ، ولغته ماحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد ولطف رأيه سديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيد
ولا عدمنا نراك في صوم وفطر وعيد

٤ - الموايا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائمًا وهو على
وزن البحر البسيط ، وأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد أن نكثيم
الوشيد وأمر الایرثوا بالشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صناعهم
ينوحون عليهم به ، ويكتئرون من قولهم (ياماواي) فعرف بهذا الإسم ،
وهو مشهور بين عامة مصر بالموالي . وهو على أنواع ، فقد يتجلى مهرعا
كله ، وقد يختلف مصراجع منه ، وقد يختلف بين مصاريعه ، على ما نراه في
المواويل البلدية :

يا عبد ابكي على فعل المعاصي ونوح هم فين جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنياغرورة تجبي لك في صفة مركب ترمي حموله على شط السحور وتروح
٥ - كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكایات
والخرافات ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكایة ما كان وكان :

قم يا مقصر تفرع قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجربى الجــوارى فى البحر كالاعلام

٦ - أما الموشح فهو أندلسي المنشأ ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن
معافر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواري في أواخر القرن الثالث ،
ثم انتقل إلى المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذي

ندرسه ، وهم ينظمونه أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن
أغار يضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا ، ويلتزمون قوافي تلك
الأغصان وأوزانها متالية فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي إلى ممدة
أبيات (١) وأوزانه كثيرة ، منها (مستعمل فاعلن فعل) :

ياجيرة الأبرق اليان هل لي إلى وصلكم سبيل
ومنها (فاعلان فاعلن مستعمل فاعلن) :

كلى . . . يا سحب تيجان الربا بالخل
وأجعلى . . . سوارك منعطف الجدول

٧ - وكذلك الرجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد نضج
الموشحات ؛ إذ أخذ أهل الأمصار ينسجون على منوالها بلغتهم الحضرية
من غير التزام إعراب ، وسموا هذا النوع الرجل ، وأول من أبدع فيه
ابن قرمان الأندلسي ؛ ولا حصر لأوزانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن
ليس بزجال :

الفرق نار والوصال جنة والخلائق بعضهم يعشق
وطيب المجر يتوقف والوصال ملاح يشتاق

٣ - ولقد تبع بعض هذه الأوزان - كما رأينا - تغيير طرأ على القافية
فلم تعد تلزم كما كان معروفا من قبل ، بل دعاه الإفلات من قيود الوزن ، إلى
الإفلات كذلك من قيود القافية . على أن من أظهر ماطراً على القافية هو
المسمط والمزدوج والخمس .

١ - فالمسط أن يبتدىء الشاعر ببيت مرصع ، ثم يأتي بأربعة أنسنة

(١) المقدمة لابن خلدون .

على غير قافية ، ثم يعيد قسيما على قافية البيت الأول ، وهكذا ، وربما
خلا من البيت المشرع وكان على أقل من أربعة أقسامه . ومنه :
غزال هاج لشجنا بنت مكابدا حزنا عميد القلب مرتها
بذكر الله والطرب
سبتي ظبية عطل كان رضاها عسل ينوه بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

٢ - والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من
أخرى ، وهكذا ، كقول أبي العتاهية :

حسبك ما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيها جاوز الكفافا من اتق الله رجا و خافا
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
ما زالت الدنيا لنا أذى مزوجة الصفو بأنواع "مذى"
إن الشباب حجة التصافي روانح الجنة في الشباب

وهذه المزدوقة لأبي العتاهية تسمى ذات الأمثال ، وله فيها أربعة
آلاف مثل .

٣ - والخمس أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامسها
بقافية مختلفة الأربع قبله ، ثم خمسة أخرى من الوزن دون القافية الأربع
الأولى ، ويتحدد القسم الخامس مع خامس الأولى في القافية :

ورقيب يردد اللحظ ردًا ليس يرضي سوى ازيد يادي بعدها
ساحر الطرف مذجنى الخد و ردًا إن يوما لنظرى قد تبدى
فتملا من حسنه تكحيلًا
وتصد من فشه فى استباق يمنع اللحظ من جنى واعتناق
أيمان العين من لحاظ اعتناق قال جفني لصنه : لا تلاقى
إن بيني وبين لقائك ميلا

أختيارة الشعر ومعانيه في هذا العصر

أثرت الحضارة بنوعها : المادى ، والعقل ، في أختيارة الشعر ومعانيه في هذا العصر تأثيراً بالغاً .

١ - فأما تأثير الحضارة المادية فيما في هذا العصر فإنه قد وجد الشعراء في مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لا تقطع ، ومدداً لا ينفد . وذخر لا ينتهي ، ومعيناً لا ينضب . فتشوّع معانيهم ، واتسعت أفكارهم ، وانسج مجال أختياراتهم (١) ، وجادت تشبيهاتهم واستعاراتهم ، ولا بدّع لهم يعيشون في مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ؛ وترزّح في مختلف المشاهد والصور ، وتكتظ بمحال الطرف والسرور وتشرق بمعانٍ اللهو والغزل والجنون .. ذلك إلى طبيعة جميلة مزدهرة الرياض متفرقة الجداول ، هائفة الأطياط ، عاطرة الأجواء :

هذه الحضارة المادية خلية بأن تفتّق أكمام القرحة ، وتفجر ينبوع الشاعرية ؛ عصية أن تفتح مغالق الفكر ، وتفسح مجال الخيال ، جديرة بأن تذكر الإحسان بالحياة ، وتنمي الشعور بالجمال .. وإنما تستمد التشبيهات

(١) الخيال شأن كبير في الأعمال الفنية وفي الحياة العملية نفسها ، فهو خطوة أولى أرق من الإدراك الحسى ، ومن مجرد التذكرة نفسه ، فالتخيل يعين على استغلال الماضي للمستقبل ، ولو لاه لأصبحت الحياة فقيرة كل الفقر . ول كانت حياة الإنسان النفسية ضئيلة محدودة ، فهو الأصل في تكوين المثل العليا ، وهو الذي يعيننا على فهم الحقائق والفنون .

وتبدو صور الخيال الشعري في : التشبيه والمجاز والكناية وحسن التعليل والبالغة وما أشبه ذلك .

من المشاهد ، وتتجدد بتجدد المناظر ، وتتعدد بتعدد الصور ، وإنما يخلق الخيال حين يهيا له الأفق الربح ، وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجليل .
اقرأ أثر الحضارة في التشيه والخيال عند البحترى وهو يصف الحسان :

أعطاف قضبان به وقدود
لما مشين بذى الأراك تشابهت
في حلئى حبر وروض فالتقى
وشيان : وشى ربا ووشى برود
وردان : ورد جنى وورد خدور
وغضسكن فاغترف الأقاحى من ندى
غض سلسال الرضاب برود (١)

واقرأ وصف أبي نواس للعب بالصو بلجان والكرة :

كأنما خيطوا عليهما بالإبر
جن على جن وإن كانوا بشر
بين رياض مثل موشى الخبر
أو سمر الفارس فيهما فاسمر
فانتدبوا في يوم قر وخر (٢)
مكللات بيهار وزهر
صومالجا يصبو إليها من نظر
إذ ذر قرن الشمس في غب مطر
صوالجا يصبو إلىها من نظر
فلم يعب طول ولا شان قصر
وقد تنادوا فراموا بالأكر
أحلكها صائمها لما فطر
ألطف بالإشفاء خرزآ إذ دسر (٣)
فليس للإشفاء بالجلد أثر
يحسن تفاصلا تدل من شجر

وأبو نواس هو الذي أليس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزداد حسن رسوم
على طول ما أقوت وطيب نسم
تحساف البلى عنهم حتى كأنما
لبسن على الأقواء ثوب نعيم
ولقد كان القدماء يشبهون الحلم بالجبال ويزنونه بها :

(١) أى لما خسكن ظهرت أسنانهن كالأخوان وقد امتلاً بالندى ، ندى الأسنان وديقاها .

(٢) القر : البرد . وكذا الخمر .

(٣) فطر ، شق . الأشفاء . خرز يثقب به . ودسر . ثقب وطعن .

أحلاماً تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا مانجهل

ولكن المتخضر غير البدوى، والحلم في بغداد وفي القرن الثالث المجرى
غير الحلم في البصرة وفي القرن الأول : فالحلم الحضرى هو الذى يتسنم
لكبار الحوادث ، ويتحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظراً ، حتى كأنه برد
رقيق الحواشى ، كهذا البرد الذى استعاره أبو تمام المتخضر للحلم الحضرى ،
حيث يقول :

رقيق حواشى الحلم لو أن حله بكفيك ماماريت في أنه برد (١)
وهكذا تعلم الحضارة المادية عملها في توسيع التشيه ، وتعدد الاستعارة
وتتجدد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

٢ - وأما الحضارة العقلية التي أتيحت للشعراء العباسين ، والتي كانت
نتيجة الاختلاط والامتزاج ، والتأثر ب مختلف الثقافات . فقد أثرت أثراً هاماً
البالغ في معانى الشعر وأخياله ، إذ أكسبتها ما امتازت به العقليات الأجنبية
من عمق التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب
المعانى ، وترتيب الأفكار ، وظهر أثر اللفاح واضحًا جلياً فيها ، من حيث
الدقّة والعمق ، والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب
والتنسيق ، والتأثر بالمنطق وأقيسته ، والنلسفة وأرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فآمدته بال الخيال
والنخب ، والتفكير العميق . والمعنى الدقيق ، ولو نته بألوان زاهية كثيرة من
التشيه والاستعارة ، وصيغته بأصباغ طريقة جديدة من الثقافة والفلسفة ،
ومزجتة بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .

ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرقص المطرب ، الذى يهز المشاعر ،

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين (من حديث الشعر والنشر) .

ويطير بالقلوب حتى قال أبو الفتح عثمان بن جني : المولدون يستشهد بهم في المعانى كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأدلة ومتانة التعبير وحججة القول فإن للمحدثين فضل المعنى الجيد ، والخيال الملحق ، والفكر المنسق .

وسوف نعرض بشئ من التفصيل لأهم ماطر أعلى معانى الشعر وأخياته ، من مظاهر التأثر بهذه الحضارة وألوانها المختلفة :

١ - التجدد في المعانى القديمة : فقد تناول الشعراء العباسيون معانى السابقين ، فتصرفو فيها بما توحيه بيئتهم وحضارتهم ، وما يميله تفكيرهم وثقاؤهم ، وحوروا فيها بالزيادة والنقص ، والإيجاز والاطناب والإحال والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم وأليسوا ها ثوب الجدة والطرافة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريقة كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذوهم في مضمار التناقض والسباق .

يصف النابغة قدرة النعسان ، ويبيّن أنه لا منجي منه ولا عاصم ؛ فيقول :
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتنى عنك واسع
فيجد الشاعر العباسي أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان يلتبسي أن يأتي النابغة بما لا قسم له ، حتى يأتي بمعنى مفرد ، وهكذا يقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبتوثاً حبانه والدهر لاملاجاً منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب

ويقول البحترى :

ولو أنهم ركبوا السكواكب لم يكن ينجيهم من خوف باسك مهرب

وكان الفرزدق يقول في ناقته :

علام تلفتين وأنت تخنى وخير الناس كلامك أمانى
مني تأني الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدواى (١)
فيجعل جزاءها على بلوغ المدوح أن يريحها من الأنساع والدبر ،
أما أبو نواس فإنه يسخن في الجزاء سروراً بلقاء المدوح ، فيطلق راحلته ،
ويحرم ظهرها على الركب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافاً
من اللفظ والأسلوب :

وإذا المطى بنا بلغن محمدآ فظورهن على الرجال حرام
وكان الشعرا من قديم يصفون مدوحهم بالأس والظفر في القتال ،
ويتخيلون أن الطير قد ألغت ظفرهم حتى إنها تتبعهم في كل غواة ، وتحلق
فوقهم في كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستغدو معهم خاصاً وتروح بطاناً من
لحوم الأعداء ، قال الآفة الأودي :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستار
وقال النابعة :

إذا ما غزوا بالجيش حلقوتهم عصاب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجماع أول غالب

فقال أبو نواس :

تأني الطير غزوته ثقة بالشبع من جزره (٢)
فكأن في إيجازه أبلغ مدخلاً وأدق معنى . إذ صرخ بأن شبعها سيكون

(١) الأنساع : جمع نسخ وهو مير يشد به الرجل . والدبر بفتحتين : قرح الدابة جمع دبرة .

(٢) تأني : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

من لحم أعدائه بقوله (من حزره) ثم إنه لم يكتف بتحليلها وقت الغزوة، بل جعلها تتأتي الغزو وتنتبه، أما مسلم بن الوليد فإنه جعل مدوحه يعود الطير الشبع، إنها لتبعه في كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتاحل
وييجي أبو تمام فيفصل هذا التفصيل .

وقد ظلت عقابن أعلامه ضحي بعقابن طير في الدمام نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقائل
بفعلها تهل في الدمام ، وتقيم مع الرايات ، وإن لم تقائل ، وهذه
زيادات لابد أن تقع في ذهن شاعر كأبي تمام يحمل ويستوعب .

وكان جرير يقول :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضبا
فقال أبو نواس :

ليس على الله بمستكرا أن يجمع العالم في واحد

بفعل مدوحه الفرد العالما كلها ، على حين جعل جرير القبيلة هي الناس
كلهم ، على أن العالم أشهل وأعم من الناس ، وهكذا يكون بيت أبي نواس
أبلغ وأعم وأبعد في المبالغة ؛ إلى أنه سيق مساق الحكم والكلمات الجامحة .
ولقد قال المعدل بن غيلان فديماً .

ولست بمنتظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياه في جانب الفقر
لوجه أبو تمام وقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سودد ولو برزت في زى عذراء ناهد
فزاد في تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله : «لو برزت ... » بجدد

بذلك المعنى ، حتى كاد يستبدل به ، وهكذا تحس بجدة القديم ، وطراوة التلبيد ، وتشعر بحسن تصرف العباميين في المعانى القديمة ، حتى ليكادون يستقلون بها ، ويستبدلون بنسبتها .

٢ - ابتكار المعانى ودقتها : أما المعانى الجديدة التى ابتكروها ابتكاراً واستنبطوها استنبطاً ، وخلقواها خلقاً ، فإنها تعى الحصر ، وتفوق العدد . ولا بد من فقد كثرة المشاهدات ، وتعددت بتعدد المناظر ، وتتنوعت بتتنوع الحضارة ، وتلوّنت بألوان الثقافة . فكل ماجد في حياة الشعراء من طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية وارفة ، وعادات طارفة ؛ ألمهم جيد المعنى ، ومبتكرون الخيال وكل ما وقع في أفكارهم من ثقافة وحكمة وفلسفة أكسبهم استقصاء المعانى في دقة وعمق تفكير ، ولهذا ذخر شعرهم وأمتلاء أدبهم بكل جديد دقيق .

الآتري أبا تمام كيف يجعل عطاليما المدوخ في حاجة إلى تزويدة ؟
وماتزويدتها ؟ إنها نغمة الطالب ، وسؤال السائل :

تكلاد عطالياه يحن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب
وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار ؟

يأقون أذن لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا: بن لازرى تهدى قفتل لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

ومارأيك في هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح إلحر ولا يشر بها
خوفا من الخليفة ، كقعدى الخوارج ، يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح ؟

فكانى بما أزین منها قعدى يزين التحكيم
كل عن حله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقتها
ويقول أبو تمام في فعل الحاسد على المحسود :

إذا أراد الله نشر فضيلة طويت أناح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيها جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
ويصف أبو نواس كنوز الصهباء ، فيبعث النسوة في نفوس سامييه:
في كنوزك كأنهن نجوم دائرات بروجموا أبدينا
طالعات مع السقاة علينا فإذا ماغربن يغرن فينا
وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إسمة الواشى ، فيأتي بجديد ، ويغرب
في التفكير :

يا واشيا حسنت فيما إسمته نجى حذارك إنساني من الغرق
ولاغر و فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل :
أما المجاد فقد عرضك درنه والمدح عنك كا علمت جليل
فاذهب فأنت طلبي عرضك إنه عرض عزت به وأنت ذليل
وأخيراً يقول ابن الروى :

نظرت فأقصدت الفواد بلحظها ثم انثت عنه فظلل يوم
فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام وزع عنن أليم

٣ - استقصاء المعانى وتحليلها : ويحصل بهذه الدقة في معانى الشعر
العباسى ، تحليل المعنى وشرحه وتفصيله ، واستقصاء كل ما يتصل به ..
 واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى كان هذا الاستقصاء يضطر الشاعر
إلى الاستطراد ، ومن هنا طالت أنفاسهم في القصائد طولاً يلفت النظر ،
ويدعى إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر الثقافة والفلسفة واتساع
الأفكار ، وتتابع المعانى بتتابع الصور والمشاهدات :

ولقد مرت بنا - وستأتي - أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله
واستيفاء عناصره ، وهذا مثل لسحاق بن إبراهيم الموصلى ، يتحلى فيه المعنى
الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها العين من طول وصلها فأشهرها الشرين خوفاً من المجر

ولكنتني أملت عاقبة الصبر
وما كان هجراني لها عن ملامه
أفك في قلبي بأى عقوبة
أعاقبها فيها ارضي فـا أدرى
فعاقبته فيها من المهرج بال مجر
سوى هجرها وال مجر فيه دماره
فـكـنـتـ كـنـ خـافـ النـدىـ أـنـ يـلـهـ
فـعـاذـ مـنـ المـيزـابـ وـانـقـطـرـ بالـبـحـرـ

وكان يكفي أبا تمام أن يكتب المتجمدين الذين قالوا : إن المعتصم لا يفتح
عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمتجمدين ، ولكنه أخذ
يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
يعن الصفاخ لأسود الصحائف	متونهن جلاء الشك والريب

وهكذا كانوا يشبعون المعنى ، ويخللونه ويفصلونه ، ويتحجون باليراهين
والأدلة ، ويرضونه في صور مختلفة ، وعارض متعددة ، ويقلبونه على كل
وجه ، ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلاسفة والعلوم
العقلية من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أسعفهم به الحضارة من وفرة
المعانى والأفكار .

ومازالت هذه الظاهرة تشيخ وتسع حتى بلغت نهايتها — وقد تم التأثير
بالثقافة والحضارة — في أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول
طولاً عجيباً ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعانى بالأدلة ، وعرضها
في مختلف الصور ، وحسبيك أن تقرأ قصائد ابن الروى لنرى كيف
استقرت هذه الظاهرة في شعره .

قال يحسن الحقد ويزكيه :

لـئـنـ كـنـتـ فـيـ حـفـظـ لـمـاـ أـنـامـ وـدـعـ	مـنـ الـحـيـرـ وـالـشـرـ اـنـتـجـيـتـ عـلـىـ عـرـضـيـ
لـمـاـ عـتـنـىـ إـلـاـ بـفـضـلـ إـبـانـةـ	وـرـبـ اـمـرـىـهـ يـزـرـىـ عـلـىـ خـلـقـ مـحـضـ

بل العيب أن تدآن دينا ولا تقضى
توفيك ماتسدى من القرض بالقرض
من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
لينقض وترأ آخر الدهر ذو نقض
وبعض السجايا ينتهون إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة ثم ترى شكرراً على حسن القرض

ولاعيب أن تجرى القرص بمثلها
وخير سجيات الرجال سجية
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع
ولا الحقود المستكناة لم يكن
وما الحقد إلا نواة الشكر في الفتى

٤ - قوة التصوير وبعد الخيال : وقد وجد الشعراء في الحضارة المادية
ينبوعاً ثجاجاً للصور ، وأفقاً فسيحاً للخيال ، وأعانتهم الحضارة العقلية
بأوكارها العميقـة ، وخيالاتها المبدعة ، وتصاويرها الفنية ، على أن يأتوا
بكل عجيبة يبهـر ببراعة الوصف ، ويـسحر ببراعة التصوير ، ويـطير بالأـلباب
في مطارح الخيـال .

يقول بشار في وصف الجيش والقتال وهو أعمى :

وجيش كجنه الليل يزحف بالمحى
 وبالشوك والخطى حر ثعالبـه^(١)
غدونا له والشمس في خدر أمها
تطالعنا والطل لم يجر ذاتـه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمـه
وتدرك من نجـي الفرار مثالـه
كان مثار النـقـع فوق رءوسـنا
وأسـافـنا لـيل نـهاـوى كـواـكهـ

واقرأ هذه الصورة الـوائـعة للـهـيبة من جـلالـ المـدـوحـ ، التي صـورـها
الـبـحـترـى فـاستـوـفى كلـ عـنـاصـرـ الإـجلـالـ وـالـجـلالـ ، وجـمـعـ كلـ الـوـانـ الـعـظـمةـ
وـالـجـدـ ، إذـ صـورـ الـحـجـابـ يـقـومـونـ عـلـىـ سـدـةـ المـدـوحـ ، فـلاـ يـدـخـلـونـ أحـدـاـ
إـلـاـ يـأـذـنـ لـهـ وـدـخـلـ ، لـمـ يـدـرـ كـيفـ دـخـلـ ، لـمـ طـالـهـ مـنـ هـيـةـ ،

(١) المحـى : العـدـدـ السـكـشـيرـ ، الشـوكـ جـمـعـ شـوـكـةـ : السـلاحـ ، الخطـىـ : الرـعـ ،
الـتـلـلـ طـرفـ الرـعـ .

وغيره من جلال ، فانعقد لسانه وبهر جنانه ، ولا ينطقه إلا ما آنسه من بشاشة المدوح ، وتهلل أسراريه ، وحيثند ذناف قبل يده ، بل قبل الندى في يده ، بل في يد امرئه كريم محباه ، سبات أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال من الباب الذي أنا داخله
ما فضيئت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابل له
وسلمت فاعتقلت جناني هيبة تمازعنى القول الذي أنا قائله
فليا تأملت الطلقة واثنى إلى ببشر آنسى مخاليه
دونت فقبلت الندى في يد امرئه كريم محباه سبات أنامله
وسنقر أكثيراً من وصف البحترى الذى تتجلى فيه البراعة وروعة
التصوير ، فلترجم إلى بشار لبى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كان فؤاده كرة ترائي حذار بين لو نفع الحذار
بروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار
جفنه عيني عن التعميق حتى كان جفونها عنها فصار

ونترك هذه الصور الواضحة مع ما فيها من براعة الوصف ، وسمو
الخيال ، وننزوء منها بوصف البحترى لقوله الثغر ولألوه الحديث :

ولما التقينا واللوى موعدنا تعجب رأى الدر حسناً ولاقطه
فنلألوه تجلوه عند ابتسامها ومن لألوه عند الحديث تساقطه

إلى أبي تمام حيث يمثل مذهب الفوضى في الصور ، والإغراق في
التصوير ، والشروع في الخيال ، وحيث تطالعنا في شعره تلك الأشباح
المترجمة والصور القائمة ، على ما فيها من سحر تصوير ، وتهليل خيال .

ولابدغ ظابو تمام يتنفس الدم في معانيه ، لأنه غرق في الفلسفة إلى
أذنيه وكان أكثر الشعراء تأثراً بها . وإن كان البحترى قد تملأ عليه فيان
طبيعته البدوية لم تستطع هذه الفلسفات العميقية ، ومن ثم وقف تأثره به عند

الجوائب الظاهرة لند برع الشعراء العباسيون في التصوير وتجسيم الخيال، وإلباس المعنويات ثوب الحسیات، وإنطاق الطبيعة والجحاد، حتى ترى الروض يتحدث، والجحاد يتحرك. ولكن أبا عاصم أوغل في ذلك التجسيم، ولم يكتف بذلك، بل ركب في الصور، ومزج بين الاستعارات. فالصورة تعتمد على صورة، والاستعارة تتکئ على استعارة، وكل ذلك يلتقي على ما كان يولع به من جنام وطبقات وتحو ذلك من ألوان التصنيع، حتى جلل الفموض معظم صوره.

قال يصف السحاب ويخلع عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا
يداً فالت الدنيا أني قائل الملح
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى
له تبعاً أو يرتدى الروض بالبقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت
بطون الثرى منه وشيكاً على حمل

وقال يصف روضنا :

ومعرض للغيب تخنق فوقه
رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مالقاً
لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاها مسلك الطل كافور الندى
وانحل فيه خيط كل سهام

فقد عبر عن السحب التي يتلاها البرق في أطراها بالرايات المعلقة التي تخنق بالريح. ولكن ما هذه الصورة المركبة في الشعر الأول من البيت الثالث؟ أما مسلك الطل فهو رائحة الروض العطرية التي تكون بعد الطل، وأما كافور الندى فهو الشاش الذي يكون على أوراق الروض كالكافور، إنها صورة معقدة على كل حال.

وانظر كيف يعطى لصوره ألواناً حسية مليوسة :

كان سواد الليل ثم اخضراره طيالسة سود لما كفف خضر
، لا تبعدن أبداً وإن تبعد فا أخلاقك الخضر الرب بايابعاً

نضي صوقة هاصبيخ الدجنة فانطوى
لهم جهتما ثوب الظلام المجرع
راحـت غوانـي الحـى عنـك غـوانـيا
يلبسـن نـايا تـارـة وصـدرـدا

وأقرأ هذا التشخيص :

حتى إذا أسود الزمان توخرـوا
لدى ملك من أيـكـ الجـودـ لمـ يـزلـ
سلـوتـ إـنـ كـنـتـ أـدـرـىـ مـاـ تـقـولـ إـذـنـ
ـتـطـلـ العـلـوـلـ الدـمـعـ فـكـلـ مـوـقـفـ
ـدـوـارـسـ لـمـ يـجـفـ الرـبـيعـ رـبـوـعـهاـ
ـفـيـهـ فـغـورـدـ وـهـوـ فـيـهـ أـبـلـقـ

على كـبـدـ المـعـرـوفـ منـ فـعـلـهـ بـرـدـ
ـجـعـلـتـ أـنـهـ الـأـحـزـانـ فـأـذـنـ
ـوـتـمـشـلـ بـالـصـبـرـ الـدـيـارـ الـمـوـاـئـلـ
ـوـلـاـ مـرـ فـأـغـفـالـاـ وـهـوـ غـافـلـ

وأخيرا يقول في وصف الربيع :

لـاـ بـكـتـ مـقـلـ السـحـابـ حـيـاـ
ـضـحـكـتـ حـواـشـيـ خـدـهـ التـرـبـ
ـفـكـأـنـهـ صـبـحـ تـبـسـ عنـ سـحـرـ ضـنـبـلـ فـيـ ضـحـيـ شـحـبـ

فـإـذـاـ اـنـتـيـنـاـ إـلـىـ آـخـرـ هـذـاـ عـصـرـ ،ـ وـجـدـنـاـ فـنـ التـصـوـيرـ الشـعـرـىـ يـسـتـكـملـ
ـكـلـ أـدـواتـهـ وـأـصـبـاغـهـ ،ـ وـرـأـيـنـاـ الشـاعـرـ يـتـحـيـرـ لـمـ ضـوـعـهـ مـاـ يـنـاسـبـهـ مـنـ المـرأـيـ
ـمـتـعـدـدـ وـالـمـاهـدـ الـمـتـابـعـةـ ،ـ التـيـ تـمـرـ أـمـامـ نـاظـرـهـ ،ـ وـرـأـيـنـاـ الـحـضـارـةـ وـقـدـ
ـصـقـلـتـ حـسـهـ ،ـ وـفـتـقـتـ ذـهـنـهـ ،ـ وـالـثـقاـفةـ وـقـدـ أـورـثـهـ الدـقـةـ وـعـقـمـ التـفـكـيرـ ،ـ
ـحـتـىـ زـرـىـ فـنـهـ قـدـ اـسـتـوـىـ وـاـسـتـكـمـلـ عـنـاصـرـهـ .ـ وـهـذـاـ اـبـنـ الـرـوـىـ يـسـلـطـ عـدـسـةـ
ـتـصـوـيرـهـ عـلـىـ أـحـدـبـ ،ـ فـلـاـ يـتـرـكـ عـنـصـرـأـ وـلـاـ يـدـعـ لـوـنـاـ أـوـ ظـلـاـ ،ـ وـإـنـماـ يـسـتـوـفـ
ـكـلـ ذـلـكـ حـتـىـ تـخـرـجـ الصـورـةـ نـاطـقـةـ رـاضـخـةـ ،ـ فـتـقـ الأـحـدـبـ قـصـيرـ لـقـصـرـ
ـأـخـدـعـهـ أـىـ عـرـقـهـ ،ـ وـمـؤـخـرـ دـأـسـهـ غـائـبـ وـغـائـصـ بـيـنـ كـتـفـيـهـ ،ـ وـهـوـ مـتـوـقـعـ
ـأـنـ يـصـفـ ،ـ وـذـلـكـ مـاـ يـزـيدـ فـيـ اـنـكـاشـهـ خـوـفاـ مـنـ الصـفـعـ بـلـ كـأـنـهـ صـفـعـ قـبـلـ
ـذـلـكـ ،ـ فـذـاقـ أـلـمـ الصـفـعـ فـهـوـذـلـكـ أـشـدـ اـنـكـاشـاـ :

فـصـرـتـ أـخـادـعـهـ رـغـابـ قـدـالـهـ فـكـأـنـهـ مـتـرـبـصـ أـنـ يـصـفـعـاـ

وكأنما صفت قفاه مرة وأحسن ثانية لها فتجدها
أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة؟ . . . [نه في التصوير عند ابن الروى،
اقرأ تصويره لمغن قبيح الصوت :
وتحسب العين فكبه إذا اختلفا عند التنغم فكى بغل طحان
وتصويره للبخيل :

يقترب عيسى على نفسه وليس بياق ولا خالد
فلو يستطيع لقتيره تنفس من منخر واحد

٥ - التأثير بالفلسفة وآئقافات المختلفة : ومن الطواهر التي نلاحظها
في الشعر العباسي تأثيره في معاناته بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات
المتنوعة التي أصطحب بها هذا المسر ، ولو ذهبنا نتتبع هذه الطواهر لطال
بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، خسبنا أن نعرض بعضها الآن :
يقول أبو تمام :

فلو صح قول الجعفرية في الذي تنص من الإلهام خلناك ملهمًا
والجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام .
ويقول أبو نواس متأنرًا بالثقافة الهندية التي عمادها النجوم والرياضيات ،
في وصف الخنزير :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار
يريد أنها تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم
يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة في برج ، ثم
سيرها من هناك . ويقول :

قل لوهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فأنت مهذار
سخن من شدة البرودة حتى صرت هندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفيه كذلك الثالج بارد حار

والهند يزعمون أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً .

وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحًا في الحكم الكثيرة التي كانت تنقل عن الفرس ، حتى ليقال إنه اجتمع في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، كما كان تأثيرها جلياً في الصور والأخيلة الدقيقة ، إذ كان الشعراء ينظمون ما يتسرّب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ما ذكروا من أن كسرى كان يقول في وصف النرجس : إنه ياقوت أصفر بين در أينض على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسي ، وقال :

وياقوته صفراه في رأس درة مركبة في قائم من ذير جد
كأن بقابا العلل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

ويقول أبو العتاهية في الرهد والحكم :

ياعجباً للناس لو فكروا وحسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإذا الدنيا لهم معبـر
لا يـغـرـ إلاـ بـخـرـ أـهـلـ التـقـيـ
عـجـبـ لـلـإـنـسـانـ فـيـ خـرـهـ وـهـوـ غـدـاـ فـيـ قـبـرـ يـقـبـرـ
ماـ بـالـ مـنـ أـوـلـهـ نـطـفـةـ وـجـيـفـةـ آـخـرـهـ يـفـخـرـ

أما الثقافة اليونانية فهي أعمق أثراً ، وأوسع مدى في معانٍ الشعر . لما امتازت به من الدقة والعمق وتحليل : فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الصحاك بعناصر أفلاطونية ، وظاهر فيه الصياغة الذهنية :

إن من لا أرى وليس يراني نسب عيني مثل بالأمانى
بابى من ضميره وضميرى أبداً بالغريب ينتجيـانـ
نـ إـذـاـ مـاـ اـخـتـبـرـ نـحـنـ شـخـصـانـ إـنـ نـظـرـنـاـ رـوـحـاـ
فـإـذـاـ مـاـ هـمـتـ بـالـأـمـرـ أـوـ مـ بشـءـ بـدـافـيـ

كان وفقاً ما كان منه ومني فكأنى حكته وحكاني
ويقول أبو نواس في الخير :
وقد خفبت من لطفها فكأنها
بغايا يقين كاد يذهبه الشك
ويقول :

صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنی دق في ذهن لطيف
ولقد حكى الأمدی أن بعض نقاده الشعراً سمع قول العباس بن الأحنف :
وصالكمو هجر وحبكمو قل وعطافكمو صد وسلمكمو حرب
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكبكم صعب
فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقلیدس (١) : ويقسم بشار العی
على هذا النحو :

وعی الفعال کیي المقال وفي الصمت عی کیي السکم
وتستمر في هذا التتبع ، فتجدد الفلسفۃ بغموضها وعمقها وتناقضها
تسرى إلى المعانی ، فتجمع بين المتنافر ، وتوائف بين الأضداد ، وتألق
بالغريب العجيب . كيف يهلك الشيء نفسه ؟ . يقول أبو تمام :
صيغت له شيمة غراء من ذهب لكنها أهلك الأشياء للذهب
وماذا تنتظر من أبي تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلم منيراً ،
والصحو مطراً . والمطر صحواً :

نوراً وتسرب في الظلم فیكتسى
يیناً تسري في الظلم فیكتسى
صحواً يذوب الصحواً منه وبعده مطر

إنه أبو تمام الذي يجمع بين المتنافرات ، ويأتي بالمعنى الغريب غير المألف ، ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى في أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجلاء ولا الخوا ف ولكن يلذ طعم العطا
فتتجد فكرة طريفة وقعت في ذهن الشاعر العباسى ، إذ يجعل العطا
بدون غاية مألفة .

٦ — استخدام البراهين العقلية وحسن التعليل : وكأنهم أحسوا بهذه
الغرابة غير المألفة ، وهم في مجتمع يحوج بالحوار والنقاش ، فاحتاجوا
إلى البراهين العقلية ، والأقوية المنطقية ، يدعون بها المعنى الغريب العميق ،
ويقربونه إلى المألف .

قال بشار يشرح الإغصان عن هفوات الصديق ، ويرهن على خطأ تبعها :

إذا كنت في كل الأمور معاتبه صديقك لم تلق الذي لانتعابه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارب ذنب تارة ومجابه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو وشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلأ أن تعدد معايده

وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمر في ساحة حاتم في حلم أحذف في ذكاء إيماس
فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام
هذا الدليل :

لاتنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً في الندى وبالباس
فأله قد ضرب الأفل لزوره مثلاً من المشكاة والنبراس
وأبو تمام هو الذي يقول :

وطول مقام المرأة في الحب مخلق
لديها جتيه فاغترب تتجدد
فأني رأيت الشمس زيدت حبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد
ويقول :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا **إن النساء ترجي حين تختبئ**

ويقول البحترى :

دون تواضعٍ وعلوٌ مُجداً
كذاك الشمس تبعد أن تسامي
فشتـآنـاكـاـنـهـارـ وـاـرـنـفـاعـ
ويـدـنـوـ الضـوـهـ منـهـاـ وـالـشـعـاعـ

ویقول:

وقد زادها إفراط حسن جوارها
خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن دراري السكواكب أن ترى
طوالع في داج من الليل غيوب
ولهذا شاع في شعرهم حسن التعليل ، وكثير في أدبهم كثرة ظاهرة .

قال أبو تمام :

ويقول:

لاتكرى عطل الكريم من الغنى فاسبيل حرب المكان الحال
وتطرد هذه الظاهرة حتى نرى الشعراء يتكلفون بها تبعاً لـ كلغاف
خليل المعانى وشرحها ، فنجد ابن الروى يطلع علينا بمعنى جديد ، إذ يجمع
سباب فى الشفاعة والمدح جماء للممدوح ويعمل ذلك أحسن تعليلاً ، ويفسر به
دح يرى أنه لا ينزع عطاء مدوحة بسمولة إبخله ، بل لا بد من أن يطع
سباب ليصل إليه ، كما يطلب الجليل إذا استقر من شر بعده الماء :

وإذا أمرت مدح امرء لنواله وأطال فيه فقد أطال شفاهه
لولم يقدر فيه بعد المستقيم عند الورود لما أطال رشامه
وووجهناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
ولولا فما يسكنه منها وإنها لا واسع مما كان فيه وأرغم
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاتها يهدد

٧ - كثرة الحكم والأمثال : وقد شاعت الحكم والأمثال في شعرهم ،
اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واحتراضاً
واستنباطاً ، وقد كان في شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب ومثلها
للجمجم كما قلنا ، وكانت لأبي العتاية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .

قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن
ولاتجعل الشورى عليك خضاعة
وماخير كف أمسك الغل أختها
وقال صالح بن عبد القدوس :

برأى نصيحة أو نصيحة حازم
فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقائم

لا يبلغ الأعداء من جاهل
والشيخ لا يترك أخلاقه
إذا أروعى عاد إلى جمله
 وإن من أدبه في الصبا
حتى تراه مورقاً ناضراً
ما يبلغ الجاهم من نفسه
حتى يوارى في ثرى دمه
كذى الصنى عاد إلى نكسه
كالعود يسوق الماء في غرسه
بعد الذى أبصرت من يبسه

٨ - المبالغة والتهويل : وهي ظاهرة تشيع في شعر المؤلدين من خالطوا
الفرس أو نبتو من أصول فارسية ، وللفرس غرام بالبالغة وولع بالتهويل
والاغراق ، وقد كان لشعراتهم ورجالاتهم في هذا العصر مقام كبير لدى

الخلفاء ونفوذ عظيم؛ دفعاً الشعراء الآخرين إلى حماكمائهم والتآثر بهم فانساق الجميع إلى المبالغة، وأكثروا منها في المدح بنوع خاص، طمعاً في جزيل المبهات، وسن الجوائز.

وينبغى ألا نغفل سبياً آخر ساعد على المبالغة والغلو، ذلك هو تراجم المعانى وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة، واتساع مناحي التفسير بتأثير الثقافة والفلسفة؛ وتسابق الشعراء وتنافسهم في ميدان الخطورة والعطاء.

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محطة بشيء من التعقل والاتزان، حتى كان العصر التالي، بجانب كل إمكان، وجافت كل مأوف، واندفع في تيارها جميع الشعراء.

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة، ولا يطرّبهم إلا التهويل، وقد منينا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المعتصم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور الترمي في الرشيد.

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع.. الخ

فقام محمد بن وهب وأنشد تصييده:

ثلاثة تشرق الدنيا بيهجتها شمس الصبحى وأبواسعى والقمر

وفيها يقول:

فالخلق جسم له رأس يدره وأنت جارحتاه: السمع والبصر
وأقرأ صفاتي تمام للمعتصم يوم عموريه، واجعب واطرب لهذه المبالغة: جيش من الربع يتقدمه إلى الأعداء فيفرز عهم، ونفسه وحدها جيش يغنى عن قيادة الجيوش:

إلا تقدمه جيش من الربع
لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد
من نفسه وحدها في جحفل لجب
لو لم يقد جحفل يوم الرغى لغداً

ولكنها مبالغة معقوله ، فكم من بطل نصر بالرعب ، وغزا بقوة الروح وبسالة العزيمة ، ويقول البحترى في المتكفل :

فلو أن مشتاقاً تكفل فوق ما في وسعه لسعى إليك الشبر
فتجد مبالغة ولكنها في حدود الإمكان ، ويقول أبو نواس
في المجام :

وقدر الفاشين زهراء كالبلور ثلاث كنقط الشاء من نقط الخبر (١) أمامهم الحوى من ولد الذر لأنخر جنت ما فيه على طرف الظفر	رأيت قدور الناس سوداء من الصلى يليتها المعتق بفنائهم إذا ماتنادوا بالوحيل سعى بها ولو جئنها ملائكة عبيطاً جزورها
--	---

ويقول بشار الصخيم :

إن في بردى جسماً ناحلاً لو توكلت عليه لانهدم
ومهما يكن من شئ فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التي
ظهرت فيها بعد في شعر المتنبي وغيره .

٩ - تمحيص الأفكار وترتيبها: وأخيراً لقد تباهى لشاعراء هذا العصر من
أسباب الحضارة وألوان الثقافة وعمق الفلسفة ودقة المآخذ ، مانعى أدواتهم
ورقى إحساسهم ، وهذب أفكارهم ، ونسق معانيهم ، بخاءت أفكارهم
محضّة ، وعناصرهم منتظمة ، ومعانيهم متسلقة مرتبة . نقرأ تصانيم الملا يحيى
نبوا في الفكرة ، ولا خللًا في المعنى ، ولا افتضاباً في الغرض ، ولا
اضطراباً في السياق ، وإنما تجده القصيدة بناء واحداً وهي كل سلسلة ، وهو موضوعاً
متلاحماً النسج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقر أكثيراً من القصائد ، يتبعن ذلك فيها حسن الربط بين

(١) يريد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حوالملها الثلاث كيقطع الشاء .

المعانى لكثرتها عذم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . كايتجل
لك فيها التحيص والتهذيب من شغفهم بالغوص على المعانى واستيقاء عناصرها
وترتيب نتائجها على مقدماتها . وهنا تتجلى براءتهم فى الانتقال من غرض
إلى غرض ، بما يسمى « حسن التخلص » وهو يعتمد خلق المناسبة بين
المعينين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوجد بينهما رفق ولطف ودقة ،
فلا يكون بينهما شرود أو تقطيع أو افتضاب .

استهل أبو تمام قصيدته في مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى
المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الأمام وهديه المتنشر
وكان أبواس يقول :

يعز علينا أن زاك أسير
بل إن أسباب العقى لكثير
جرت بفرى من جريهن غدير
إلى بلد فيها الخصيبة أمير
ويعلم أن النباتات متدرور

تقول التي من بيته أخف مركي
أما دون مصر للغنى متطلب ؟
فقلت لها واستعجلتها بوادر
دعيني أكثر حاسديك برحلة
قى يشتري حسن الثناء بمالة
وقال مسلم في يحيى وجعفر :

كأن دجاجها من قرونك تنشر
كفرة يحيى حين يمدح جعفر

أجدك هل تدرى كم رب ليلة
لموت بها حتى تجلت بغرة
وقال البحترى :

بكل جيد الماء عذب الموارد
شآبيب مجتاز عليها وقادس
عليها بتلك البارقات الرواعد

رياض تردد بالنباتات مجودة
إذا راوه تها مزنة بذكرت لها
كان يدا الفتح بن خاقان أقبلت

وكان من مظاهر ذلك : الغنائية بمطلع القصيدة ، وجعله مناسباً للمقام ،
مشيراً للمقصود ، كما في قصيدة « عمورية » ، لأنَّ تمامَ :

السيف أصدق أنياب من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
والاهتمام كذلك بختامها ؛ وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متعمماً
للمعنى ، على نحو قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كف أهل وهذا دعاء للبرية شامل
ولأنَّ كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذي يكتنفه ، والأقوى الذي
يطله ، والبيئة التي نشئه ، والعصر الذي يعيش فيه . ولا شك في أن لكل
بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها ، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع
حياته ، ونظام تقاليده وعاداته ، ولكل عصر تأثيره في حياة الناس وأذواقهم
وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتتفاوت بتقابـل
الأزمان ، وتطور المجتمع ، وتأثير الحضارة أو البداءة ، بالجملـ
أو العرفان .

وفي العصر العباسي تنوّعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ،
وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلافات عادات ، وجدت في المجتمع
تقاليـد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتوجه اتجاهـاً جديـداً ، وتنخذ طابعاً يلائمـ
ما يوحـي به العـصر من مـوضوعـات :

١ - فـهـاكـ أغـراضـ قـديـمةـ أـصـبـحـتـ لـأـلـامـ أـذـواقـهـمـ ،ـ وـلـأـنـسـقـ معـ

منذ نيتهم ، وقد وجدوا في مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يغريهم عنها ولذلك هجرواها ، بل سخروا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض : بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتتبع الآثار ، ونعت الناقة ، ووصف الصحراه ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد خل على وفاته للقديم ، ورأى أن القول في هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربي ، وحفظ لعمود القصيدة .

ولقد رأينا حالة أبي نواس على هذه الموضوعات ، وسخرية منه ، وإحلاله وصف الخنزير وإعلان حسانها محلها .. وما زال سادراً في نشوته وتعمره ، حتى حبسه الرشيد فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحا على نعث القفار ، ولكنها صحوة تخور يهذى ويُسخر ، حيث يقول :

أعر شرك الأطلال والمنزل القفرا
فقد طالما أزري به نعثك الخنزرا
دعاف إلى نعث الطلول مسلط
تضيق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة
إإن كنت قد جشمتنى مر Kirby وعرا

٢ - وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحى بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعرف والعلوم . وذلك كالغزل بالذكر ، ووصف العذار ، والخوض في الدعاية والمجون ، والرمي بالآبنة والدم بالرشوة ، وبهجات المعنين ، والتتصبب لبعض أنواع الزهر ... ثم نظم القصص (١) والحكايات ونظم قواعد العلوم من فقهه وغيره ، فيما بعد .

(١) ومنها نظم أبان اللاحق (٥٣٠) لكليلة ودمنة ، وبعد كليلة ودمنة من أدب القصص على لسان الحيوان وقد ترجم الكتاب ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، ويزكي الجاحظ في الحيوان الجزء السابع ماورد في كليلة ودمنة من أمثل عن الفيل (٧: ٩٢: الحيوان) .

٤ - أما الأغراض القديمة الأخرى كالمدح والهجاء والثاء والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والشياطين والزهد ، والحكمة والمثل ونحوها فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والبالغة والتوييل . وسوف نعرض لختلف أغراض الشعر في هذا العصر ...

الغزل

أما الغزل بالمؤنث فيكاد - مع أنه عرض قديم - يكون كله إباحياً في هذا العصر ، وماذا ننتظر من مجتمع تشيع فيه مفاسد المدينة ، ومفاسد الحضارة ، وتنشر بجال الله وسبله والمبون ، إلا أن تستعر فيه الشهوات ، وتثور الغرائز ، وتتفتح مغارات الميل والنزوات ؟ لهذا كاد الغزل العذري يموت إلا على بعض الآلسنة كالعباس بن الأخفف . أما عامة الغزلين ، فقد تبذلوا في وصف المرأة ، وتعبروا في الحديث عنها ، وأمعنوا في هتك حجاب العفة ، وأفشوا في تناول العورة ، وأعلنوا أكل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا أكل سوأة . ألم يقل بشار :

أمي بد هذا نقبي ووشاحي حله حتى انتشر
فذعني معه يا أميأ علنا في خلوة نقهضي الوطر
أقبلت مغضبة تضر بها واعتراها بخون مستعر
بابي واته ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر

والغزل من أهم أبواب الشعر ، وكان يفتح به القصيد ، اللهم إلا في القليل ، كعمر بن كلثوم في معلقته التي بدأها بوصف الراح ، وكأبي نواس الذي دعا إلى افتتاح القصائد بذكر الراح :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة السكرم
وتبعه في ذلك ابن المتن قال :

أَفْ مِنْ وَصْفٍ مَنْزِلٍ بِعَكَاظٍ خَوْمَلٍ
غَيْرِ الرَّبِيعِ رَسْمَهُ بِخَنْبُوبٍ وَشَمَالٍ

شهر امرؤ القيس في العصر الجاهلي بغزله واستمتاره وديبيه، وفي العصر الأموي عاش شعراء وقفوا حياتهم وشعرهم على الغزل وحده، فهم موكلون بآجاله يتبعونه ويصفونه ويتغزلون به، كعمر (٢٣ - ٩٣)، وجبل وقيس بن ذريح وسواهم. وفي العصر العباسي اشتهر بشار بالغزل، وكذلك العباس بن الأحنف (١)، ولحدان بن أبان اللاحق قصيدة طويلة في وصف الحب (٢)، وكان البحتري أرق الناس نسبياً وأمامهم طريقة لاصيماً إن ذكر الطيف وهو الباب الذي اشتهر به، ولم يكن لأبي تمام حلوة توجّب له حسن التغزل وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد (٣).

وأسلوب الغزل يتمازج بهمالة وسلامته وعذوبته مما لا يصلح شيء منه في مواقف الجد وأوصاف الحرب، وإن كان المتنبي يستعمل ألفاظ النسب والغزل في ذلك وهو مما لم يسبق إليه وتفرد به (٤) ... ويشبع في الغزل التهالك وإظهار الصبراء.

(١) قصر شعره على الغزل من بين فنون الشعر (١١٧ : ٣ الراقي)، وكان شاعرًا ظريفاً مفوهاً منطيقاً مطبوعاً، وكان صاحب غزل وقيق ولم يكن يدّع ولا يهجو إنما كان شعره كله في الغزل والوصف (١١٩ طبقات ابن المطر) ويشبه بابن أبي ربيعة (١١٩ المرجع، ٤ ذهر، ٨٣ : ٣٣٥ الشعر والشعراء، ٦٧ : ١ العدة) وكان شاعرًا جيداً غولاً (٩٢ خاص المخاض) وأشاد به بشار وأبو نواس والعلاف (٨٣ : ٤ ذهر)، وهو من أوائل الشعراء الجيدين (٦٧ المثل الساشر) ونوه دهبل بقوله: هي الشمس مسكنها في السماء (٢٦٩ : ١ ديوان المعان).

(٢) ٥٧ — ٦٢ الأوراق فسم أشعار أولاد الخلقاء.

(٣) ١١٣ : ٢ العدة.

(٤) ١٦٤ : ١ اليسية.

ولابن المعتز مجال كبير في الغزل، والغزل في شعره فن تسرى الجودة والحياة
والدمانة والرقة والعذوبة في أعطاوه ، وهو فيه مجيد صاحب طبع مطبوع
وملكه موهبة ، ولا بدح في ذلك فقد أفعمت نفسه باللوان الجمال ، وأشربت
حبه ، وغذيت بمحنته وصبايده ولعوه ولذاذاته ، وكان لطيف الحس رقيق
العاطفة ملتب الإحسان والشعور يسوق شبابه الظاهري من ينبع الحب
المتفجر ، ويجد من بيته وعصره حرية تسمح له بالهياج بالجمال والتبتل في
معابد السحر والفتنة ، فشدا بالحانه الساحرة أناشيد ناطقة بما في نفسه
وعواطفه من حب ووفاء وما امتصج بروحه وسرى في دمه من هيات وشفف
بالوأن الجمال ، وفن ابن المعتز في الغزل يقف بجانب فن أمرىء العيس وابن
أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وسواهم من المجيدين في هذا الباب .
ويقول الصولي : « وهو متقدم في الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا
في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم قليلاً و خاصة من
عمل في المذكر والمؤثر ، وهو أول من حصل هذا وجعله فتنين ، وأضاف
إليه فنا ثالثاً سهاد مجونا وكثره حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس » (١) ،
ومن شعره في الغزل قوله :

يا هند حسبك من مصارفي لاتنكى في الحب بالظن

وقول في شريرة محبوبته :

وقلت تعالى يا شريرة نمترج كمثل امتراج الماء والخمر نصفين

ومن غزله قوله :

بان الخليط ولم تطق صبرا ووجدت طعم فراقهم هرا
وكأنما الأمطار بعدم كست الطاول غلانلا خضرها

(١) الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

هل تذكرين وأنت ذاكرة مشى الرسول إليكم سرا
 إن يغفلوا يسرع لحاجته وإذا رأوه أحسن العنرا
 فطن يؤدي ما يقال له وبزيده بعض حديثنا سحرا
 قالت لأنزاب خلون بها وبشككت فبلل دمعها التحرا
 يسمح زيارة بيتنا شهراً حتى طرق على مخاطرة
 أطا الصوارم والقنا الحرا
 باليلة ما كان أقصرها لازلت أشكو بعدها الدهرا

فتتجد روح ابن أبي ربيعة في الغزل والموار ، والتهاك من المرأة على
 حبه ، وإن كان ذلك مما يذمه النقاد في فن الغزل ، فالعادة عند العرب أن
 الشاعر هو المغازل المنهاد (١) وإنما توصف المرأة بالحياة (٢) ، ولكنك
 مع ذلك تجد في القطعة جمالاً لا يعدله جمال في وصف الرسول .

ويقول :

لاتلوموني على حب هند سحرتني إنما الحب سحر
 ومن غزله قصيده :

لاكا بت ليلاً المهر بتا ياغزال الوادي بنفسى أنتا
 ومنه قوله :

تعاهدتك العماد ياطلل حدث عن الفلاعنين ما فعلوا
 فقال لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا
 نور ومعنى من لهم هطل

(١) ١١٨ : ٢ العدة .

(٢) ٢٥٤ ديوان ابن أبي ربيعة والنقاد كثروا ما نقدوا ابن أبي ربيعة في وصفه
 لتهاك المرأة على حبه (١١١ : ٢ عدة ، ٢٥٢ ديوان ابن أبي ربيعة) .

على هذا فما عليك لهم ؟
وأنتى مغلق الضمائر من
حب سوامِ ما حانت الإبل
إن نزلوا منزلًا وإن رحلوا
هيئات إن الحب ليس له
تركَت أيدي النوى تعودهم
نقال هلا تبعهم أبدا
هم بغير الهوى ولا شغل
وجئتني عن حدِّيُّهم تسلل !
من دون سلى وإن أبي العذل
نقتل للركب لا قرار لنا
واسائق الصبح بالدجى عجل
حتى تبدى في الفجر ظففهم
فلم يكن بيننا سوى اللحظة والد
مع كلام لنا ولا دليل

وتتجدد هنا رقة الأسلوب وجمال الموارد المتسلك وسحر المعانى ولطائفها
ما يسمى بفن ابن المعز فى الغزل إلى منزلة عالية .

ومن روائع بشار فى الغزل ، قوله وقد نهاد الخليفة المهدى عن الغزل :

يا منظر حسنا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته (١)
واله - رب محمد - ما إن غدرت ولا نويته
 أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبي وإذا أبي شيئاً أبيته
ونخضب رخص البناء ن بكى على وما بكنته
ريشوفنى بيت الحيدب إذا ادكرت ، وأين يليته ؟
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما فلتته (٢)

(١) تسومنى ، من سام يسوم ، إذا أخذ في الحديث في البيع أو الشراء ،
الشباب استعارة بالكتنائية ، والمراد به نضارته وبهجته وقوته ، وذلك كله
كتنائية عن رغبتهما في مقابلته .

(٢) من القلي وهو المهر ، الإثراض .

ونهان - الملك المها
م^(١) عن النساء وما هبته
لابل وفيت فلم أضع
عهدا^(٢) ولا وأيا وأيتها
وأنا المطل على العدا
وإذا غلا الحد اشتريته^(٣)
أصق الخليل إذا دنا
وإذا نأى عن نأيتها^(٤)
وأميل في أنس الندى^(٥)
م من الحياة وما اشتريته

وهذا النص من شعر بشار يصور عذوبة أسلوبه ، واقتناه في معانيه ،
وانتهاءه جانباً خاصاً في شعره يشبه الجانب القصصي الذي اشتهر به في
عصرنا إيليا أبو ماضي وكان بشار شديد الذكاء ، واسع الخيال ، ذا ملك
قوية في الشعر يعد من أكبر شعراء عصره ، وزعيم المحدثين كافة، ومن أصحاب
المعانى المخترعة في الشعر العربي ، وقد تصرف في كثير من فنون الشعر
ومعانيه .

وكان فارسي الأصل وأبوه فيها يقال من سبي المهلب بن أبي صفرة ،
وكان ولاؤه في بنى عقيل من قيس عilan ، ونشأ بشار في البصرة نشأة
عربية خالصة ، فأتقن اللغة وبرع في الأدب ، وكان شاعراً محاوراً وخطيباً ،
واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفي غيره من مجالس المتكلمين

(١) الهمام : العظيم الحمة .

(٢) لم أضع العهد : أى لم أحنت به .

(٣) المطل على العدا : المستمر في إيدائهم . الحد : الثناء .

(٤) من الدنو وهو القرب . وأصفها الصديق يصفيه مودته : أخلص ووف
لهم أخوته . والخليل : الصديق . ونأى : من النأى وهو بعد والمراد به المجر
وقطع المودة .

(٥) الندى : الرفيق والمصاحب ، والمشاركة في الشراب والميل في أنس الندى :
القيام بعوناته ، اشتريته : رغبت فيه ، والضمير يعود إلى الكأس أو الراح وهو
مضمر للعلم به من المقام .

وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطراب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد قتل بواسطه بن عطاء زعيمهم ، ومدحه ، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهاجهم واستطثار الشر بينه وبين وائل .

ولقد كان شاعرًا مجيداً تأثر بالشعراء الإسلاميين وأخذ عنهم ، وكان يحب جريراً ويؤثره على غيره ، وقد أدركه وهجاه فيما يقول الرواة رغبة في أن ينوه به جرير فيرتفع أمره ولكن جريراً أعرض عنه . وكان بشار عربي النزعة في الشعر ، حريصاً على متانة اللفظ ورصانته ، فلما يميل إلى تجاوز المألوف في الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مزاجه الفارسي قد ترك في شعره أثراً ظاهراً ، فسُنحت له خواطر ومعان لم تكن تسنج للشعراء من العرب الخالص ، ولا سيما حين كان يتغزل ، فقد مال في غزله إلى نحو من الفتون والمجون لم يعرفه الغزلون من شعراء الحجاز سواء منهم العذريون وأصحاب المجنون ، كان بشار صريحاً في غزله قبيح الصراحة أحياناً .

وكان مسرفاً في الرقة إذا تغول فذهله الوعاظ والقصاص في وعظهم وقصصهم وشكاه أشراف الناس إلى السلطان فنهى المهدى عن الغزل فاتهى على كره ونفاق . ومع ذلك كان يعاود الكلام في الغزل كما ترى في هذه القصيدة ، وما زال به إسرافه في الغزل الفاجر والمجامع المقذع والشك المريض حتى كاد له بعض خصومه عند المهدى فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧هـ .

وفي شعر بشار قوة اللفظ ومتانته إذا جد ، واللين والفتور إذا تغزل أو هول ، وفيه جودة المعانى ودتها وحسن الاستفهام لها ، والرواية بمحمدون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة .

ومن شعر ابن المعتز العباسي في موقف وداع قصيده :

تعادتك المعهاد يا طلال خبر عن الطاعنين ما فعلوا

فقال : لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتسلوا
وقال : هلا تبعتهم أبدا إن نزلوا منزل وإن رحلوا
وقد هضت آنفا ، ومنها قوله :

كأنما طار من تحتنا قرع
على أكفت الرياح ينتقل
حتى تبدى في الفجر ظعفهم
واسائق الصبح بالدجى يجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظة والـ
ـ دموع كلام لنا ولا رسول
ـ كم من عداة أبارم غضبي
ـ فلم أقل أين هم وما فعلوا

وأما الغزل بالمذكرة فهو غرض جديد من أغراض الشعر العباسى ،
وقد سرى أيام من الفارسيين ، وأول من نظم فيه : حماد عجرد ، ووالبة
ابن الحباب ، ثم أبو نواس ، وحسين بن المظحى ، وبهيجي بن زياد ، ومطیع
ابن إيمان ، وغيرهم من الشعراء الإيابيين ، من كانوا يتلقون على موائد
الشراب ، وبين أيديهم الغلامان والقيان ، فلا يتورعون عن حرام؛ وسرت
هذه الموجة إلى الشعراء الغزليين ، فطنغى الغزل بالمذكرة على شعرهم ، ونلهم
غيرهم حتى شعراء الغزل بالمؤثر فقلبوا ضمير الآثر إلى ضمير الذكر ؛
وبتأثير ذلك أكثروا من وصف العذار والافتتان فيه ، ونفذ الناس
بالمفرد ، ونبذهم بالابنة ، وغير ذلك من مجالات السكلام ..

ويذكر الماجحظ أن يكون العرب قد عشّوا بالغنمان ، أو نزلوا بالمذكرة ،
فيقول في رسالته في « النساء » (١) :

لو تعشق العرب الغمان ، لنسبوا بهم ، وبلغوا بهم فيه باب النسيب ، ولنهاجوا
به وتقاخروا ، ولتفاوسوا في الغمان ، ويلجزوا في ذلك ما لا يخفى ، ولحدّثوا

(١) راجعها في رسائل الماجحظ نشر السنديون .

فيه أشعار وأخبار؛ والذى يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعانى، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا في بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق^(١).

ومن الغزل بالذكر أشعار كثيرة عباسية تروى في كتب الأدب العربى وفي دواوين الشعراء العباسيين.

يقول الشاعر سعيد بن هاشم الخالد في غلام له^(٢) :

ما هو عبد لكنه ولد خوليه المهمين الصمد
شد أزرى بحسن خدمته فهو يدى والذراع والمعند
صغير سن كبير منفعة نمازج الضعف فيه والجلد
في سن بدر الدجى وطلعته فشله يصفع ويعتمد
عشق الطرف حكمه حكم
أنى ولطوى وكل مأربى
مسامرى إن دجى الظلام فلى
ظريف منح مليح نادرة
خازن ماق دارى وحافظه
ويعرف الشعر مثل معرقى
وصيرف القريض وزان دنانير المعانى الرقاد مستقد
وواجد بي من الحبة والرأ
إذا تبسمت فهو مبتوج
ذا بعض أوصافه وقد بقيت له صفات لم يجدها أحد

(١) والنص موجود أيضاً في ٢ : ٤١٧ و ٤١٨ أمراء البيان محمد كره على.

(٢) معاهد التصحيح للعباسى خططاً بـ لـ رقم ٧٢٢٤ ص ١٥ ب.

ويقول شاعر آخر (١) :

ألا يجامع البصر
ة لآخر بك أقه
وسق حمنك الغيث من المزن فرواه
فكم من عاشق فيك يرى ما يتمناه
وكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلم له فيك فصناه
وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه
فما زالت يد الآيا م حتى لان متنه

يقول أبو نواس :

يا بدعة في مثال يجوز حد الاصفات
الوجه بدر نسام بعين ظبي فسلاة
والقد قد غلام والفتح ضج فتاة
مذكر حين يدو مؤنث الخلوات

ويقول الحسين بن الصحاك في غلام يستحم :

وابابي أبيض في صفرة كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بضه
غضن تبدى يلتفى على مأكلة مثلقة التهشه (٢)
كأنها الرمش على خده طل على تقاحة غضه
صفاته فاتنة كلها فبعضها يذكرني بعضه

(١) : ٦٣٠ : اليتيمة ، ٣١٧ : باقوت الارشاد ، معجم الأدباء .

(٢) المأكلة : اللحمة على رأس الورك وللإنسان مأكلتان .

واستعمل أبو نواس لفظ المذكر في المؤنث فقال :

يا قرا أبصرت في ماتم يندب شجوا بين أزاب
 يسكي فيدرى الدمع من نرجس ويلطم الورد بعناب
 أبرزه الماتم لي كارها برغم دايات وحجاب (١)
 لاتبك ميتا حل في قبره وابك قتيلا لك بالباب

المسلح

رأينا فيها سبق كيف كان الخلفاء في هذا العصر يتمتعون بالنفوذ الواسع والجاه العريض ، ورأينا كيف كان كافهم باظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ، وإطراح مجدهم ، فقرروا الشعرا ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليمعنوا مفاخرهم على الناس ، ويزيدوا من هيبتهم في نفوس العامة . فأخذ الشعرا يتنافسون في التجدد ، ويتسابقون في التعظيم ، ليحظروا بجزيل العطاء وعظيم المبارات . وقد اتهى بهم ذلك إلى المبالغة في المدح حتى قاربوا الكفر ، والتلويل في الثناء حتى خر جوا عن المعقول .

ولإنما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة، رغبتهم في إرضاء غرور الممدودين وطعمتهم أن ينالوا أكبر الجوائز وأستانها، فقد كان العطاً على قدر المبالغة ، وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرون في العطاء ، ويسرفون في المنح ، حتى أثروا الشعرا ، واقتربوا الثروات الطائلة ، والضياع العامرة .

ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعرا إلا من يمدحه بمثل مدح الفرى للرشيد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذى قال في مدح الحسن بن سهل .

نظمه الأوهام قبل عيشه ويصدر عنه الطرف وهو محاذير

(١) الماتم : مجتمع الناس في الخير والشر .

بـه تجتـدى النـعـى و تستـدرـك المـنى و تستـكـلـ الحـسـنـى و تـرـعـى الـأـواـصـر
قـسـمـ صـرـوفـ الـدـهـرـ بـأـسـاـ وـ فـانـلاـ
فـالـكـ مـوـتـورـ وـ سـيـفـكـ وـ اـزـ
وـ لـوـ نـكـنـ إـلـاـ بـنـفـسـكـ فـاخـراـ لـمـاـ اـنـسـبـتـ إـلـاـ إـلـيـكـ الـمـفـاخـرـ

حـتـىـ طـرـبـ الـحـسـنـ وـ نـزـلـ عـنـ سـرـيرـهـ إـلـىـ الـأـرـضـ ،ـ وـ قـالـ :ـ أـحـسـنـ وـ أـتـهـ
وـ أـجـلـتـ ،ـ وـ لـوـ تـقـلـ فـيـ وـلـاـ قـلـتـ بـاقـ دـهـرـكـ غـيـرـ هـذـاـ لـمـاـ اـحـتـجـتـ إـلـىـ
الـقـوـلـ ،ـ وـ أـمـرـ لـهـ بـخـمـسـةـ آـلـافـ دـيـنـارـ ،ـ وـ اـنـقـطـعـهـ لـنـفـسـهـ .ـ كـمـاـ رـأـيـاـنـاـ أـنـ جـلـسـاءـ
الـمـعـتـصـمـ لـمـ يـقـنـعـوـ بـشـيـهـ أـبـيـ تـمـامـ لـهـ بـحـاتـمـ فـيـ الـكـرـمـ ،ـ وـ عـمـرـ وـ بـنـ مـعـدـ يـكـرـبـ
فـيـ الشـجـاعـةـ ،ـ وـ لـيـاسـ فـيـ الـذـكـاءـ ،ـ فـاـنـتـقـدـوـهـ ،ـ حـتـىـ اـضـطـرـ لـلـاعـتـذـارـ .ـ

وـ مـنـ صـورـ الـمـدـحـ قـصـيـدـةـ أـبـيـ نـوـاـسـ فـيـ مـدـحـ الـأـهـيـنـ وـ يـقـولـ مـنـهـ :

وـ إـذـاـ المـطـىـ بـنـاـ بـلـغـنـ مـحـمـداـ فـظـمـورـهـ عـلـىـ الرـجـالـ حـرـامـ
قـرـبـنـاـ مـنـ خـيـرـ مـنـ وـطـيـهـ الـحـصـاـ فـلـمـاـ عـلـيـنـاـ حـرـمةـ وـذـمـامـ
مـلـكـ إـذـاـ عـلـقـتـ يـدـاكـ بـجـبـلـهـ
لـاـ يـعـتـرـيـكـ الـبـؤـسـ وـ الـإـعـدـامـ

فـاـبـهـوـ مشـتـمـلـ بـيـدـ خـلـافـةـ لـبـسـ اـشـيـابـ بـنـورـهـ إـلـاسـلامـ (١)
سـبـطـ الـبـيـانـ إـذـاـ اـحـتـبـيـ بـنـجـادـهـ فـرـعـ الـجـاجـمـ وـ السـيـاطـ قـيـامـ (٢)
إـنـ الـذـىـ يـرـضـىـ إـلـهـ بـهـيـهـ مـلـكـ تـرـدـىـ الـمـلـكـ وـهـوـ غـلـامـ (٣)

(١) يـيدـ بـالـبـهـوـ هـنـاـ الـبـيـتـ ،ـ وـ مشـتـمـلـ :ـ مـزـدانـ :ـ وـ معـنـيـ الشـطـرـ الثـانـيـ أـنـهـ
أـعـادـ لـلـدـينـ سـلـطـانـهـ .ـ

(٢) السـبـطـ :ـ السـبـلـ الـذـىـ لـاـخـشـونـةـ فـيـهـ ،ـ وـ الـبـيـانـ أـطـرافـ الـأـصـابـعـ
وـاحـدـتـهـ بـيـانـهـ .ـ وـ سـبـطـ الـبـيـانـ :ـ الـكـرـمـ .ـ وـ النـجـادـ :ـ حـمـائـلـ السـيفـ الـتـىـ يـتـعـلـقـ بـهـ .ـ
احـتـبـيـ بـنـجـادـهـ :ـ لـبـسـهـ ،ـ وـ فـرـعـ الـجـاجـمـ :ـ عـلـاهـاـ .ـ سـيـاطـ الـقـومـ صـفـمـ .ـ

(٣) تـرـدـىـ :ـ لـبـسـ الرـدـاءـ وـ الـمـرـادـ أـنـهـ وـلـىـ الـخـلـافـةـ فـيـ .ـ

ملك إذا اعسر الأمور مهني به رأى يفل السيف وهو حسام (١)
دارى به الله القلوب من العمى حتى أفقن وما بهن سقام (٢)
أصبحت يابن زيدية ابنة جعفر أملا لعقد حبالة استحکام (٣)
فسلیت الأمر الذي ترجى له وتقاعست عن يومك الأيام (٤)

والبيت الأول والثاني شبيهان بقول الشاعر :

إذا بلغتني وحملت رحل عرابة فاشرق بدم الوردين
وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبي موسى بلا بلا بلغته قيام بفأس بين وصليلك جازر
وقال عبد الله بن رواحة :

إذا بلغتني وحملت رحل فشانك فانعمى وخلاق ذم ولا أرجع إلى أهل ورائي
وقال الفرزدق في هذا المعنى :

علام تلفتين وأنت تخنى وخير الناس كلام أمي
متى تردى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامي

(١) اعتسرت الأمور اشتدت والتوت ، يفل السيف : يثله . والحسام : السيف القاطع ، يريد أن الأمور إذا صعب حلها كان له فيها رأى نافذ سديد .

(٢) عمى القلوب : زيفها . السقام بفتح السين المرض .

(٣) زيدية أم الأمين جاءت به من هارون الرشيد وهي بنت جعفر ابن المنصور ، الأمل هنا هو المقصود والمأمول . استحکام : قوة . يقول : صرت أملا يعلق الناس حاجاتهم بك فلا يخيب رجاؤهم ، قوله (لقد) إلى آخر الجلة صفة أقوله أملا .

(٤) تقاعس : تأخر . يقول : إن أيامك خير الأيام .

وقد عاب الرواة ونقاد الكلام قول الشماخ وذى الرمة ، سمع عبد الملك قول الأول فقال : بذست المكافأة حملت رحله وبلغته بغيته بحمل مكافأتها نحرها وقد قال رسول الله للأنصارية التي نجحت من الأسر على ناقته صل الله عليه وسلم فندرت أن تتحررها : لبيس ما جزيتها . وما إلى جانب الخطأ في المعنى رديتها الأسلوب يتخذها النحاة مجالاً لكثير من سخف التأويل . فاما عبد الله بن رواحة . فقد أحسن إليها مع استغناه عنها ، دعا لها بأن تعيش ناعمة طيبة خالية من الذم لأنها بلغته ما يأمله من الاستشاد في سليل الله .

ويقول الفرزدق مخاطباً ناقته : متى تناخي في ساحة أمير المؤمنين زراحي من عناء الرحيل إلى غيره لأننا نصادف من نداء ما نعيش به أغنياه ، وزاد أبو نواس فأعتقد ظهورها من المل وحاجها من الركوب وجعل ذلك حقاً خليقاً بالرعاية ودينا واجب الأداء ، وكلمة الرجال في بيته تسيء إلى الغرض لأنها تخصص العام وتقييد الإطلاق كما أن حماتي وحمات دحل في الآيات السابقة حشو جيء بها لإقامة الوزن . وكذلك كلمة زمام في بيت أبي نواس ، وبيت ابن رواحة الأول فيه إطناب ، وكان يعني عنه أن يقول إذا بلغتني الغاية .

وأبو نواس هو الحسن بن هانىء (١٤٥ - ١٩٨) من شعراء الدولة العباسية ، نشأ في البصرة ، ثم تحول إلى السكوفة ، وأخذ عن والبة بن الحباب وكان والبة شاعراً ماجنا شرابة للغمرو صافا لها ، ثم انتقل إلى بغداد . وفاق أبو نواس أهل عصره في وصف المخر ، وكان مستهزئاً كاستاذه ، منه الانبعاث في الشموات وقرض الشعر في أبواب الخلعة ، ولقد أجاد في جميع فنونه ، وهو من الشعراء القادرین على التصرف في الشعر ، مع مثانة الأسلوب وجزالة اللفظ وسلامة النظم ، ويعد من مفاخر العربية والمحسنين إليها ، وتوفي سنة ١٩٨ هجرية .

وهذه هي رائحة أبي نواس المشمورة في المدح ، قال أبو نواس مدح العباس بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور :

أيها المتسلب من عفري لست من ليلى ولا سمره (١)
لا أذود الطير عن شبر قد بلوت المر من ثمره (٢)
قد لبست الدهر لبس قى آخذ الآداب من غيره (٣)
فأفصل إن كنت متصلًا بقوى من أنت من وطراه (٤)
خفت مأثور الحديث غداً وغداً أدنى لمنتظره (٥)
خاب من أسرى إلى بلد غير معلوم مدى سفره (٦)
وسدته ثى ساعده سنة حلت إلى شفره (٧)

(١) المتناب : القاصد المتردد عليك ، والعفر بضم فسكون وبضمتين : طول العهد ، والسم : حديث الليل خاصة ، يتبرأ منه . . . والمعنى : أيها الواثر بعد زمان طويل لست من سمارى في ليلى .

(٢) يقول : لا أمنعك من الاتصال بهذه المرأة التي خالقني وستلقى هذا المصير ، والبيت من قبيل الاستعارة التمثيلية .

(٣) أي صاحبت الدهر حتى تعلمت من حواريه ، وغير الدهر : أحداً له .

(٤) الوطر : الحاجة . والقوى : الأسباب والمحبّال ، أي اتصل بمن تحب الاتصال به غيري فليس يبنتا سبب .

(٥) المأثور : المروي . أي خفت ما يرويه الناس من الأحاديث السيدة في غد ، وإن غداً لقريب .

(٦) الخيبة : ضد النجاح . والإسراء : السير ليلاً . والمدى : الغاية ، والمعنى : خاب من سار على غير هدى ومن لم ينظر في العواقب .

(٧) الشفر : منبت الشعر من الجفن ، والستة : النوم الخفيف ، وهذا تكميل لما قبله ، يصف السارى المسافر بأن النوم يحمله على أن يتوكى ساعده المثلث .

فامض لاتمن على يدا
ذلك المعروف من كدره (١)
مسقط العيوق من سعره (٢)
لأن تقوى الشر من حذره (٣)
وابن عه لا يخافنا
قد لبساه على غيره (٤)
ككون النار في لنا
كن الشنان فيه لنا
ورضاب بت أرشفه
ينقع الظمآن من خصره (٥)
علنيه خوط إسحالة
لان متناه لم يتصرف (٦)

(١) المَنْ : ذَكْرُ النِّعَمِ إِحْسَانَهُ ; وَذَلِكَ مَفْسُدُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ كَلَامِ
الْعَرَبِ : الْمَنَةُ قَفْسَدُ الصَّنْيَعَةِ .

(٢) رَبَّاَتِهِمْ : حَرَسَتِهِمْ خَافَةً أَنْ يَدْهُمُوهُمُ الْعَدُوُّ ، مَسْقَطٌ : وَقْتٌ مَمْقوطٌ
(العيوق) ، وَهُوَ نَبْحَمٌ يَتَلَوُ الثَّرِيَا ؛ يَظْهَرُ سُحْرًا ، يَفْتَخِرُ بِأَنَّهُ يَحْرُسُ إِخْرَانَهُ
فِي الشَّدَائِدِ .

(٣) يَرِبَّهُمْ : يَفْزُهُمْ ، يَقُولُ : اعْتَدُوا عَلَى فِي دَفْعِ مَا يَحْذِرُونَ فَكَسْتَتْ عَنْدِ
ظَنْهُمْ .

(٤) كَاشِفُهُ بالعِدَاوَةِ : أَظْهَرَهُ عَلَيْهَا ، وَالغَمْرُ : الْمَقْدُ ، يَقُولُ : أَدَارَى إِنْ
عَمِيَ الَّذِي يَكُنُ لِي الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ وَأَعْشَارُهُ وَكَأْنِي لَا أَعْلَمُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ .

(٥) كَنْ : اسْتَرَ ، وَالشَّنَآنُ : الْبَغْضُ ، أَى تَوَارَتِ الْبَغْضَاءُ فِي نَفْسِهِ كَتَوَارِى
النَّارِ فِي الْجَحْرِ .

(٦) الرِّضَابُ : الرِّيقُ ، وَالظَّمَآنُ : الْمَطْشَآنُ ، وَالخَصْرُ : الْبَرْدُ ، وَيَنْقُعُ
بِرْوِيِّ .

(٧) عَلَنِيهِ : سَقَانِيهِ مَرَةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَالخَوْطُ : النَّصْنُ النَّاعِمُ تَشَبَّهُ بِهِ
الْمَرْأَةُ ، وَالإِسْحَلَةُ : مَفْرَدُ اسْهَلٍ شَجَرٌ عَظِيمٌ يَنْبِتُ بِأَعْلَى نَهْدٍ ، وَالْمَتَصَرُّ
جَاذِبُ النَّصْنِ ، يَقُولُ : سَقَانِي هَذَا الرِّيقُ امْرَأَةٌ لَيْتَهَا النَّصْنُ فِي تَشْنِيهِ طَبِيعَةِ
بِلَاجِذِهَا إِلَيْهِ .

ثم أدناه إلى ملك يأمن الجاف إلى حجره ^(١)
تأخذ الأيدي مظالمها ثم تستدرى إلى عصره ^(٢)
كيف لا يدنك من أمل من رسول الله من نفره ^(٣)
فاسل عن نوه تؤمه حسبك العباس من مطره ^(٤)
ملك قل الشيء له لم تقع عين على خطره ^(٥)
لاتغطى عنه مكرمة بربها واد ولا خمره ^(٦)

(١) الضمير المرفوع عائد إلى الحewan الذى قطع الطريق به إلى المدوح .
يقول : بلغنى هذا الحewan ملكا يحمى اللاجئ إلية ، والحجر : حصن
الإنسان .

(٢) تستدرى : تلتجئ ، والعصر : الماجأ ، أى ينصلح للذين يقصدونه
شاكلين ، لأنه عادل وسلطان عجم .

(٣) النفر : الجماعة ، وهذا البيت معيب لأن حق رسول الله أن يضاف إليه
لا أن يضاف إلى غيره . فكان الأنسب أن يقول من هو من نفر رسول الله ،
فيكتسب هذا الأمير الشرف بالإضافة إلى السيد الرسول الأعظم .

(٤) النوه : النجوم ، وكان العرب يربطون بين المطر وظهور نجوم بعضها .
والمعنى : لا تؤمل في خصب يأتيك به مطر السماء فندى العباس خلف من كل
مطر ، وغنى عن كل غيث .

(٥) الخطر : المثل ، يقال هذا خطر له أى مثله ، وقل هنا : معناه فقد
وخدم ، أى لا شيء لهذا المدوح ولن تقع عين على نظير له .

(٦) لاتغطى : لا تتوارد ولا تستدرى ، والربى ما ارتفع من الأرض واحدها
ربوة ، والآخر : ما واراك من شجر وغيره ، والمعنى : أنه لا يترك مكرمة إلا فعلها
ولا حنيعة إلا أنها وأحسنها .

سبق التفريط رائده وكفاء العين من أثره ^(١)
وإذا بع القنا علقا وترامي الموت في صوره ^(٢)
راح في ثني مفاصنه أسد يدى شبا ظفره ^(٣)
تنأى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره ^(٤)
وترى السادات مائة لسليل الشمس من قره ^(٥)
وكريم الحال من يمن وскريم العم من مضره ^(٦)
حضر المكشون من فكره ^(٧) فهم شتى ظنونهم

(١) التفريط : مصدر فرط دسوche : قدمه وأرسله ، والرائد : الرجل يرسله أهل يلتئس لهم متلا خصبا ، يقول : إن العباس رائده . أى الرائد منه يسبق الرسول ويعرف بصيرته المستور ، ومعنى الشطر الثاني أنه لفترة بصيرته يعرف الأمور بذاتها فلا يحتاج إلى آثارها التي تعينه في المعرفة .

(٢) بع : لفظ ورمي ، والتنا . الرماح ، المفرد قنا ، العلق : الدم ، وترامي الموت الح : أى ظهر الموت في أشكاله المتباينة ، فطعمين بالرمح ومضروب بالسيف وصربيع .

(٣) الثنيان : مثنى ثى بكسر فسكون وهو ما كف من طرف الثوب . والمنفاعة الدرع الواسعة . والشبا : جمع شبة وهي حد السيوف أو السنان في طرفه ، يقول : إنه يعود من الحرب مدرعاً كالأسد وقد احرث ثيابه من دماء الأعداء .

(٤) تنأى : تعمد وتتغطر . والجور : قطع اللحم .

(٥) سليل : وليد ، والمعنى المولود من أمه التي هي كالشمس عن أيه الذي هو كالقمر ، وضيئره (قره) للمدوح أو لوالده .

(٦) المدوح خاله يعني وعنه مضرى .

(٧) شنى : متفرقة متوعة ، يقول : إن السادات متتنوعو الأفكار عما يحيط به هو بالنسبة لهم وما يقضى في شنونهم ، علامة منه وإجلاله .

ومن دراسة هذه القصيدة نجد أبا نواس يؤثر فيها الغريب ، وكأنه أراد أن يرضي أبا عبيدة والأصمى وأضراهما من الذين يحفلون بغراية اللفظ أو يظهر لهم أنه لا يقل عنهم علمًا باللغة وحفظاً لها وهي على ذلك حاملة بالاستعارة الحسنة والأمثال السائرة والمعانى النادرة . يبرز ذلك كله في أسلوب جيد ولفظ جزل وزن راقص يصلح للغناء والتلحين .

وأحب أن أقف معك عند هذا البيت :

تنائي الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وأوازن بينه وبين قول النابغة :

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوفهم عصائب طيرى تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجماعان أول غالب

أراد كل واحد من الشاعرين أن يصف المدوح بأنه قاهر لعدوه ظاهر عليه يتركه عند اللقاء مضرجا بالدماء، طعاما لآكلات اللحم من الطير . وأن الطير قد عملت ذلك فهى تتبعه في غدوه إلى القتال واثقة أنها سترجع بطانا من لحوم أعدائه الذين قتلتهم . وقد عمد النابغة إلى وصف شجاعة المدوح بأن الطير تعلم أن الظفر للمدوح على عدوه فذكر ذلك صريحاً وكفى عن طمسها في اتساع رزقها عليها بصحبتها له في غدوه إلى الحرب ، وعكس أبو نواس فضل على هذه الثقة ، ودل على قبره ملن ناؤه بطريق الفحوى .

وأبو نواس وإن كان متبوعا فقد زاد على النابغة بفضل إيجازه وخفته وزنه وباختيار لفاظه فكلمة (تنائي) تدل على الترقب والانتظار وأنها مستشرفة لذلك متشوقة إليه ، وكلمة الطير أشمل من عصائب طير ، وكلمة ثقة بالشبع لا يقابلها في كلام النابغة ما يدل على معناها ، وكلمة جزره تدل على أن عدوه عند المحلة يهرب بمنزلة الإبل تحرر والهيبة تذبح قد استسلمت للقضاء المحتوم

والقدر النازل ، وكلبة ، أول غالب ، في كلام النابعة أضعف المراد لأنه من الجائز أن يكون أول الحلة له وآخرها عليه ، وغاية القول أن النابعة وإن كان قد سبق فإن أبي نواس قد أحسن في الاتباع وزاد .

وغا عيب على أبي نواس في هذه القصيدة قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

يروى أن راوية أبي نواس قال عندما سمعه ينشد هذا البيت : إنه كلام ردىء موضوع في غير وضعي لأن سيدنا رسول الله أجدر أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى أحد ، فقال له أبو نواس : ويذلك إنما أردت أن رسول الله من القبيل الذي هو منه ، كما قال حسان :

**ومازال في الإسلام من آل هاشم دعائم عز لازام ومحفر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد التخير**

وقال أبو تمام يمدح أبو العباس عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

**وركب كأطراف الأسنة عرسوا
على مثلثها والليل تسقط غيا به(١)
لأمر عليهم أن تم صدوره
على كل موارد الملاط تهدمت
رعاها وماء الروض ينهل ساكيه**

(١) أطراف الأسنة : أنسنة الرماح . عرسوا : نزلوا ليلا . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أنسنة الرماح وهي كور الجمال التي تشبه الأنسنة في الصلابة والمضاء .

(٢) أي هؤلاء الركب ركبوا الأمر وهو نيل العطاء من المدوح .

(٣) الملاط : ضد البعير والموار : المترعرك . والحالب : عرق يتصل بأسفل البطن وهو كثيبة عن الضمور .

إليك جز عنا مغرب الملك كلما

هبطنا ملا صلت عليك سبابيه (١)

إلى سالب الجبار يضنة ملكه وآمله غاد عليه فساليه (٢)

وقد قرب المرى البعيد رجاوه وسمحت الأرض العزاز كناته

سم عباب الماء جاشت غواربه (٣)

قول حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه

وأين بوجه الحزم عنه وإنما مرأى الأمور المشكلات تجارت (٤)

أرى الناس منهاج الندى بعد ما عفت

مهابيعه الشلى ومحى لواحبه (٥)

ففي كل نجد في البلاد وغائر مواهب ليست منه وهي مواهبه (٦)

إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله فقد طالبته بالنجاح مطالبه (٧)

(١) جز عنا الأرض . قطعناها عرضا ، وغرب الملك . الشام ، وكان أبو تمام بها وكان مدوحه بخراسان ، وللولا . الصحراء ، وصلت عليه . أنت عليه ، والسباسب جمع سبب . الأرض للستوية .

(٢) يضنة الملك . حوزته وأصله ، وآمله طالب العطاء منه ، يقول : إنما سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله ، فهو سالب ملك الجبار ومسلوب المال من الطالبين .

(٣) يريد بمحابي العلا الشجاعة في المرب والكرم ، والعباب معظم الماء وجاشت ذخرت وغواربه أعلى أمواجه .

(٤) أين بوجه الحزم أي كيف يشكل عليه الحزم وتجارت مرأة للشكلات ومرأى جمع مرآة .

(٥) المهايئ والواحد العرق الواحة .

(٦) لما علم الناس السكرم كانت هباتهم ليست منه وهي في الحقيقة منه لأنها هو الذي عليهم .

(٧) أي من زل هندك وألقى رحله برك من نبع مطالبه .

وهكذا كان المدح يهز أعطافهم ، ويثير أريحيتهم ، ويستدر عظامهم
وهكذا كان الشعراء يعنون في المبالغة ، ويهولون في تصوير المدح ،
لأنهم يرون ذلك السحر الذي يخلب العقول ، والرقى التي تختلب الحالات ،
وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطايا ويهولون
عليهم أمر الدين ، فيدونون من الشرك أو يقعون فيه كما قال أبو نواس :
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

وكما يقول :

حتى الذى في الرحمن (لم يك صورة) لنؤاده من خوفه خفقات
وقد ظل الشعراء يبالغون في المدح ، ويغرون في الثناء ، وينافس بعضهم
بعضاً في ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتشعر فيها بعد ، وتبلغ نهايتها
في الغلو والتزويل ، ولقد ذكروا أن المستعين بالله قال لشاعره : لا أقبل
إلا من قال مثل قول البحترى :

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر
فقال البلاذرى : قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى ، فقال هات ،
فأنشدَ :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن اظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه
فقال المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما آمرك به ، فرجع ، فبعث
إليه سبعةً لاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

شعر السياسة والعصبية

١ - ورثت الدولة العباسية مخالفه العصر الاموى من إحياء العصبيات
بين الجائحة والمضربيه ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطربة ، لا ينبو لها ضرام

ولاتنها ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقيين يتراشقون بالمجاه ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء البهائية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضطربة الحكيم بن قتيبة ، قال مسلم يفاخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخر ر قريش ونفرها مستمار
ذكرت عزها ، وما كان فيها - قبل أن تستجيئنا - مستجار
إنما كان عزها في جبال ترقها كا ترق الوبار^(١)
أيها الفاخرون بالعز والعز لقوم سواهم والفحار
أخبرونا عن الأعز : أللذ صور حين اعتلى أم الأنصار ؟
قلنا العز قبل عز قريش وقريش تلك الدبور تجاري

٢ - وكان الموالى في العصر الأموي يكنون الحقد للعرب ، ويضمرون لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والإشادة بفواخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن حريةهم كانت مكبوبة ، بحيث لم يجزئ على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فليا تنسموا نسمى الحرية ذ . العصر العباسى ؛ واعتد الخلفاء بهم هذا الاعتداد الذى عرفناه ، بدأوا يجهرون بالعداوة ، ويعلنون المثالب ، ويدعيون فواخرهم وأمجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظاهر بوضوح بين العرب والمعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعر . وكان من شعراء الموالى الشعوبيين : بشار وديك الجبن والخربى والمتوكل .

٣ - وكان الشعر السياسي يأخذ مكانة بين هذه المصيّبات ، ويحتل أرفع المنازل ، لأنّه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبني العباس شعراء يعتمدون عليهم في إذاعة محامدهم ، والاحتياج

(١) الوبار يكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهي دوية كالسنور .

لهم في استحقاق الخلافة ، وألوهاتهم بها دون بنى على . ومنهم : مروان
ابن أبي حفصة وعلي بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد . وكذلك كان للعلويين
شعراؤهم الذين يذودون عنهم ، ويتعصّبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ،
ويلاحرون شعراً لهم المعصّبين . ومنهم السيد الحميري ودعبد الحزامي ،
ومسلم بن الوليد . قال مروان بن أبي حفصة يخاطب بنى على :

حطم المناكب يوم كل زحام خلو الطريق لبشر عادتهم
وارضوا بما قسم الإله لكم به
لبني البنات وراثة الأعما أني يكون وليس ذاك بكائن
وقال الحميري وكان علويأ :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد
فإنك من يشرى العضالة بالمدى
وألا وتنعمت في الله من آل أحدها
 وإن أمرا يلعن على صدق ودم

ولقد أحسن الرشيد إلى دعبد ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع
عليه وأركبه ، حين سمع بعض المغبيات تغنى من شعره :

أين الشباب وأية سلكا لا أين يطلب ضل بل هلك
لاتهجي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف يو سلكا ياصاحي إذا دمى سلكا ؟
لاتأخذوا بظلماتي أحدا قلبي وطرف في دمى اشتراكا

فلم يخفف هذا من عصبية دعبد للعلويين ، ولم تنسه المكافأة السخينة
حقده على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجو ،
وليس حتى من الأحياء نعلمهم من ذي بيان ولا بكر ولا مضر

كَا تشارك أيسار علی جزء^(١)
فَعَلَ الْغَزَّةَ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالْخَزَرِ^(٢)
وَلَا أَرَى لِبْنَي الْعَبَّاسِ مِنْ عَذْرٍ
مَا كَنْتَ تَرْبِعُ مِنْ دِينِ عَلِيٍّ وَطَرَّ
وَقَبْرَ شَرِّهِمْ ؛ هَذَا مِنْ الْعِبْرِ^(٣)
عَلِيُّ الزَّكِيِّ بِقَرْبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرٍ
لَهُ يَدَاهُ نَفْذٌ مَا شَاءَتْ أَوْ فَدَرٌ
إِلَّا وَهُمْ شَرَكَاهُ فِي دَمَاهُمْ
قَتْلٌ وَأَسْرٌ وَتَحْرِيقٌ وَمَنْهَبَةٌ
أَرَى أُمَّةً مَعْذُورِينَ إِنْ قَتَلُوا
أَرْبَعَ بَطْوَسَ عَلَى الْقَبْرِ الْزَّكِيِّ إِذَا
قَبَرَانِ فِي طَوْسِ خَيْرِ النَّاسِ كَلَّاهُمْ
مَا يَنْفَعُ الرَّجْسُ مِنْ قَرْبِ الزَّكِيِّ وَلَا
هَبَّاتٌ كُلُّ اُمَّرَى مَرْهُنٌ بِمَا كَسَبَتْ

الوصف :

الوصف^(٤) تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية^(٥) ، أو هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والسميات^(٦) ، وأحسن الوصف ما نعمت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا^(٧) ، وما استوعب أكثر معان الموصوف حتى كأنه يصوّره لك^(٨) .

والوصف أكثر أبواب الشعر العربي ، وكثير من النقاد يرى أن الشعر

(١) الأيسار : لاعبو الميسر ، والجزر : التوق يقاومون عليها .

(٢) الخزر بفتح الخام والزاي جيل من الناس ضيقوا عليهم .

(٣) يريد قبر موسى السكاف .

(٤) ويعد ابن رشيق الطرد والخرارات من باب الوصف (٢٨٠ : ٢ العدة) ويتابه في ذلك كثير من النقاد ، ويبدون أيضاً شعر الطبيعة من باب الوصف (٢٥٢ التوجيه الأدبي) .

(٥) الأسلوب الشايب .

(٦) ٧٠ تهد الشعر .

(٧) ٢٧٨ (٢ العدة) .

(٨) ١٢٣ صناعتين .

إلا أله راجع إلى باب الوصف^(١) ، وقد وصف شعراء الجاهلية كل ما وقعت عليه أعينهم من شتى الأوان بيتهم التي عاشوا فيها ومظاهر الحياة التي ألغوها في هذه البيئة ، وكان امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنري والنابغة الجعدي من وصف الخيل^(٢) كما كان طرقه وأوس بن حببر وكمب ابن زهير ٢٤٥ ، والشماخ من وصف الإبل^(٣) وكان عبيد بن الأبرص مجيداً في وصف المطر^(٤) ، واستمر الأمر كذلك في العصر الإسلامي ، وانفرد بعض الشعراء بالتفوق في بعض الأوصاف ، فكان الشماخ من أوصف الناس للقوس والخنزير^(٥) ، وكان ذو الرمة أوصف الناس لومل وهاجر وفلاة وقرادوجية^(٦) وأحسن الناس وصفاً للمطر^(٧) ، وينذكر بعض الباحثين أنه يكاد يكون أكبر شعراء الوصف في العصر المتقدم كله^(٨) ، وكان ابن أحمر وهو إسلامي قديم وشاعر مجيد وصاغاً للحيات وعلى قوله احتذت الشعراء^(٩) وللتغلبي أجود قصيدة قيلت في وصف القطف^(١٠) ،

(١) ٢٧٨ : ٢ العددة : ٢٥١ التوجيه الأدبي .

(٢) أقرأ وصف الجواري الحسن خليل آباًهـن (١٧٨ : ١ الأمالى) ، ومقصورة أبي صفوان الأسدى في وصف الخيل (٣٤٠ : ٢ الأمالى) .

(٣) ٢٨٠ : ٢ العددة . ١٢٥ : ٣ الرافعى .

(٤) راجع قصيديه الحائية والقافية في وصف المطر (١٧٢ : ١ الأمالى : ١٧٨ : ١ الأمالى أيضاً) وراجع وصف الأعراب للمطر (١٧١ و ١٧٣ : ١ الأمالى) .

(٥) ١٠٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٢١٠ : ٣ العددة .

(٦) ٢٧ الشعر والشعراء (٧) ٣٥ المرجع .

(٧) ٢٥٢ التوجيه الأدبي .

(٨) ٣٧ المؤتلف .

(٩) راجع ١٦٩ : ٥ الحيوان .

ولعبد بن أیوب العنبری إجاده وشهرة في وصف الصحاری والمجاھل
وما فیم امن حیاة وکائنات ^(١) ، وکان مزاحم العقیلین ينعت الفلوات فيجید
وشمد له بذلك الفرزدق وجریر والأخطل عند عبد المللک ^(٢) ، وکان الراعی
أو حصف الناس للإبل ^(٣) ، كما كان الفرزدق والخطیة يجیدان صفات الخیل
والقسی والنبل ^(٤) ... وفي العصر العباسی هجر الشعراء الأوصاف التقليدية
في الشعر العربي فدعا مطیع إلى وصف الجمال لا إلى وصف المهامه والقفوار:

لأحسن من يد تحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تللاحظ عيني عاشقين كلامها له مقالة في وجه صاحبه ترعن

ودعا أبو نواس إلى أن تفتح القصائد بأوصاف الراح :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة السکرم

وقال :

ياربع شغلتك إني عنك في شغل لاناقی فيك لو تدری ولا جل
وتابعه في ذلك ابن المعتن فقال :

أحسن من وقفة على طلل ومن بكاه في أثر محتمل
كأس مدام أعطتك فضلتها كف حبيب والتقل من قبل

وقال :

أف من وصف منزل بعکاظ
فحومل وكان أبو نواس شعوريا في مذهبہ کایقول هو :

عاج الشق على رسم يسائله وبعثت أسأل عن خمارة البلد
تبکی على طلل الماضین من أسد

(١) دراجع ٥٠ : ٦ الحیوان .

(٤) (٢) دیوان المعنان .

(٢) دراجع ١٥٥ : ٢ دیوان المعنان .

(٣) (٣) دیوان العمدۃ .

ومن نعيم ومن قيس ومن يعن؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولم يكن يدعو إلى فكرة أدبية جديدة بل إلى إدخال أنواع من المجنون في الشعر^(١) ، ولكن ابن المعزن كان ناقداً يبحث في الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلامِّ يبنهم ، وينادي بتحضر الشعر وترك روح البداءة فيه ، والنقاد يختلفون في هذه المناهج ، فإن قافية يدعو إلى المحافظة على سنن العرب في ابتداء القصائد بذكر الديار والنسيب ثم وصف الرحلة إلى المدوح والتخلص إلى المدح^(٢) . ويرى ابن رشيق أنه لامعنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً^(٣) ، وأن ليس بالمحذث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس في الوقت عن ذلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلّفها والأولى في هذا الوقت صفات الخنزير والقبيان^(٤) .

وقد أجاد الشعراء العباسيون في الأوصاف إجاده بالغة ، وقاموا فيها بالتشبيه المفرط البعيد^(٥) ، على حين كان من قبيلهم يحررون في أوصافهم على الصدق ويسيرون في ظل المخاوف القرية ، وهذا مذهب من مذاهب العرب في أن يصفوا الشيء على ما هو وعلى ما شوهد من غير اعتماد لإغراب ولا إبداع^(٦) ، وأشهر قصائد الوصف سينية البحترى التي ليس للعرب مثلها كما يقول ابن المعزن^(٧) ، وبربع ابن الرومي في التصوير وخاصة فيها كان

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف .

(٢) ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء .

(٣) ١٩٩ (٤) ١٧٩ : ٢ العمدة .

(٥) راجع ١٢٤ : ٣ الرافي — والوصف مناسب للتشبيه ومشتمل عليه وليس به ، والفرق بينهما أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء والتشبيه مجاز وتمثيل (٢٧٨ : ٢ العمدة) .

(٦) ١٨٩ المواذنة .

(٧) ٢١٨ (١) : ٦٤ ديوان المعااف ، (٥٠٢) الأدب العباسى لمحمود مصطفى ،

٣٣ رسائل ابن المعزن ، (٧) و (٨) مقدمة ديوان البحترى .

يرجع منه إلى باب التهكم والسخرية ، وكان الجندي من أصلاح الناس شعراً وأقدرهم على الوصف وكان عامة شعره في طبسان ابن حرب ^(١) ، واشتهر بجودة الوصف ابن المعز ^(٢) ثم كشاجم بعده ^(٣) والصنوبرى وهو وحيد جنسه في صفة الأزهار وأنواع الأنوار ^(٤) ، وكذلك أبو طالب المأموني (٥٣٨٣) وله شعر كثير في الأوصاف ^(٥) ، وكذلك أسرى الرفاه وعلى ابن إسحاق الراجحي (٥٣٥٢) ثم ابن خفاجة وابن حذيس ^(٦) ، ولم يكن المتبنى من أهل الأوصاف كما يرى الواحدى ^(٧) .

وقد اشتهر ابن المعز بالإجاده في الأوصاف كلاماً كاملاً القيس في الجاهلين وأبي نواس والبحتري وابن الرومي ^(٨) في المحدثين ، ورسم صرراً صادقة لشكل ما وقعت عليه عينه من أمور الحياة ومظاهر الحضارة ، وفي وصفه رقة وسلامة ودقة وتفصيل وابتداع في الأسلوب وتجدد في التشبيه والاستعارة وإكثار من الصور الحية الرائعة ، وقد نمى ملمسكته في نفسه

(١) ١٧٦ طبقات الشعراء لابن المعز .

(٢) ٢٧٩ العدة .

(٣) اشتهر بوصف آلات المعايدة (١٢٦ : ٣ الرافعي) ، وكان يجيد الوصف ويتحققه (٢٥٠ رسائل البلقاء) ، وله كثير من قصائد في الوصف (راجع ٢٨٢ - ٢٨٥ : ٢ العدة ، ١٠٤ : ٣ وما بعدها زهر الآداب) .

(٤) ٢٥٠ رسائل البلقاء .

(٥) ١٤٩ : ٤ اليقنة - وله ترجمة في اليقنة (١٤٩ - ١٧٩ : ٤) .

(٦) ١٢٠ و ١٢٦ : ٣ الرافعي .

(٧) ويجد عليه العكبرى ذاماً إلى أنه كان يحسن الأوصاف في كل فن (١٦٥ : ٤ الصكجرى) .

(٨) ويجعلهم ابن رشيق من الذين أجادوا في كل الأوصاف (٣٧٩: العدة) .

دقة حسنه وأطاف شعوره وأمتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر لإرضاء لنفسه وتصويراً لحسنه مما صرفة إلى الإجاده في هذا الباب الذي تناول فيه وصف أولوان معيشته ومظاهر حياته وأنواع رفته ولهوه ، وأنى في ذلك بالرائع البليغ والجيد الممتاز وظهر فيه طابعه الخاص من أوصافه الملوكية التي تستمد صور الأوصاف من صور حياته التي كان يحياها أميراً وولي عهد وشخصية يارزة من شخصيات أسرة الخلافة العباسية التي أغرقها الترف في عصره إلى حد بلغ في ذلك مبلغ الأساطير .

وهكذا ظهرت براعة العباسيين في الوصف وقدرتهم على التصوير وقد ساعدتهم على الإجاده فيه واسموا بخياله وهمانيه ، مارددناه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أكم الشاعرية ، وينمى الإحساس بالجمال ، ويقوى ملحة التصوير . ولقد نضجت خواطيرهم بكثير من الأوصاف التي تناولت كل ما وقعت عليه عيونهم .

ومن نماذج الوصف قول علي بن الجهم يصف الورد :

حسن الرياض وصوت الطائر الغرد	لم يضحك الورد إلا حين أحببه
وراحت الراح في أنواها الجدد	بدا فأبدت لنا الدنيا محسنها
إلى الزراب والاحشاء والكبد	وقابلته يد المشتاق تسنده
أو ما نعا جفن عينيه من السعد	كان فيه شفاء من صباته
وسيره من يد موصولة يسد	بين النديميين والخلين مصرعه
إلا تبينت فيه ذلة الحسد	ماقابلت طلعة الريحان طلعته
تشفي القلوب من الأوصاب والكبد	قامت بمحجته ريح معطرة
بسمع بارد أو صاحب نكد	لاعنب الله إلا من يعذبه

وقال ابن الرقبي يصف القیان العازفات على الأعواد :

وقیان کأنها	أمهات
عاطفات على بذتها حوانی	
مطفلات وما حملن جینينا	
مرضعات ولسن ذات لبان	
ناهدات کاحسن الرمان	ملقات أطفـالهن ثدیا
وهي صفر من درة الآلـان	مفـعـات کأنها حـافـلات
بین عود ومزهر وکران	کـلـ طـفـلـ يـدـعـىـ بـاسـمـاءـ شـنـىـ
وهو بادی الغـنـیـ عن التـرـجـمـهـ	أـمـهـ دـهـرـهـاـ تـرـجـمـهـ عنـهـ

ومن أجل فصائد الوصف وصف البحترى لإيوان كسرى ، وفي هذه القصيدة الرابعة يصف البحترى الإيوان بالمدائن، ويرثى دولة الفرس قال :

ورتفعت عن جدا بكل جبس(١)	صنفت نفسى عما يدنى نفسى
بر التناسـاـ منه لتعمى ونسـكـىـ(٢)	وتمـاسـكتـ حـينـ زـعـزـعـنىـ الدـهـ
طـفـقـتـهاـ الـأـيـامـ تـطـقـيـفـ بـخـسـ(٣)	بلغـ منـ صـبـابـةـ العـيـشـ عـنـدىـ
حـضـرـتـ رـحـلـيـ المـهـمـوـمـ فـوـجـمـ(٤)	حـضـرـتـ رـحـلـيـ المـهـمـوـمـ فـوـجـمـ
لـحلـ منـ آـلـ سـاسـانـ درـسـ(٥)	أتـسـلـ عـنـ الحـظـاظـ وـآـسـىـ

(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان اللثيم .

(٢) تمـاسـكتـ : ثـبـتـ واعـتـصـمتـ . زـعـزـعـنىـ : حـرـكـنـيـ بـعـنـفـ أـىـ حـينـ نـالـتـيـ خطـوـيـهـ . التـنـاسـاـ : طـلـبـاـ وـعـاـواـلـةـ . التـعـسـ : الـمـلاـكـ والـشـرـ . النـكـسـ : أـنـ يـنـتـلـبـ الـرـجـلـ عـلـىـ دـأـسـهـ ، وـالـمـرـادـ المـزـيـدـةـ وـالـسـقوـطـ .

(٣) بلـغـ : جـمـعـ بـلـغـةـ وـهـيـ ماـ يـكـنـىـ مـنـ الـيـشـ وـلـاـ يـفـضـلـ . الصـبـابـةـ : الـبـقـيـةـ . طـفـقـتـهاـ : تـقـصـتـهاـ . الـبـخـسـ : الـقـبـنـ وـالـظـلـمـ .

(٤) حـضـرـتـ رـحـلـيـ المـهـمـوـمـ : طـرـأـتـ عـلـىـ الـأـحـرـانـ . وـالـعـدـسـ : النـاقـةـ الـقـوـيـةـ .

(٥) آـسـىـ : أـحـزـنـ . وـآـلـ سـاسـانـ : أـكـاسـرـةـ الـفـرـسـ . درـسـ : دارـسـ .

ذكرتهم الخطوب التوالى
ولقد تذكر الخطوب وتنسى^(١)
مشرف يخسر العيون وينسى^(٢)
في قفار من البساتين ملمس^(٣)
لم تطعها مسعاة عنس وعبس^(٤)
ة حتى غدون أفناء ليس^(٥)
س وإخلاله بنية رمس^(٦)
جعلت فيه مائما بعد عرس
لا يشأ البيان فيهم بليس^(٧)
كية ارتعت بين روم وفرس^(٨)
وان زجي الصفوف تحت الدروس^(٩)
ذكرتهم الخطوب التوالى
وهم خافقون في ظل عال
حلل لم تكن كأطلال سعدى
ومساع لولا المحاباة مني
نقل الدهر عدهن عن الجد
فكأن الجرمaz من عدم الأذ
لو تراه علىت أن الليالي
وهو يننيك عن عجائب قوم
 فإذا مارأيت صورة أنطا
والمنايا موائل وأنو شر

(١) التوالى : المتأتية .

(٢) هم : آل مسامان . خافقون : ناعمون . عال : أى قصر متقطع وهو القصر
الأبيض . يخسر العيون : يضعفها إذا نظرت تبين ارتفاعه . يخسي : يؤلم .

(٣) الحلل : جمع حلة طافية من البيوت . والبساتين : الفقار . ملمس : خالية .

(٤) المساعى : المسكارم . لم تطعها : لم تقدر عليها . عنس وعبس : قبيلتان .

(٥) أفناء جمع نضو : المزول من الحيوان أو التوب البالى ، وليس : استعمال
أى أبلأها الدهر .

(٦) الجرمaz : بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيمها بمحوار
القصر . والرمض : القبر .

(٧) البيان : المنطق الفصيح . اللبس . عدم الوضوح .

(٨) أنطاكية : بلد بالشام ضمت إلى تركياسا إبان احتلال الفرنسيين
اسوريا ، وفيها وقعت معركة بين الفرس والروم وقد صورت في الإليوان .
ارتعت : فزعـت .

(٩) موائل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب ، وأنوشروان أحد الأكامرة
يزجي : يسوق ، والدرس : العزل الكبير .

فِي أَخْضَرَارِ مِنَ الْلِبَاسِ عَلَى أَصْدَافِ
وَعِرَاقِ الرِّجَالِ بَيْنِ يَدِيهِ
فِي خَفْوَتِهِمْ وَإِغْمَاضِ جَرْسِهِ^(١)

مِنْ مُشِيدِ يَهُوي بِحَامِلِ رَعِي
تَصْفُ الْعَيْنَ أَنْهُمْ جَدُّ أَحْيَا
يَقْتَلُ فِيهِمْ إِرْتِيَابِيَّ حَتَّى
وَكَانَ الْإِيَّوَانُ مِنْ عَجَبِ الصَّنْعِ
يَقْتَلُ مِنْ السَّكَّاَةِ أَنْ يَسِّي
مَزْعِجاً بِالْفَرَاقِ عَنْ أَنْسِ إِلَفِ
عَكْسَتْ حَظَّهُ الْلَّيَالِيَّ وَبَاتَ الْمَشِّ
فَهُوَ يَبْدِي تَجْسِلَدًا وَعَلَيْهِ^(٢)
وَمَلِيعَ مِنَ الْأَسْنَانِ بَقْرِسِ^(٣)
أَطْهَمَ بَيْنَهُمْ إِشَارَةً خَرْسِ^(٤)
تَتَقْرَاهُمْ يَدَائِي بَلْسِ^(٥)
مَهْ جَوْبُ فِي جَنْبِ أَرْعَنِ جَاسِ^(٦)
دَوْ لَعْنِي مَصْبِحُ أَوْ مَسِّي^(٧)
عَزْ ، أَوْ مَرْهَقًا بَتَطْلِيقِ عَرْسِ^(٨)
تَرَى فِيهِ وَهُوَ كَوْكَبُ نَحْسِ^(٩)
كَلْكَلُ مِنْ كَلَّاكَلِ الدَّهْرِ مَرْسِي^(١٠)

(١) الورس نبات ذو صبغة حمراء .

(٢) خفوت : مَكْوَنْ صَوْتٍ ، الجرس : الصَّوْتُ .

(٣) المشيد : الخندر ، المليع : الذي يخاف ويحذر أيضاً ، والترس : الجن .

(٤) تصف العين : يخيل إليها .

(٥) يقتل : يزيد ، ارتياط : شك ، تقرى : تبيع .

(٦) الجوب الخرق ، والأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنت يعتمد الجبل .

المجلس الجبل العالى فكان الإيوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذى يشمل الإيوان وغيره من الغرف ، والمقاصير : خرق في جانب جبل أرعن وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجنحة والطفن ، والأبيات الآتية توضح هذا التشبيه .

(٧،٨) يقتلني : يظن ، أن يbedo : وقت أن يبدو ، ومن عجاً مفعول ثان ، ليتقطنى : أى أنه يظن وقت ظهوره للعين مزعجاً بفراقه أليفاً أو عروساً .

(٩) الشترى : كوكب سعد .

(١٠) التجله : تكفل الجلد والصبر ، السكلكل : الصدر أى نازلة ،

مرسى : من الإراسه والتزول .

باج وأستل من ستور الدمقس^(١)
رفعت في رموس رضوى وقدس^(٢)
صر منها إلا غلائل برس^(٣)
سكنوه أم صنع جن لإنس
يك بانيه في الملوك بنكس^(٤)
للتعزى رباعهم والتائسي
مواقف على الصباية حبس
باتقارب منها ، ولا الجنس جنسى
غرموا من ذكاثها خير غرس^(٥)
بحماة نحت السنور حمن^(٦)
ط بطنع على التحور ودعس^(٧)
راف طرا من كل سنج وجن^(٨)

لم يعبد أن بن من بسط الدي
مشمخن تعلو له شرفات
لباس من البياض فساته
ليس يدرى أصنع إنس لجن
غير أن أراه يشهد أن لم
عمرت للسرور دهرأ فصارت
فلها أن أعينها بدموقع
ذاك عندي وليس الداردارى
غير نعى لأهلها عند أهل
أيدوا ملكتنا وشدوا قواه
وأغانوا على كتاب أريا
وارانى من بعد أكلف بالآش

(١) بز : سلب ، والدياج : الثوب سداء ولحته حرير ، والدمقس : الحرير الأبيض .

(٢) مشمخن : عال ، ورضوى وقدس : جبلان ، شرفات : ما أشرف من بناء القصر ، يشبه القصر في ضخامته وارتفاعه بهذين الجبلين .

(٣) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يليبس تحت الثوب ، والبرس : بكسر الباء وضمهاقطن أو ما يشبه .

(٤) النكس : الضعيف الدنى . (٥) ذكاثها : نماتها .

(٦) السنور : كل سلاح من حديد ، وحسن : شمعان ، يشير إلى بلاد الفرس في إقامة الدولة العباسية .

(٧) أرياط : قائد حبشي قتح اليون قدما ، ثم خلفه القائد أبرهة صاحب الفيل وأبناؤه ، ثم طرد سيف بن ذي يزن الأحباش بمعاونة الفرس ، الدعس : الذود والطعن .

(٨) أكلف : أولع ، السنج : الأصل والمنتبت .

والشاعر أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الطافى صاحب القصيدة
تخرج على أبي تمام ، ولسكنه لم يسلك فى شعره نفس الطريقة التى سلكها
أستاذه ، وإنما كان يتوسط بعض الشىء قال إلى الناحية العربية الخالصة ميلاً
ظاهراً ، بخاء فى شعره شىء من البديع ، والحرص على الصنعة وعلى التدقير
في المعانى ، ولكن عنایته باللفظ الجزل على أسلوب الفحول من شعراء
القرن الثاني ظاهرة جلية ، والبحترى وصف بارع في الوصف ، ولكن
ميله إلى وصف الحضارة المادية أشد من ميله إلى وصف المعانى ، وهو
مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرى فيكـيكـ ، وعلى أن
يستعطف فيعطفكـ ، ويبلغ الغاية في ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه
عناء ، وهو غزل خفيف الروح إذا تغزل ، مادح موفق إذا مدح .

وقد أحيا البحترى عمود الشعر العربى بعد أن زعزعه تجديد بشار
وأبى نواس وأبى تمام ، ويمثل فى شعره غاية الذوق والترف الفنى ; وأثر
الحضارة فى الشعر وفي صناعته ، وموسيقاه وعذوبة أناضاته ، وأسلوبه .
ما يضر به المثل ، ومن ثم قال النقاد : «أبو تمام والمتبنى حكيمان ،
والشاعر البحترى» .

والبحترى كما يقول عبد القاهر فى كتاب «أسرار البلاغة» : إنك
لانكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد
البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى ، ويبلغ فى
هذا مبلغه .

وهذه القصيدة فى جملتها ترشد إلى البحترى وخصائص شعره ، وتدل
على مكانته من البلاغة و منزلته فى الشعر ، وطبقته بين الشعراء العباسيين ،
وكون البحترى مجدأً أن يكون له مثل هذه القصيدة . فهى فريدة فى الشعر
العربى ، وقد سبق بها البحترى إلى فن جديد فى الشعر العربى هو وصف
الأثار والمدن الباشرة .

فهي من أروع ماناظم من قصائد الوصف ورثاء الآثار والدول في
الشعر العربي.

ويبدو أن البحتري نظمها وهو في قمة مجده الشعري، وقد ذكرها مرتين
في شعره، مرة منها وهو يمدح ابن ثوابه:
قد مدحنا إيوان كسرى وجنتنا نستثيب النعمى من ابن ثوابه
ولم يختربا فوت من كل شعر البحتري سوى هذه السينية.

ووحدة القصيدة ظاهرة، فهي في موضوع واحد، وفكرة واحدة،
وهي مرتبطة العناصر متصلة الأجزاء بعضها بالبعض الآخر. وقد وفق
الشاعر في وصف الإيوان، ووصف إعجابه به وبيناته وبيناته، وفي
رسم شعوره، وهو واقف أمامه يتأمل هذا الأثر الكبير، ويغوص بجلاله.

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالثورة على الزمان، والنقطة على الحظوظ وعلى
رضاه بالإقامة في العراق وتركه الشام وطنه؛ فرأى أن يرحل إلى مداňن
كسرى عساه يجد فيها ما يزييل همه.

ويأخذ الشاعر في وصف القصر الذي به إيوان كسرى، فصوره غالباً
شاهدنا، حتى لتضعف العين أن تبين مدى ارتفاعه. وبين ما كان له من
سلطان واسع، وذكر مجد الفرس القديم، وحضارتهم التي لاتتسار بها
ما كان للعرب في صحرائهم قبل الإسلام من مفاخر آثار وأطلال
دراسة، ولا يصل إليها ما كان لقبائلهم من أعمال.. لكن الدهر لم يبق
على حظوظ هذه الآثار، ولم يحافظ على عهدها، فصارت هذه القصور
وكأنها قبور.

وقف الشاعر أمام صورة في هذا القصر ملكت عليه قلبه، وهي
صورة معركة حرية دارت عند مدينة أنطاكية بين الفرس والروم، وقد

أجاد المصور تمثيل الوهبة التي تسيطر على المعركة حتى ليغيل لرأيها أن الموت مائل فيها ، يريد أن يخطف الأنفوس ، بينما كان أنو شروان واقفا تحت علمه الكبير يحرض الجيش على القتال ، ولم ينس المصور أن يلون ثوب كسرى وجواده ، وأن يجيد تصوير المترحالين حتى لكانهم أحياه حقا ، فيندفع الشاعر إلى الصورة يتحسسها بيده ليرى أصورة هي أم حقيقة .

ويُعنى الشاعر بعد ذلك في وصف الإيوان ، فيصوّره كأنما هو من عمل الطبيعة ، لامن صنع الإنسان ، ويتخيله كثياباً أزعجه فراق صاحب يوئسه أو زوج أرهقه طلاقها ، فانقلب سعادته شقاء ، ومع ذلك فهو يكافح أحداث الدهر ، والله يريده تحطيمه . . إنّه جليل في العين لم ينقص من جلاله خلوه من البسط والستور .

ويتساءل البحترى في دهشة مما أحاط به ، وتعلّكه من جلال روعة صنع هذا الصرح : فهو من صنع الإنس للجن ، أم من صنع الجن للإنس ؟ .

ويُعنى البحترى متخيلاً ما كان عليه القصر من ازدحام الوفود ببابه وامتلاءه بالمقنّيات ينطرن في أرجائه ، وكأنما كان ذلك من وقت قريب وكانت قد فارقة السكان أمس أو أول أمس .

ويختتم القصيدة بدمحة يذرفها على هذا القصر الذي عُمر بالسرور دهرأ ثم صار موطن عراء وتأس .

وهنا يذكر الشاعر البحترى أسباب تمجيده لهذا الأثر العظيم ، وهي : أيادي الفرس على العرب في إقامة الدولة العباسية وتنبیت أركانها ، وأياديهم كذلك في القديم في طرد الحبشة من أرض الــين ، وسبب آخر كذلك هو أن الشاعر رجل يحب الماجدين من أى شعب وأية أمة .

وصف الطبيعة :

ويتصل بشعر الوصف شعر الطبيعة ووصفها اتصالاً وثيقاً.

فالطبيعة توحي للشعراء في كل عصر بكثير من المعانى والآثار الأدبية الرائعة ، وقد اهتم بها الشعراء وصوروها في مختلف مظاهرها ورسوا لها صوراً تجمع غالباً بين صدق الأداء وبراعة الوصف وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الإحساس .

صورها شعراء الإغريق وخاصة هو ميروس في إلياذته^(١) ، كما صورها الشعراء الجاهليون في قصائدم وآنارهم التي تشابهت رغم تعددتها وخلط من مظاهر التنوع والكثرة وخصوصية التصوير ، ولذلكها على أي حال صورة صادقة لتلك البيئة ، فامرؤ القيس في معلقته يذكر المطر والبرق كما يذكر يوم الغدير ولذاته في نظرة عابرة ، والأعشى يصف روضة من الرياض في لاميته ؛ وعنترة يصف الذباب وهو يعني بها في معلقته كما يصف فرسه والمعارك التي خاضها ، وهكذا تجد في الشعر الجاهلي والإسلامي صوراً كثيرة لمظاهر الطبيعة القرية من نبوم وسماء وأنهار وأماكن وفقار ورمال .

وفي العصر العباسي أخذ الشعراء يهتمون بأوصاف الطبيعة من ربيع ورياضن وأزهار وبرك ، ومن سماء ونجوم وكواكب ، وبرائحة أبي تمام في الربيع ، وهانئية البختري في وصف بركة المتوكل وجيميته في الرياح

(١) ويرى بعض الباحثين أن شعر الطبيعة شعر حديث ليس له صلة بالأدب اليوناني القديم (راجع ٩٨ الفن ومذاهب في الشعر العربي) .
ملحوظة : شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتغلت عليه ، والطبيعة : الحى مما عدا الإنسان ، والصامت كالحداائق والحقول والغابات والجبال وما إليها (ص ١؛ شعر الطبيعة في الأدب العربي تأليف السيد نوفل ط ١٩٤٥)

مثل جيدة لشعر الطبيعة في هذا العهد . وللجزال يحيى بن الحكم البكري الشاعر الأندلسي المشهور لامة مشهورة ^(١) وصف فيها البحر ورحلته إلى قسطنطينية موافداً من قبل عبد الرحمن بن الحكم بن هشام عام ٢٢٥ هـ إلى امبراطور الروم في مهمة سياسية ومنها :

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
فرأينا الموت رأى العين حالاً بعد حال

ولعبد الصمة بن المعدل قصيدة طويلة في روضة جميلة ^(٢) ، و Ashton السرى والصنوبرى م ٣٣٤ هـ ، والتنوخى م ٣٨٤ هـ بالروضيات ^(٣) ، ولابن وكيع م ٣٩٣ هـ قصائد في الرياض ^(٤) .

وفي الحق أن العباسين قبل أبي تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز كانوا أقلياً يلتجأون إلى تصوير الطبيعة التي عاشوا فيها ، وقد ألم بها البحترى وأبو تمام إماماً دون أن يتصل حبها بأعماق قلبهما ، وأقبل ابن الرومى عليها بصورها تصوير العاشق المفتون حيث أوقع بالطبيعة وتصويرها وكان يحبها حباً جاماً فرق عنده بين الطبيعة والشعور ولا يكاد ينظر إلى إنسان إلا تذكر الروضة والبساتان ^(٥) ، وقد عمل العقاد ذلك ييونانيته ^(٦) .

(١) ١٤٤ : نفح الطيب .

(٢) ١٥ : ٢ ديوان المعانى ، وراجع ٤٠ : ٢ المرجع نفسه .

(٣) ٣١ : ٢ المرجع .

(٤) راجع ٣٢٩ - ٣٣١ : ١ اليتيمة .

(٥) راجع ٢٨٢ - ٢٨٨ : ١ ابن الروى للعقاد .

(٦) ٢٨٢ المرجع ، وينقد ذلك الرأى صاحب « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » .

(٩٩٩٩) .

وراثته اليونانية أصل فنه الأدبي عند العقاد، ويضيف إليها طه حسين الثقة
اليونانية الإسلامية التي كان يتشففها الشعراء في القرن الثالث (١) ، فقيه
يونانية أصلية ويونانية مكتسبة أهم من الأولى ، وفيه أيضاً إسلامية مكتسبة
ففي فنه عناصر ثلاثة تؤثر فيه لاعنصر واحد (٢) :

وكان ابن المعز شاعر الطبيعة (٣) ووصافها الممتاز ، وله كثير من
الأثار في وصف شئ مظاهرها من رياض وأزهار وقصور وطيور وبرك
وميادين ومن نجوم وكواكب وأفلاك وسوى ذلك من شئ أوصاف
الطبيعة ، كان يعيش مع الطبيعة عيشة الهاشم المتبدلة والفنان الشادي والمصور
المفتون ، منحها شعوره وشعره وهماه وفنه أكثر من أي شاعر آخر سبقه
وأولم بتصوير كثير من مظاهرها المتعددة .

وإن شئت فانظر إلى تصويره للربيع ، حدث جعفر بن قدامة قال :
كنت أسرح مع ابن المعز في يوم من أيام الربيع بالعباسية والدنيا كالجلجة
المخرفة فقال :

جبدأ آذار شهر فيه النور انتشار
ينقص الليل إذا جاء ، ويمتد النهار
نقشه آس ونسر بين وورد وبهار (٤)
وعلى الأرض أخضر داكن وأحرار

(١) ٢٣٧ من حديث الشعر والنشر .

(٢) ٩٣ الفن ومذاهبه .

(٣) ويقول أحد الباحثين عنه : كان يحب الطبيعة ويفتن بها لكنه تستهويه
الصورة قبل كل شيء ، وهو في إخراجه للصور والأشكال يحتمال ويتأق ويكتفى
بالإشارة ويستخدم براعة عجيبة (١٨٢ شعر الطبيعة في الأدب) ، فهو مفتون
بالطبيعة يرى فيها صوراً جذابة (١٨٨ المرجع) .

(٤) ١٤٥ الأغاني .

فَكَانَ الرُّوْضُ وَشَىٰ بِالْغَتِ فِي التِّجَارِ

وَانْظُرْ إِلَيْهِ يَصِفُ الرُّوْضَ وَالْأَزْهَارَ وَالطَّبِيعَةَ :

والرُّوْضَ مَغْسُولٌ بِلِيلِ الْمَطَرِ
جَلَانَا وَجَهَ اثْرِيَ عَنْ مَنْظَرِ
كَالْعَصْبَ أوْ كَالْوَثَىٰ أوْ كَالْجَوْهَرِ
مِنْ أَيْضُنْ وَاحِدَرَ وَاصْفَرَ
وَالشَّمْسُ فِي اضْحَاءِ جَوَّ أَخْضَرَ
كَدْمَعَةٍ حَائِرَةٍ فِي مَحْجَرِ
نَسْقِ عَقَارَا كَالْسَرَاجِ الْأَزْهَرِ
يَدِيرُهَا كَفُ غَرَالَ أَحْوَرَ
تَخْبِرُ عَيْنَاهُ بِفَسْقِ مَضْمَرٍ يَعْلَمُ الْفَجُورَ مِنْ لَمْ يَفْجُرَ
وَأَبُو هَلَالٍ يَعْجِبُ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ (١) ؛ وَمِنْ شِعْرِهِ كَذَلِكَ فِي
وَصْفِ رَوْضَةٍ :

تَضَاحِكُ الشَّمْسُ أَنوارَ الرِّيَاضِ بِهَا
كَانَتْ نَثْرَتْ فِيهَا الدَّنَانِيرُ
وَيَأْخُذُ الْرِّيحُ مِنْ دَخَانِهَا عَنْقًا
كَانَ تَرْبَتْهَا مِنْ مَسْكِ كَافُورِ (٢)
وَيَقُولُ :

وَانْظُرْ إِلَى دِنَيَا رِبِيعَ أَقْبَلَتْ
مِثْلُ النَّسَاءِ تَبَرَّجَتْ لِزَوْنَةَ
وَالرِّيحُ قَدْ بَاهَتْ بِأَسْرَارِ النَّدَىِ
وَتَنْفَسَ الْرِّيحَانَ بِالْجَنَّاتِ
وَهُوَ مِنْ قَوْلِ أَبْنِ الرَّوْمَىِ :

أَصْبَحَتِ الدِّنَيَا تَرْوِقَ مِنْ نَظَرِ
بِمَنْظَرِ فِيهِ جَلَاءُ الْبَصَرِ
تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حِيَاءِ وَخَفْرِ
تَبَرَّجَ الْأَشَىٰ تَصَدَّتْ لِلذَّكْرِ
وَمِنْ رَوَاعِي شِعْرِ الطَّبِيعَةِ قَصِيدَةُ أَبِي تَمَامٍ فِي وَصْفِ الرِّبِيعِ ، وَمِنْهَا :

(١) ٢ : ١٦ دِيْوَانُ الْمَعَانِ .

(٢) ١ : ٢١٤ فَوَاتٌ .

رقت حواشى الدهر فهى تمر مـ^(١)
 بذلت مقدمة المصيف حيدة
 لو لا الذى غرس الشتاء بـ^(٢)
 كم ليلة آسى البلاد بنفسه
 مطر يذوب الصحو منه وبعده
 غيثان فـ^(٣) لأنواع غيث ظاهر
 وندى إذا دهنت به لم الثرى
 أربينا في تسع عشرة حجة
 ما كانت الأيام تسلب بهجة
 أولاترى الأشياء إن هى غيرت
 يا صاحبى تقضيا نظريـ^(٤)
 رقت حواشى الـ^(٥) الثرى فى حلـ^(٦) يـ^(٧) تـ^(٨) سـ^(٩) يـ^(١٠) تـ^(١١)
 وغدا الثرى فى حلـ^(٥) يـ^(٦) تـ^(٧) سـ^(٨) يـ^(٩) تـ^(١٠) تـ^(١١)
 ويد الشتاء جديدة لـ^(٦) انـ^(٧) كـ^(٨) فـ^(٩) سـ^(٩) كـ^(٩)
 قـ^(٩) المـ^(٩) الصـ^(٩)يف هـ^(٩) شـ^(٩)اً لـ^(٩) اـ^(٩)ثـ^(٩)ر
 فـ^(٩) يـ^(٩)ها وـ^(٩)يـ^(٩)وم وـ^(٩)يـ^(٩)بلـ^(٩) مـ^(٩)تعـ^(٩)جر
 حـ^(٩)مو يـ^(٩)كـ^(٩)اد من الفـ^(٩)ضـ^(٩)ارـ^(٩) يـ^(٩)قطـ^(٩)ر
 لـ^(٩)كـ^(٩)وـ^(٩)جـ^(٩)هـ^(٩) وـ^(٩)الـ^(٩)صـ^(٩)حـ^(٩)وـ^(٩)غـ^(٩)يـ^(٩)ثـ^(٩)مـ^(٩)ضـ^(٩)ر
 خـ^(٩)لـ^(٩)تـ^(٩)الـ^(٩)سـ^(٩)حـ^(٩)ابـ^(٩) أـ^(٩)نـ^(٩)اهـ^(٩) وـ^(٩)هـ^(٩)وـ^(٩)عـ^(٩)ذـ^(٩)ر
 حـ^(٩)قـ^(٩)اـ^(٩)نـ^(٩)كـ^(٩) لـ^(٩)رـ^(٩)بـ^(٩)عـ^(٩) الـ^(٩)أـ^(٩)زـ^(٩)هـ^(٩)ر
 لـ^(٩)وـ^(٩)أـ^(٩)نـ^(٩)حـ^(٩)سـ^(٩)نـ^(٩) الرـ^(٩)وـ^(٩)ضـ^(٩) كـ^(٩)اـ^(٩)نـ^(٩) يـ^(٩)عـ^(٩)مـ^(٩)ر
 سـ^(٩)مـ^(٩)جـ^(٩)تـ^(٩) وـ^(٩)حـ^(٩)سـ^(٩)نـ^(٩) الـ^(٩)أـ^(٩)رـ^(٩)ضـ^(٩) حـ^(٩)يـ^(٩)نـ^(٩) تـ^(٩)غـ^(٩)يـ^(٩)ر
 تـ^(٩)رـ^(٩)يـ^(٩)اـ^(٩)وـ^(٩)جـ^(٩)وـ^(٩)هـ^(٩) الـ^(٩)أـ^(٩)رـ^(٩)ضـ^(٩) كـ^(٩)فـ^(٩)أـ^(٩)صـ^(٩)ورـ^(٩) .

(١) تـ^(٩)مرـ^(٩) : تـ^(٩)تـ^(٩)اـ^(٩)يلـ^(٩) ، الثـ^(٩)رىـ^(٩) : التـ^(٩)رـ^(٩)ابـ^(٩) ، الـ^(٩)خـ^(٩)لىـ^(٩) : الـ^(٩)رـ^(٩)يـ^(٩)نـ^(٩)ةـ^(٩) ، يـ^(٩)تـ^(٩)كـ^(٩)سـ^(٩)رـ^(٩) : يـ^(٩)تـ^(٩)شـ^(٩)ىـ^(٩) .

(٢) بـ^(٩)ذـ^(٩)لـ^(٩)تـ^(٩) : اـ^(٩)مـ^(٩)تـ^(٩)شـ^(٩)تـ^(٩) .

(٣) الـ^(٩)هـ^(٩)شـ^(٩)ائـ^(٩)مـ^(٩) جـ^(٩)عـ^(٩) هـ^(٩)شـ^(٩)يمـ^(٩) وـ^(٩)هـ^(٩)وـ^(٩) النـ^(٩)بـ^(٩)اتـ^(٩) الـ^(٩)تـ^(٩)كـ^(٩)سـ^(٩)رـ^(٩) .

(٤) آـ^(٩)سـ^(٩)وـ^(٩)يـ^(٩) : سـ^(٩)ساـ^(٩)وىـ^(٩) أوـ^(٩)أـ^(٩)نـ^(٩)الـ^(٩)وـ^(٩)بـ^(٩)لـ^(٩) : المـ^(٩)طـ^(٩)رـ^(٩) ، المـ^(٩)عـ^(٩)نـ^(٩)جـ^(٩)رـ^(٩) : السـ^(٩)ائلـ^(٩) منـ^(٩) المـ^(٩)طـ^(٩)رـ^(٩) .

(٥) الـ^(٩)فـ^(٩)ضـ^(٩)ارـ^(٩) : الـ^(٩)خـ^(٩)صـ^(٩)بـ^(٩) وـ^(٩)الـ^(٩)سـ^(٩)عـ^(٩)ةـ^(٩) ، يـ^(٩)قـ^(٩)طـ^(٩)رـ^(٩) : يـ^(٩)سـ^(٩)كـ^(٩)بـ^(٩) الـ^(٩)مـ^(٩)اءـ^(٩) .

(٦) الغـ^(٩)يـ^(٩)ثـ^(٩) : المـ^(٩)طـ^(٩)رـ^(٩) ، الـ^(٩)أـ^(٩)نـ^(٩)وـ^(٩)اعـ^(٩) : تـ^(٩)جـ^(٩)مـ^(٩)عـ^(٩) الـ^(٩)أـ^(٩)مـ^(٩)طـ^(٩)ارـ^(٩) .

(٧) الـ^(٩)الـ^(٩)امـ^(٩)ةـ^(٩) : الـ^(٩)شـ^(٩)عـ^(٩) الـ^(٩)مـ^(٩)جاـ^(٩)رـ^(٩) شـ^(٩)حـ^(٩)مـ^(٩)افـ^(٩)اـ^(٩)للـ^(٩)ثـ^(٩)رىـ^(٩) وـ^(٩)هـ^(٩)يـ^(٩) الـ^(٩)أـ^(٩)رـ^(٩)ضـ^(٩) جـ^(٩)ازـ^(٩)اـ^(٩) .

(٨) الـ^(٩)حـ^(٩)جـ^(٩)ةـ^(٩) : الـ^(٩)مـ^(٩)رـ^(٩)ةـ^(٩) وـ^(٩)الـ^(٩)سـ^(٩)نـ^(٩)ةـ^(٩) .

(٩) يـ^(٩)عـ^(٩)مـ^(٩)رـ^(٩) : يـ^(٩)عـ^(٩)يـ^(٩)شـ^(٩)رـ^(٩)اـ^(٩) .

(١٠) سـ^(٩)مـ^(٩)جـ^(٩)تـ^(٩) : قـ^(٩)بـ^(٩)حـ^(٩)تـ^(٩) .

(١١) تقـ^(٩)ضـ^(٩)يـ^(٩)اـ^(٩) : تـ^(٩)تـ^(٩)بـ^(٩)عـ^(٩) آخرـ^(٩) .

نريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقر (١)
 دنيا معاش للورى حتى إذا حل الريبع فإنما هي منظر
 نوراً تكاد له القلوب تنور (٢)
 أضحت تصوغ بطنها لظمه رها من كل زاهرة تفرق بالندى
 فكأنها عين إليك تحدر (٣)
 عذراء تبدو تارة وتختهر (٤)
 حتى غدت وهداتها ونجادها فترين في حل الريبع تبخر (٥)

إن الريبع سحر وشباب . وروعه وجال . ونور ونور . وورد وزهر ،
 وطبيعة طلقة متفتحة ، وحياة فتية متتجدة ؛ والريبع دائمًا قد ألهم الشعر
 روائع القصائد ، وغرر الفرائد والقلائد فلا بدح أن يلهم الشاعر
 العربي الكبير الخالد أبو تمام فينطلق بهذا الوصف الرايع الجيل .

يقول أبو تمام : إن الدهر بمقدم الريبع رقت حواشيه فهي تهابيل ،
 والثرى امتلاً زهوراً ونباتاً فهو تهابيل بتاهيلها .

والريبع قد اشتراك في ميلاده مقدمة المصيف الحسينية ويد الشتاء
 الجديدة التي لا تكفر . فلو لا غراس الشتاء الذي قدم بكفه له بالماء
 والغفاء لما أمر الريبع زهراً وروحاً وريحاناً ، ولرعي الناس في المصيف
 هشام لاتنتبه ولا تتمر .

وكم ليلة أعطى الريبع البلاد فيها بنفسه وجوده ، وكم يوم أغدق على

(١) شابه : خالقه ، الربى : التلال . (٢) النور الزهر .

(٣) ترقق : تحرى جرباً سهلاً ، تحدر : تسكب الدمع .

(٤) الجيم : النبات المنعلى الأرض ، العذراء : البكر ، تختهر : تستحي .

(٥) الوهادات : المتخفصنات . النجاد : المرتفعات ، الفتنة : الطائفة ،
 الحلل : الشباب ، تبخر : تهابيل .

الحياة والناس المطر والماء فتقلب الأرض على يديه من صحو إلى غيم ومطر، ومن مطر إلى صحو مشرق فتأن نظر يكاد من خصبه يسيل الماء، فالأرض بالربيع في غيدين : غيث ظاهر هو المطر المنسكب ، وغيث خفي هو الصحو غب المطر الذي تمتليء الأرض فيه بالنبات والزهور ، وفي الربيع يتتساقط الندى على وجه الأرض حتى ليظن أن السحاب مطرها مطرا خفينا .

ثم يخاطب الشاعر الربيع الذي صادف بدؤه في التاسع عشر من ذى الحجة أو في عام ٢١٩ هـ . فيقول له : إنك حقا للربيع الأزهر المشرق الجميل .

ويذكر الشاعر أن الربيع سوف ينتهى وحسناته سوف يتبدد ، وجماله سوف ينقض . فيقول في أسف : إن الدهر ما كان يسلب بهجته لو أن حسن الرياض كان دائماً أبداً لا يزول ولا يحول .

ثم يقول الشاعر إن من الأشياء ما إذا ناله تغيير قبح وصار دميا ولكن حسن الأرض وجمالها في تغيير الفصول من شتاء إلى ربيع إلى صيف نحريف ، والفصل تسير حتى تكتمل بالربيع ، الذي تكتمل به الأرض بهجة وجala .

ثم يخاطب صديقه المتخلين فيقول لها : لو أنسكتها النظر لرأيتها كيف تنتقل الأرض من حالة إلى حالة وكيف تبدو كل يوم بوجه جديد ، والذي يمنع النظر للطبيعة في الربيع يعجبه هناظر شعاع الشمس الذي يتتساقط بالنهار على الزروع وعلى زهور الربى ، فيبدو النهار وكأنما هو ليل مقمر منير .

وما أروع منظر الدنيا في الربيع ، إنها قبله دنيا معاش وسمى للناس ، فإذا حل الربيع فإنها تنقلب فتصبح دنيا جمال وبهجة وسرور ومتعة خالصة .

وما أروع منظر الزهور بين الحشائش والنباتات حيث تبدو نارة وتحجبها النباتات أخرى ، فكأنها عذراء تظهر حماسن وجهها نارة ، ثم تختفي نارة أخرى ، وما أبدع ما اكتسبت به هضاب الأرض ووهادها من نبات وحشائش حتى لتبدو وكأنها فتنان وجماعتان تهاليان في حلل الربيع . حيث تأخذ بطنها تخرج على ظهرها الوجه الأرض والزرع والنبات الذي تسکاد القلوب تدور به ! وعجب لما تخرج له الأرض في الربيع من زهرة ترقق بالندى فتفتح ويساقط من فوقها حتى لاظنها عينا تطار عليك وترنو إليك . وهكذا يصف أبو تمام الربيع وأثره في إيقاظ الطبيعة ، وإحياء الأرض وما تمتليء به الدنيا فيه من جمال ونيرة وحسن ساحر .

وفي أسلوب أبي تمام كثير من ألوان الصناعة الشعرية ، وكثير من صنعة البديع من طباق وجناس ومقابلة وسواما ، وذلك فن اشتهر به أبو تمام ، وتتفوق فيه . ولغة أبي تمام هنا حسنة وألفاظه فيها بعض الغرابة : ومن بين ألفاظه لفظة « مشتعجر » .

ووصفه للربيع في جملته وصف مظاهره المادية الخارجية .

والصنوبرى (١) في الربيع :

إن كان في الصيف ريحان وفاكهه والأرض مستوقد والجو تدور وإن يكن في الخريف النخل محترقا فإن يكن في الشتاء الغيث متصلما ما الدهر إلا الربيع المستئير إذا تبارك الله ما أحلى الربيع فلا تغير فقايسه بالصيف مغرور والصنوبرى من كبار شعراء الطبيعة في الأدب العربى ، يجمع إلى ذلك ولو عا شديدا بالسماء والضياء والمواء ، مع التطلع إلى أسرارها الجليلة ، وكان كشاجم صديقا له .

(١) ٦١ : فرات الوفيات لابن شاكر .

الصيد والطرد :

من باب الوصف شعر الطرد والصيد ، وقد كثُر في العصر العباسي الصيد ووصف افتراسه ، وكان مأولاً فـا ببساطة في الشعر الجاهلي لأنَّه كان مأولاً فـا في الحياة الجاهلية الساذجة ، وفي شعر النابغة مثلَ كثيرة له ، وكذلك عند بعض الشعراء سواء : وفي العصر الإسلامي هجر الناس الله وعاشوا حياة كلها جد وإقدام ونشاط وعمل ، فانصرفوا عن الصيد إلا لليلة منهن كـالشعر دل ابن شريـك^(١) فـله في الصيد والطرد أراجـيز حـسان^(٢) .

وفي العصر العباسي نـبغ أبو نواس في الطرد وكـاد أن يخلق هذا الباب خلقـاً جديـداً ، فـنظم الأراجـيز في وصف كلـب الصيد : وـآلاـته وافتـراسـه ووصف الرحلـات التي كان يـقوم بها للـصيد وـاشـتـهـر بالإـجـادـةـ فيـ هـذـاـ الـبـابـ وـعـكـفـ عـلـيـهـ تـجـويـداًـ وـتـجـديـداًـ وـلمـ يـتـابـعـهـ أـحـدـ منـ الشـعـرـاءـ بـعـدـ فـيهـ إـلـاـ إـنـ المـعـتـزـ الـذـىـ اـشـتـهـرـ بـالـصـيدـ وـالـطـردـ شـمـرـةـ أـبـيـ نـوـاسـ^(٣)ـ ،ـ وـيـشـيدـ بـطـرـ دـهـماـ الـحـائـمـيـ فـيـ مـنـاظـرـ تـهـ لـلـمـتـبـنيـ^(٤)ـ ،ـ وـلـلـنـاشـيـ مـ ٢٩٣ـ طـرـديـاتـ عـلـ أـسـلـوبـ أـبـيـ نـوـاسـ^(٥)ـ .

وقد وصف "شعراء الصيد ورحلاته وآلاته من كلـب وفهمـ وبرـاةـ وغرـبانـ وصـقـورـ وسـواـهـ منـ أـسـاحـةـ ،ـ وـوـصـفـ لـذـاتـهـ بـهـ وـلـوهـ فـيهـ ،ـ كـلـ ذـلـكـ فـيـ قـصـائـدـ يـغـلـبـ أـنـ تـكـونـ مـنـ الرـجـزـ وـيـغـلـبـ عـلـيـهـ صـبـغـةـ الغـرـيبـ ،ـ وـهـيـ مـعـ ذـلـكـ

(١) شاعـرـ إـسـلـاميـ مـنـ بـنـيـ غـطـفـانـ وـكـانـ شـاعـرـ فـصـيـحاًـ وـفـارـساًـ شـجـاعـاـ (٣٦٦)ـ ـ شـرـحـ الـخـامـسـةـ .

(٢) ١٣٩ـ المـؤـلـفـ . (٣) ٢٨٠ـ :ـ ٢ـ الـعـمـدةـ ،ـ ١٢٥ـ :ـ ٢ـ الـرـافـعـيـ .

(٤) ٥٠٩ـ :ـ ٦ـ مـعـجمـ الـأـدـبـاءـ .

(٥) ٤٧١ـ :ـ ١ـ وـقـيـاتـ الـأـعـيـانـ .

جميلة ساحرة دقيقة الوصف والتصوير والتشبيه ، وطرديات ابن المتن هي
الباب السابع من ديوانه ، وفيها كثير من الصور البيانية الجميلة والتشابه
الساحرة البديةع ما يرفع من مكانته في هذا الفن الذي لا ينطق فيه إلا القليل
من الشعراء ، يقول يصف كلبة الصيد :

لما تعرى أفق الضياء مثل ابتسام الشفقة اللبياء
وشحطت ذوانب الظلام قدنا لعين الوحش والظباء
داهية مذورة اللقاء تحملها أجنهة المواء
أسرع من جفن إلى إغضاه موئق الأعضاء
كأثر الشهاب في السهام ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء كوردة السوستنة الشملاء
ذا برئ كثقب المخاء ومقلة قليلة الأذاء
صافية ك قطرة من ماء

ويقول :

لما غدونا بسحر نأخذ أرضاً ونذر
وقام رام فابتدر أوت قوساً وحسر
إذا دمى الصف انتشر فارتاح من حسن الظفر

ويصف كلاب الصيد فيقول :

عواصف مشابهات للأمد لما عدون وعدت خيل الطرد
ـ بلخ نهاية الجودة في تشبيهها بالعواصفـة ، ويشبهها بزوبعة
ـ الريح فيقول :

وزوبعة من بنات الرياح زريك على الأرض شدا عجب

لما مجلس في مكان الرديف كتركية قد سببها العرب

وقال في البازى :

يحر أعناق الرياح حرا
وسمامها بضنا ونقدا وخراء
يطلب في رؤوسهن كنزا

والبيت الأخير في نهاية الروعة والجودة ، ويقول في كلبة صيد :

وكلبة غدا بها فتیان أطبقهم من يده الزمان
 كأنها إذا تمطت جان والنجم في مغربه وسنان
 والصیح في مشرقه حیران كأنه مصیح عربان
 فستجد روعة لا يماثلها روعة في التصوير والوصف .

الخزيات :

ومن الوصف شعر الخزيات ، وهو كثير في العصر العباسي ووصف الخز وحالاته قديم في الشعر العربي ، وكانت الأعشى إمام هذه الصناعة في الجاهلية ^(١) ، ومن آلموا بوصفها عمرو بن كلثوم في معلقته ، وبعد عمده الجاهلي اشتهر بوصفها أبو محجن الثقفي ^(٢) وعمرو بن حسان بن هاني ^(٣) ويزيد بن معاوية ^(٤) والوليد بن يزيد ^(٥) وقد ذهب به الشراب كل

(١) ٢٤ حلبة الكميّت النواجي . (٢) ١٦٢ الشّعر والشّعرا .

(٣) ٢٣٢ معجم الشّعرا .

(٤) ٣٤٢ و ٩٧ حلبة الكميّت ، وله فيها أشعار (٤٠ و ٤٠ و ٤٨ و ٤٢ و ١٣٩ و ١٢٢ و ٩٧) وربما كان ذلك من دعایة خصومه السياسيين .

(٥) ٩٨ حلبة الكميّت ، والأغافى .

مذهب (١) ، ثم أبو المندى (٢) .. وجاء العصر العباسي وأغرق الشعراء في وصف الخمر ، وبالغوا في ذمها وأسرفوا في الحديث عنها ، والدعوة إليها ، وجعلوا القصيدة وقفا على هذا الفن أو استهلوها بتحسين شربها ، بدلا من وصف الأطلال . أما قبل هذا العصر فلم يكن واصف الخمر فناً مستقلاً من قتون الشعر . وكان الشعراء يلمون بها [لما]ما ، ويتحدثون عنها في غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو المندى عبد المؤمن بن عبد القدس الرياحى من مخضري الدولتين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخاق ، مدمناً للخمر ، فأخذ يشيد بها ويحضن عليها ويزينها للناس ، كافى قوله :

قل للسرى أبى قيس أنه جرنا ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقها أبدا
ولا نسيت حياما ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس وندهاوه ، فقدموها في المطالع ، وأفردوا لها القصائد ، وأمعنوا في نعتها ما وسعهم الإمعان ، وأغرقوها في مدحها ما وجدوا السبيل إلى الإغراق ، وأكثروا من القول فيها حتى غلت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله أبو نواس فيها بضعة آلاف من الآيات .

ومن فرائنه الخيرية :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليل ولم أنم (٣)
فاسقني البكر التي اختمرت بخمار الشيب في الرحم (٤)

(١) ٤ العقد ، وراجع ترجمته في مذهب الأغان (٥٧ - ٩٢ : ٧) ، والوليد هو الذي جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها وأحبارها واغاثتها (١٣٤ فهرست) .

(٢) ٢٢ و ٩٦ حلبة المكبيت ، ٤١ : ٢ الكامل ، ٣٢٢ : ٤ العقد ، ٥٨ - ٦١ طبقات الشعراء لابن المطر .

(٣) حكم : مخلاف من بين ينسب إليه أبو نواس .

(٤) خمار الخمر ما يعلوها من الزبد .

ثُمَّتْ انصات الشِّباب لها
فُوكِي لليوم الذي بزلتْ
وهي ترب الدهر في القدم (١)
عتقت حتى لو اتصلتْ
بلسان ناطق وفم
لاحتبت في القوم مائلة
ثم قصت قصبة الام
قرعتها بالمزاج يد
خلقلت لسيف والقلم
في ندامى سادة زهر
أخذوا اللذات من أم
فتحمشت في مفاصلهم
كتمشى البرء في السقم
فعلت في البيت إذ مرجتْ
مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها
فاهتدى سارى الظلام بها

ولابن طباطبا (٥٣٥٢) :

والطل منها على الأشجار منتشر
أأترك الشرب والأنوار دائمة
والورد في العود مطوى و منتشر
والفصن يهتز كالنشوان من طرب
كأنما الولم في عيني منتشر (٢)
لا ، والتي تركتني يوم فرقها
وهذه هي سينية أبي نواس المشمورة في وصف الخمر، قال أبو نواس في الخمر:
ودار ندامى عطلوها وأدخلوها
بها أثر منهم جديده ودارس (٤)
وأضفاث ريحان : جنى و يابس (٥)
مساحب من جر الزفاف على الثرى

(١) انصات أجاب . (٢) بزلت بالجهول صبت وسالت .

(٣) ٤٩ المغرب لأن سعيد .

(٤) الندائى جمع ندامان جليسك على الشراب . عطلوها أخلوها ، والإدلاب
السير أول الليل ، والدارس البالى . يريد الشاعر داراً اجتمع فيها بصحبه وشربوا
فيها الخمر ثم تركوها فيها آثاراً جديدة وقد يدعا بالآية .

(٥) الزفاف جمع ذق وعاء الخمر . الثرى التراب الندى أراد الأرض ،
والأضفاث جمع ضفت الحزمة من العشب ، والمعنى الحديث العهد بالقطع . وهذا
البيت بيان الآثر الذى تركوه من الخطوط على الأرض من جر الزفاف ومن حزم
الرياحين اليابسة لطول العهد على قطعها والحديثة التى قطعت لوقتها .

جُبِسْتَ بِهَا صَبْرِي وَجَدَدْتَ عَدْمِ
وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تَلْكَ لَحَابِسٍ^(١)
تَدُورُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجُدِيَّةٍ
جَبَنْتَهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسٍ^(٢)
قَرَادَنْتَهَا كَسْرِيَ ، وَفِي جَنْبَانْتَهَا
مَهَا تَدْرِيَهَا بِالْقَسْيِ الْفَوَارِسِ^(٣)
فَلَلْخَمْرُ مَازَرَتْ عَلَيْهِ جَيْوَبِهِمْ
وَلِلْمَاءِ مَادَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسِ^(٤)

دراسة هذه القصيدة :

أقام أبو نواس أيامًا في رفة كريمة عليه يستمدون في ظل عيش دخني ،
وحياة خالية من المعموم ، تدار عليهم الخمر في كشوس ذهبية فأراك صورة
الشرب يتتساقيون الكشوس ويتهادون بالرياحين وقد ذبل بعضها وبقي بعضها
غضاظاً جديداً كعمر الشاربين به ، وأراك الكشوس الفارسية وقد تأنق
صافعواها فزيتها جمالاً ، وهذه صورة كسرى في قراة الكأس
وفي جوانبها فوارس تصطاد الوحش ، وأراك مقدار الخمر في الكشوس
وكبة الماء فيها .

(١) يريد أنه ألم من صحبه هذه الدار حيث توفروا على اللهو والشراب
وأعادوا العهد على مثل هذا العبث ، وهو حريص على أمثال هذه شديدة الاهتمام بها .

(٢) الراح الخمر . والعسجدية منسوبة إلى المسجد أى الذهب ، والمراد أن
الكأس منهبة ، وحبها منحها . وفارس : الدولة المعروفة .

(٣) قراراتها أسفلها ، واليها جمع مهابة البقرة الوحشية . وادرى الصيد ختلها .
والقسى جمع قوس . والفوارس جمع فارس راكب الفرس . والمعنى أن الكأس
محلاة بصورة كسرى في أسفلها ، أما جوانبها فحلاة بصورة فرسان ينتزرون غفلة
المها ليرموها بسهام أقواسهم .

(٤) الجيب طوق القميص . والقلانس جمجم قلسوسة ، يقول : إنهم كانوا
يسربون الخمر على وجوههم ، يصيرون الخمر حتى تبلغ أعناق صور الفوارس ثم يرمي جوانبها
بالماء حتى تغلي رؤسهم .

و هذه القصيدة تصور لك ثورة أبي نواس على القديم فهو فيها لا يك
طللا ولا يقف على رسم ، إنما يك داراً للهو والمجون قضى فيها أياماً ثم زكرها
وفي نفسه حنين إليها وشوق إلى استعادتها مثلها . وقد كان أبو نواس ينسى
على المقلدين من الشعراء وصفهم لحياة البدائية وهم يعيشون في حياة حضرية
بلغت الذروة في الرق الاجتماعي والثقافي .

و شاعرية أبي نواس كما أبدو في هذه القصيدة قوية فياضة متأججة
الشعور مضطربة العاطفة ، ملتهبة الإحساس ، والشاعر هنا مؤمن بالتجديد
حرirsch عليه يسير على أسلوب القصيدة العربية ومنهجها في شعره في كل
شيء؛ إلا في عرض قصيده ، الذى كان جله في وصف المثلث ، والدعوة إلى
ترك مساملة الأطلال .

و قد كان أبو نواس مفخرة من مفاخر العربية وأدابها ، وكان شعره
من أقوى مظاهر التجديد في الشعر العباسي ، لذلك عذر أنس مدرسة من
مدارس المحدثين بعد بشار ومدرسته الشعرية . وقد جمع أبو نواس في
شعره خلاصة من معانٍ شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ،
وأضاف إليها صوراً جديدة من معانٍ المبتكرة ومعانٍ الذين عاش بينهم
من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن الأمم شئ ،
 وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وأدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من
تباح في الجد والهول ، وأشهر من حاكاه شاعرنا منهم وصب على قوالب
معانيه : بشار بن برد . وقد كانت أكثر معانٍ أبي نواس المبتكرة وتشبيهاته
البدائية في الخزيات التي فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأنخطل
والوليد بن زيد فيما سبب إليه من الخزيات إن صدق أو كذبا ؛ ثم في الغزل
بالمذكر ، ولاغرابة في ذلك فنه وعن شيطانه والبه شاع هذا النوع وذاع ،
ومن معانٍ استمد شعراء المؤلفين بعده . على أن له في الأغراض الجدية
معانٍ لم يحتملها شاعر ، كما أن له فيها وفي غيرها معانٍ مبتكرة .

والمشهور عنه في قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلاً ثم ينحى عليها بمحنة الردىء والمكرر ، وبالنهذيب والشقيف حتى تصير كلها عيوناً . فهو من أمثال زهير والخطيب والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة . وكان إذا مدح أصدقائه ومن له عليه دالة راعي أسلوب الحضريين : دماتته ولينه ورقة نسجه . ومهد للديج بذم الديار والأطلال والنوق وأجمال ، ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستئناع الأغانى ومبادرتها الرياض ونحو ذلك ، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد . وكذلك كان يرقق القول في المقطوعات والخزيات ، ويسفر إلى أن يقارب .

الحكمة :

الحكمة هي آثار التفسير في الإنسان والمجتمع والوجود والحقائق والأشياء وهي ثمرات العقل الإنساني والإحساس الفكري بالحياة .

والحكمة قديمة في الشعر العربي تتجدد في الجاهلية في شعر زهير وأضرابه وفي الإسلام في شعر كعب الغنوى ^(١) وكثير من الشعراء ، وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور شاعراً ذا حكمة في شعره ^(٢) .

وكان عمران بن حطان أشعر الناس في الزهد ^(٣) ، وكان القطاumi كثير الأمثال في شعره ^(٤) وكان أبو بكر بن محمد بن عبيد الله الكوفى جل أشعاره آداب وأمثال وأدرك الدوتيين ^(٥) . ثم جاء عصر المحدثين ،

(١) كان يقال له كعب الأمثال لكثره ما في شعره من الأمثال (٤١ معجم الشعراء) . (٢) المؤتلف للأمدى .

(٣) ٩١ المرجع .

(٤) ٢٤٤ معجم الشعراء .

(٥) ٤١ المرجع .

فأكثروا من الحكمة كصالح بن عبد القدس وأبي العتاهية ومحمود الوراق، كان صالح من الشعراء الفلاسفة وجميع شعره في الحكمة والأمثال، وكان مذهب مذهب السوفيه طائحة الذين يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها وله كتاب سماء الشكوك^(١) وكان أبو العتاهية لا يكاد يخل شعره مما تقدم من الأخبار والأثار^(٢)، وأكثر شعره في الرزق والأمثال^(٣)، وكان أكثر شعر محمود الوراق أمثلاً وحكماً ووعاظ، وليس يقتصر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدس^(٤). ولابن نعام كثير من الحكم الاجتماعية في شعره.

وكانت الحكمة في العصر الجاهلي مستمدّة من تجارب الشاعر وآرائه الخاصة في الحياة، وفي العصر الإسلامي كثرت الحكمة وتوسعت بما دخلها فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما في التفكير والأخلاق والمجتمع، وفي بدء عصر المحدثين أضيف إلى تلك العناصر الحكمة الفارسية التي احتذّا بها الشعراء ونظموا كثيراً من معانيها، ثم جاءت الفلسفة والحكمة اليونانية، فلقيت العقول بلقاح جديد ظهر أثره في هذا الفن في العصر الثاني على يد أبي تمام م ٢٣١ هـ، وابن الرومي م ٢٨٣ هـ والناثي، الأكبر ٥٢٩٣ هـ المتّبني والمعرى.

ويصف المتّبني الحياة والناس فيقول في حكمة عالية^(٥).

(١) ١٣٣ و ١٣٣ ج ٣ الرافعى .

(٢) ٢٣٨ ج ١ الكامل للعبّار .

(٣) ١٢٢ ج ٤ الأغانى .

(٤) ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتر .

(٥) المتّبني شاهد أواخر العصر العباسي الأول وأوائل العصر العباسي الثاني فهذا مختصر .

صحاب الناس قبلنا ذا الزمانا وعنام من شأنه ما عنانا
وتولوا بقصة كلام منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنبع لبساليه وأسكن تكدر الإحسانا
وكأنما لم يرض فينا برب الد
ركب المرء في القناة سنانا
كلما أنبت الرمان قناة
ومراد التفوس أصغر من أن
غير أن الفتى يلقي المنايا
كالحات ولا يلاق الموانا
ولو ان الحياة تبقى لحي
لعدنا أضلنا الشجعاننا
فن العجو أن تكون جبانا
وإذا لم يكن من الموت بد

الزهد :

وهو فن جديد نشأ في الشعر العباسي بتأثير كثرة الترف ، والدعوة
إلى الرجوع إلى البساطة ، وتغليب النظر إلى جانب الفقراء ، ونقد المجتمع ،
على أن في شعر الزهد جانبًا من جوانب الدين الذي يوجب البساطة في كل
شيء ، ومن شعراه الزهد في هذا العصر : أبو العتاهية ، وصالح بن عبد
القدوس ، وأبان بن عبد الحميد السكاكن ، الذي نظم كتاب كليله ودمنة
للسمر والموعظة ، وقد أخذ الشعراء ينظمون في هذا الباب وإن لم يكن
لهم فيه مضماد ، كأبي نواس وغيره .

ونماذجه في ديوان أبي العتاهية كثيرة ، فقد أكثر أبو العتاهية في شعره
من الدعوة إلى الزهد والرغبة عن الملاذات والانصراف عن الدنيا ،
 فهو يقول في شعره :

رغيف خبز يابس تأكله في زاوية
وكوز ماء بارد تشربه من صافية
وغرفة ضيقة تنسل فيها خالية
أو مسجد بمعزل عن الورى في ناحية

تدرس فيه دفترا مستندا
خير من الساعات في فن القصور العالية
ومع ذلك فقد كان في ثراء عريض^(١).

ويقول أبو العناية يخاطب الخليفة ، مصورا في شعره للغلام
في بغداد :

من مبلغ عن الإمام نصائحه متواالية
إني أرى الأسعار أسمار الرعية غالبة
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية
وأرى غنوم الدهر رائحة تمر وغاذية
يرجون رفك كي يروا عما لقوه العافية
من يرتخي للناس غير ك للعيون الباكية ؟
من مصبات جوع تمسى وتصبح طاوية
من يرتخي لدفاع كرب ملة هي ماهية ؟
من للبطون الجائعا ت وللجسم العارية ؟
يا ابن الخلائق لا فقدت ولا عدلت العافية
إن الأصول الطيبة ت لها فروع زاكية
أقيمت أخبارا إيلك من الرعية شافية^(٢)

(١) راجع ١٣٩ و ١٥٣ ج ١ ضي الإسلام .

(٢) ٣٠٤ ديوان أبي العناية .

الفخر :

١ - يرى ابن رشيق أن الفخر هو المدح نفسه ، ولكن الشاعر ينصل نفسه وقومه^(١) ، ويراه أديب محدث تأريخاً لفضيلة الفرد والجماعة^(٢) ، وفي الحق أن الفخر إشادةً لشاعر بنفسه أو قومه وتنويعه بأدبه أو حسبيه ، ولا يدعوه إليه عاطفة الآثرة والأنانية في كل وقت ، بل قد يكون الشاعر مضطراً لأن يساجل خصوصه ويسجل على أعدائه ما يحقّ عليهم من صفاتهم وأدابهم ، أو ما يجدونه من مآثره وفضائله ، وليس من شك في أن حب النفس عاطفة من العواطف ، وأن الشعر مجال للعواطف الشخصية والإنسانية جمعياً ، والذي نطالب به الشاعر حين يفتخر هو الصدق والتجرد عن مظاهر الكبريات وتشيل الحقائق الواقعية التي لا تذكر إلى الحين بل إلى الواقع نفسه في تصورها وتصویرها .

والشعراء المحدثين ، ولا ينبع المعتر من بين المحدثين مجال كبير في الفخر ، وشعره فيه كثير ، ويشيد بفخره الأدباء والنقاد جمعياً ، فيذكره ابن شرف منها بافتخاراته الملكية وهماه العلوية^(٣) ، ويقول البافلاني : وتبعد لابن المعتر في موقع شعره من القلب في الفخر وغيره ما لا تجد لغيره لأنه إذا قال :

إذا شئت أورقت البلاد حواfra وسارت ورأي هاشم ونزار

أو قال :

قد ترديت بالسکارم دهرا وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش إذا غدوت وحيدا ووحيد في الجحفل الجرار

أو قال :

أيها السائل عن الحسب الا طيب مافوقه لحق مزيد

(١) ١٣٦ ج ٢ العدة . (٢) ٩٩ ج ٣ الرافعى .

(٣) ٢٤٩ رسائل البلغاء .

نَحْنُ أَلِ الرَّسُولُ وَالْعَزَّةُ
الْحَقُّ وَأَهْلُ الْقَرْبَى فَمَاذَا تَرِيدُ؟
وَلَنَا مَا أَضَاهَ صَبَحَ عَلَيْهِ
وَأَتَهُ رَأِيَاتُ لَيلِ سُودٍ
وَيَقُولُ مَنْ قَضَيْدَةَ لَهُ :
وَأَسْمَرَ لِلْمَجْدِ وَالْمَكْرَمَاتِ
إِذَا اكْتَحَلَتْ أَعْيَنِ بَالْسَّكْرَى
فَانْظُرْهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ كُلُّهَا ، ثُمَّ فِي جُمِيعِ شِعْرِهِ ، تَعْلَمُ أَنَّهُ مَالِكُ الشِّعْرِ ،
وَأَنَّهُ يُلْبِقُ بِهِ مِنَ الْفَخْرِ خَاصَّةً ، ثُمَّ مَا يَتَبَعُهُ مَا يَتَعَاطَاهُ مَا لَا يُلْبِقُ بِغَيْرِهِ بَلْ يَنْفَرُ
عَنْ سَوَاءِ (١) .

وَلَابِي نُواصِ (٢) فِي عَزَّةِ النَّفْسِ وَهُوَ مِنَ الْمَعْانِي الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفَخْرِ ،
وَالْأَيَّاتُ عَالِيَّةُ الطَّبْقَةِ فِي الْبَلَاغَةِ ، وَيَصُفُّ فِيهَا أَبُونَا وَاسِ انْفَعَالَتِهِ النَّفْسِيَّةُ
وَصَفَارَانِعًا :

وَمُسْتَبْدٌ إِخْرَانَهُ بِثَرَانَهُ لَبَسَتْ لَهُ كَبْرًا - أَبْرَ - (٣) عَلَى كَبْرٍ
إِذَا ضَمَنَ يَوْمًا وَإِيَّاهُ مَخْفَلٌ بِرِّي جَانِبِي وَعَزَّاً (٤) يُزَيِّدُ هَلِ الْوَعْرُ
أَخَالِهِ فِي شَكَلِهِ ، وَأَجْرَهُ (٥)
عَلَى الْمَطْقَ المَنْزُورِ (٦) وَالنَّاظِرِ الشَّرَرِ (٧)

(١) ٢٠٩ و ٢١٠ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ.

(٢) مِنْ شِعْرِهِ الدَّرْلَةِ الْعَبَاسِيَّةِ (١٤٥ - ١٩٨ - ٥) .

(٣) أَبْرُ (فَعْلُ مَاضٍ) فَيَكُونُ مَعْنَاهُ غَلْبٌ وَقُبْرٌ ، وَيَصُحُّ أَنْ تَكُونَ أَنْعَلُ
تَفْضِيلٍ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ أَعْظَمُ قَهْرًا وَغَلْبَةً . وَالْمَعْنَى مِنْ يَتَخَذُ غَنَاءً وَسِيَّةً لِاستِبْدَادِ
إِخْرَانِهِ ، وَتَكْبِرَهُ عَلَيْهِمْ - فَإِنَّ أَلْبِسَ لَهُ كَبْرًا يَغْلِبُ كَبْرَهُ وَيَقْهِرُهُ ، أَوْ كَبْرًا أَعْظَمُ
قَهْرًا وَغَلْبَةً مِنْ كَبْرِهِ . (٤) صَعِيْاً .

(٥) أَطْعَنَهُ ، أَوْ أَقْطَعَ لِسَانَهُ . (٦) الْقَلِيلِ .

(٧) النَّاظِرُ الشَّرَرُ مَا يَكُونُ بِجَانِبِ الْعَيْنِ ، بِعَصْنِا وَإِعْرَاضِا ، وَمَعْنَى الْبَيْتِ
أَنَّ أَخَافَ الْفَنِيَّ الْمُتَجَرِّفَ فِي كُلِّ مَا يَكُونُ مِنْهُ ، وَأَقْطَعَ لِسَانَهُ وَأَوْذِيَهُ ، لَمَا يَسْكُنُهُ
مِنْ قَلَةِ الْكَلَامِ وَالنَّاظِرِ الشَّرَرِ .

أراني أغناهم ، وإن كنت ذا فقر
وقد زادني فيها^(١) على الناس أ Toni
إلى أحد حتى أغيب في القبر
ففي عن جميع الناس - حسيبي من الفخر

فواله لا يبدى لسانى حاجة
ولو لم أكن فضلا لسكانى صيانتى

العتاب :

ومن نماذجه قول ابن الروى يعاتب صديقه أبو القاسم الشطري نجوى :
أين ما كان يبتنا من صفاء
غطيت برهة بحسن القاء
أمسى الظنون بالأصدقاء
يك حظا كسائر البخلاء
فيه النفس راحة من عناء
ه لدهرى قطعت متن الرجال
ى غرورا وقيت سوء الجزاء
ك لبخل عليك بالإعطاء
غضن أجهانها على الأقداء
يحمل الفتى ذرى العلية
وأبي بعد ذاك بذل العطاء
فعدا كالخلاف^(٢) يورق للعين
يا أخي أين عهد ذاك الإخاء
كشفت منك حاجنى هنوات
تركنتى ولم أكن سبى الظن
يا أخي هبك لم تهبل من سع
أفالا كان منك رد جميل
يا أبو القاسم الذى كنت أرجو
لا أجازيك عن غرورك إيا
بل أرى صدقك الحديث وماذا
أنت عينى وليس من حق عينى
ما بامثال ما أتيت من الأمر
بذل الوعد للأخلاء سمحا
وفي أبيات ابن الروى السالفة صورة لصناعته الشعرية ومذهبه في
نظم القصيدة ، فهو يعتمد على المحاجج العقلى وكثرة التسويق للمعنى

(١) كبرا .

(٢) هو شجر المقصاص .

والاشتقاق لها والزيادة فيها والدخول إلى مغالقها .. وهو لا يترك منطقاً معقولاً في عتاب صديقه إلا ذكره ، ولا باباً من الأبواب يدخل منه لتأييد حجته إلا دخل منه ، وعتاب ابن الروى هنا عتاب كله حجج وأدلة وأقىسة ، وهذا من باب المذهب السكلاوي الذي ذكره علماء البديع في الحسنيات المعنوية للأسلوب .

وألفاظ ابن الرومي عذبة سهلة وأساليبه تلمس فيها بساطة التعبير ، وصدق العاطفة وعمق التجربة ودقته في تناوله الفن لأسلوب الصياغة الشعرية ، والتشبيه التمثيلي في آخر هذه الآيات تشبيه دقق بلغ ، إذ شبهه وعد صديقه أخلاب الخادع بظهور شجرة الصفاصاف الجميل المونق ، الذي ليس وراءه ثمرة ولا فائدة .

وابن الرومي شاعر مجيد . وعلم من أعلام القراءين في القرن الثالث المجري ، ويعد في الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهي الطبقة التي كان من أبطالها : أبو تمام والبحتري وابن المعزن ، وورثت مجده الشعر بعد طبقة أبي نواس ، وكان هاماً بهجتها الأدبي الخاص ، الذي يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعانى وعمق الخيال .

ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريح الرومي عام ٢٢١ هـ ، من أبوين مختلفي الأرومة ، فأمه تحدّر من عنصر فارسي ، وأبوه ينحدر من عنصر روسي ، كان يحافظ بطبعته الشاعر ويزن به طول حياته ، كان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وولد في بغداد في دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده في طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومي في ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزوّد بقسط من ثقافة عصره . فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحيط به من العلوم والأداب ، ونسخ في الشعر ، ونظم القراءين وطارت شهرته في سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تتنعّه ، كان فقيراً يريد أن يعيش ، وجائها

يريد أن يأكل ، و ظمان يريد أن يروي ، و خلق الثياب يبحث عما يلبسه ،
و قصد بشعره رجالات الدولة في عصره مادحاً فخر موه العطاء ، فعاش ساخطاً
على الحياة والأحياء :

ف درتني أنا مقصوب وفي زمني عودي ظهيء بلا روى ولا بلل

كان شاباً جيلاً قوي الملامح ، مزوداً بشتي ألوان الثقافة ، فلم يغتنم
ذلك شيئاً في حياته ، وكان يسمع ويروي حياة الترف التي يحياها في عصره
كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظاً من النعمة ، فلم يحظ بطالع ، وهو الشاب
الذى ذاق ألم اليتم والشاعر المرهف الإحساس ، فاشتد سخطه على الناس
وأمطرهم وأبلا من أهagiه ، التي بغضته إلى السكير وزادت من آلامه
في الحياة . تووج فأعقب ثلاثة أولاد فقدتهم جميعاً . وقد بعدم أخيه ثم زوجته
وأميه ؛ فعاش حزيناً مهوماً .

وكانت هذه الحياة الحافلة بالأحداث سبباً في هذه الطيرة التي لازمت
ابن الرومي طول حياته؛ عاصراً المتصنم والواائق والمتوكل المنتصر والمستعين
والمعتز ، والمنتدى والمعتمد ، وتوفي في عهد المعتصم سنة ٢٨٣ ، أو ٥٢٨٤
كما يقول ابن خلkan .

وكان للدم الرومي وأثر الوارثة ، ولحياة الشاعر وبؤسه ، ولثقافته وبيته ،
ولشاعره المرهفة ورجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد في شاعرية
الشاعر وفنه الأدبي ، الذي كان صورة مكبلة لكل ألوان هذه الحياة ،
اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات في
نفسه وفي زمنه ، فولدت في نفسه روح السخرية ، وأشاعت في فنه هذا
اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء ، الذي امتاز به
الشاعر وأجاده ، حتى حين يهجو من لم يؤذه بشيء ، كما يقول يهجو مغنية من
قصيدة طويلة :

ومسمى لا عدلت فرقته فإنها نعمة من النعم
مجلسه مأتم اللذادات والقصص وعرس المموم والسدم
كأنني من طول ما أشاهده أشرب كأسى مزوجة بدمي
إذا الندامي دعوه آونة تادموا كأسهم على التدم

وكان لبوسه في الحياة فقد كثيرا من الأعزاء ، أثر واضح في إجادته
فن الرثاء ، وداليته في رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :

بكاؤك يشفى وإن كان لا يجدى بخودا فقد أودى نظيرك عندي

وكذلك جيميته في رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، و Mimeitha
في رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ (١) . وشفق قلب ابن الرومى
بالحياة ، ونطلاعه إلى متعها ولذاتها ، وحياته في مظاهر المضاربة التي كانت
تغمر عصره ، وأثر الوراثة في نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين في
الشعر العربى ، وقصيدته في وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجاده ،
ويقول منها :

ففؤادي بها معنى عميد ومن الطبي مقلدان وجيد فشقى بحسناها وسعيد من سكون الأوصال وهي نعيد كأنفاس عاشقها مديدة مستلذ بسيطه والشيد ما لها فيما جيحا نديد وما كل ساعة نجديد	يا خليلي تيمتنى وحيد غادة زانها من الغصن قد تتجلى للناظرين إليها تتنقى كأنها لاتنقى مد فى شارق صوتها نفس كاف ففراه يموت طورا ويحيها خلقت فتنته : فناء وحسنا هى شيء لا تسأم العين منه
---	---

(١) ذاد عن مقلتي لذيد المنام
شغلها عنه بالدموع السجام
طريقان شتى مستقيم وأهوج
، أمامك فانظر أى نهجيك تنج

منظر ، مسمع ، معان من اللهم و ، هناد لما يحب عشيد
وكذلك نونيته في يوم المهرجان مثل ساحر لوصف ابن الرومي الجيد
ومنها في وصف المغنيات وآلات الغناء اللاتي يحصلنها :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بذاتها حوافى
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى باسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها ترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روايات قصائده في الوصف والتصوير ، كما أجاد في
وصف المهرجان وفي وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ في العتاب الغائية في
الجودة ، كما في فصيدة في عتاب أبي القاسم الشاطرينجي ، التي مطلعها :
يا أخي أين عهد ذاك اللقاء أين ما كان يبتنا من صفاء
وله آيات في المدح نحو الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته في أبي
الصقر ، ومطلعها :

أجئت لك الوجه أخسان وكثبان فيهن نوعان تقاص ودرمان
ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمري ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفصيله المعنى على اللفظ كما كان المتمني ، فهو يطلب
محنه المعنى ولا يبالى حيث وقع من هجونة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن
رشيق (١) . كان بديع المعانى بعيدها ، كثير الاختراع والتوليد فيها ،
والاستقصاء لها ، لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة في تشقيق المعانى
وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية ابن الرومى ، ويقول ابن رشيق

فيه : «إنه أكثر الشعراء اختراعاً للمعاني ، أما أسلوبه فجمع بين الجيد والردي ، وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعره أقل منها في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعني به تهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أنسقط رديه لكان في ذلك أجود الشعراء ، وفي الغالب أن شعراء المعاني كابن الرومي وأبي تمام ، فلما تهض الفاظهم بأداء معانיהם ، وقد كان ابن الرومي لا يحصل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى . ومتنازع قصائده بطول النفس ، مما لا يجاري فيه إلا ابن هانئ الاندلسي ، وقد ساعدته على الإطالة أسلوبه الخاص فيتناول كل معنى من معانيه بالإضافة والشرح ، وتقليله على كل نواحيه كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في تأليفها ، حتى لسكنها نقطة واحدة ، مؤلفة تأليفاً منطقياً لاعوج فيها ولا ضعف ولا استطراد .

وخياله خيال يقظ ، حسى في غالب شعره ، يترك الحبس إلى حالم العقل أحياناً ، أو قملسة التصوير ولطف التخييل ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعراً اختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي ، أهمه صاحب الأغاني إيماناً ، يعلله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين ابن الرومي والأخفش ، مستاذ أبي الفرج ، ويععلله آخر بأن ابن الرومي كان شيئاً وأبا الفرج كان أمورياً . وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لائزلا متأجحة للهيب ، لاهاجبه في رجالات الدولة ، وأعلله أنا بأن أبو الفرج لم يرتضى مذهب ابن الرومي في الشعر ، ونهجه في نظم القريض . يقول القاضي البرجاني عنه في وساطته : «وقد تجد كثيراً ينتهي قصص ابن الرومي ، ويبلغوا في تقادمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نشعر فيها إلا باليت الذى يروق أو البيتين . ثم قد تنسلخ قصائده منه ، وهي واقفة تحت ظلهما جارية على رسليها^(١) ، لا يحصل منها انسجام إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ

(١) الرسل : التوؤدة .

منها ^(١)، ويقول ابن رشيق في عمدته : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثره اختراعه ، وحسن اقتناته ، وقد غالب عليه المجاد ^(٢) ». ويقول ابن شرف القيرواقي فيه : « وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، ولهم في المجاد ، ماليس لهم في الإطراوه ، ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن ^(٣) ». ويقول المعرى عنه في رسالة الغفران : « وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة ^(٤) »؛ ويقول فيه ابن خلkan : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويزرعها في أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبق فيه بقية » . ويقول المسعودي فيه : « كان من مختلف معانى الشعر ، والمحودين في القصیر والطویل ، وكان الشعر أقل أدواته » ، وقد أشاد به أدباء العصر الحديث وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ، ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرده ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طرفهم لأنشأهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعانى على طريقتهم ^(٥) . وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدته التي يقول فيها :

قولاً لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحام ^(٦) والخشب اليابس والشوك دونه الثر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن تصر في الشعر ، إنه بشر

(١) ٤٤ وساتة .

(٢) ٢٢٥ : ١ العدة .

(٣) دسائل الاتقاد .

(٤) ١٦٤ - ١٦١ رسالة الغفران .

(٥) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد .

(٦) قشر الشجر .

المجاه والمجنون :

كان المجاه يباعث العصبية والخصومات السياسية مأولاً في هذا العصر، يظهر في باب الشعر السياسي ، ويتجلى في ثوب التعلق القبيل ، ويستعمل في الأحقاد الشعوبية .. وهناك لون جديد من المجاه لم تدع إليه عصبية ، ولم تثره خصومة سياسية ؛ وإنما كان مرجعه إلى السخرية والتتار والتهمك ، إزاجة الفراغ وإظهاراً للبراعة في التقبیح وتوليد المعانی فيه .

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفاسد ، وذموم المثالب ، وكثرة الفجور؛ كما كان من آثارها ارتقاء الأذواق ، حتى لم تعد تسinx كثيراً من المناظر المألوفة من قبل ، أو ترضي عن كثير من العادات الشائعة حينذاك .

فلما ضعف الوازع الديني . وتوفرت أسباب الراحة ، واتسعت أوقات الفراغ ، ولأن جانب العيش . وجد الشعراء في هذه السومات والمثالب والمفاسد ، وفي تلك المناظر الشاذة ، والعادات القديمة ، مادة واسعة للمجاه ، ومنبعاً فياضاً يستمدون منه ما يتندرؤن به في مجالسهم ، ويتفكرون في أسمائهم وما يتسابقون فيه من إظهار البراعة في الوصف والإبداع في السخرية والإضحاك .

ولقد راحوا يتبعون العورات ، ويتقصون العثرات ، ويترصدون للعيوب ، ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك ، كما راحوا يذمون اللهي ، ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة ، ويستهجنون أصوات المغنين ، ويسيخرون من عادات المترمدين ، وصادروا بذلك كله في شعر متذع مضحك ، يغيريك بالضحك من التصور قبل أن يغيريك بالإشراق على من قيل فيه .

وهكذا شاع المجنون وانتشرت سمعته ، بسبب المدنية والإباحية وضعف وازع الدين ، قالوا إن مطعيم بن إمیاس مر يحيى بن زياد وحماد

ابن اسحق ، فقال لها : فيم تتحادثنان ؟ قالا : في قذف المحسنات ، فقال : أفي الأرض محسنة تقدفانها .

ومن شعر بشار يهجو بخلاء :

كان عيادةه لم يلق ماجدا ولم يدر أن المكرمات تكون
إذا جنته في حاجة سد باهه ولم تلقه إلا وأنت كين
وقال يهجو المهدي مشيرا إلى تفرد وزيره يعقوب بتدبير الأمور :
بني أمية هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن دارد
ضاعت خلافتكم يا قوم فالنسوا خلاة الله بين الزق والعود

ويقول أبو نواس يهجو بخلاء :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه
ويخرجه من كمه فيلشهه
ولأن جامه المسكين يطلب فضله
يكرب عليه السوط من كل جانب
ويقول كذلك في قدر بخلاء :

يغص بحلقوم الحرادة صدرها وينضع ما فيها بعد خلال
وتغلق بذكر النار من غير حرها

وتنتظما عفواً بغیر جمال

ويهجو البحترى الشعري بكتير الآلف فيقول :

رأيت الشعري يقل أنفأا يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صداً فقصر كل سام طبيته وغض به الهواء
هو الجبل الذي لولا ذرائه إذن وقعت على الأرض السهام
ولقد قرأتنا لابن الروى بعض صوره (الكاريبكاتورية) البارعة .

رأينا تصويره الأدّب ، فلتشهد هذه الصورة بمحظة المغنى :

رأيت جحظة يخسي الناس كلهم
إذا هم عاينوه الفاجع الذكراء
تخاله أبداً من قبح منظره
مجاذباً وترأ أو بالعما حجراً
إذا شدا نهباً أو كرر النظراً
كانه ضفدع في لجة هرم
مع قربه ماؤردننا ذلك القدراء

ويقول في صلة أبي حفص :

ياصلة لابي حفص مردة
كأن ساحتها مرآة فولاد
حتى ترن بها أكنااف بغداد
ترن تحت الأكف الواقعات بها

ويهجو عمرأ فيقول :

وجهك يا عمرو فيه طول
وفي وجوه الكلاب طول
ففيك عن قدره سفول
والكلاب واف وفيك غدر
وما تخامي عن المواشي
وقد يحامي عن المواشي
وأنت من أهل بيت سوه
قصتهم نسة تطول
ووجههم للوري عظام
ل لكن أقسامهم طبول
مستعملن فاعلن فمول
معنـى سوى أنه فضول
بيـت كعنـاك ليس فيه

ويقول :

لو أن قصرك يا ابن يوسف كله
لأبر يضيق بها فضاء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة

وهذه ليلة من ليالي أبي نواس الماجنة :

وأحور ذمي طرقت فناءه
بفتیان صدق مازى منهمون نكرا
فلا قرعنا بابه هب عائفاً
وبادر نحو الباب متلئاً ذعراً
وقال : من الطراق ليلانا فناما ؟
فقلت له افع ، فتية طلروا خمراً

وأطلع من أزواجه قرآ بدوا
يحاذب منه الردف في مشيه الخمرا
دعاني أبي (سابا) ولقبني (شرا)
نجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
معتهة قد أنددت قدمأ دهرا
قد احتجبت في خدرها حقباعشرا
إليك فسقنا نحوه خمسة صفرا
فقام إليها قد تمل بنا بشرا
فسالت تحاكى في تلائتها البдра
مدلا بأن وافي حبيطاً بها خبرا
في كانت لها قلبأ وكان لها صدرا
تخال بها عطراً وما مزجت عطرا
إلى أن تغنى حين مالت به سكرا

فأطلق عن أبوابه غير هاتب
ومر أمام القوم يسحب ذيله
فقلت له : ما الاسم حبيت قال
فشككتنا جميعاً من حلاوة لفظه
فقلت له جتناك نبتاع قمهة
فقال أربعوا عندى الذى تطلبوه
فقلت فإذا مهرها قال مهرها
فقلت له خذها وهات تعاطها
شكك باشفاء له بطن مسد
وجاء بها والليل ملق مدوله
ريبيه خدر راضها الخدر أحصرا
إذا أخذتها السكأس كادت بريحها
ومازال يسقينا ويشرب داتبا

ومن مجموعه قوله في تفضيل الغلمان :

غلاماً واحجاً مثل المها
يخداع نفسه بالزهارات
بتفضيل البنين على البنات

وعاذلة تلوم على اصطفافى
فقلت لها جهلت فليين مثل
بذا أوصى كتاب الله فيما

الرثاء :

قال أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسي :

كذا في محل الخطب، وليفدح الأمر
فليس لعين لم يغض ما وفاها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر (١)

(١) السفر : المسافرون ، يقول : إنه موته اقطعت الآمال لأن الناس
لم يكونوا يأملون إلأفيه ، وشغلت الناس الرزينة فيه عن أسفارهم وقضاء حاجتهم.

وما كان إلا مال من قل ماله
 وما كان يدرى مجتدى جود كفه
 إذا ما استهلت أنه خلق العسر
 ألا في سبيل الله من عطلات له
 بحاج سبيل الله ، وانشغر اشغر
 ففي كلما فاضت عيون قبيلة
 دماضخت عنه الأحاديث والذكر (١)
 ففي باسه شطر ، وفي جوده شطر
 قاتل مات بين الطعن والضرب ميته
 تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
 وما مات حتى مات مضرب ميفه
 من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
 وقد كان فوت الموت سهلا فرده
 إليه الحفاظ المر والخلق والوعر
 وتفس تعاف العار حتى كأنما
 هو السكفي يوم الروع أو دونه السكر
 فأثبتت في مستنقع الموت رجله
 وقال لها: من تحت إخمصك الحشر (٢)
 غدا غدوة والحمد لله رب العالمين
 فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
 تردى ثياب الموت حراً ، فادجا
 لها الليل إلا وهي من مندس خضر
 كأن بي نبهان يوم وفاته
 نجوم سماء خر من يدها البدر
 يعزون عن ثاو تعزى به العلا
 وبيك علىه البأس والجود والشعر
 وأنى لهم صبر عليه وقد مضى
 إلى الموت حتى اشتمدوا هو والصبر
 قتي كان عذب الروح لامن غضاضة
 ولكن كبرا أن يقال : به كبر
 وبرته نار الحرب وهو لها جر (٣)

(١) يقول : إنه مامن قبيلة دحرت في الحرب حتى قاض الله من عيونها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازها .

(٢) يريد أنه قد ثبت الموت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن المشر
 من تحتها .

(٣) بزته ، يقال بزه ثوبه وابتزه ، سلبه .

قد كانت "بَيْضَ الْمَاءِ نَفِيفُ الْوَغْيِ"
 بواتر ، فهي الآن من بعده بـ(١)
 يكون لأنواب الندى أبداً نشر
 في أي فرع يوجد الورق التضر ؟
 لعهدى به من يحب له الدهر
 فما زالت الأيام شيمتها الغدر
 فما هربت منها تهم ولا بكر
 يشاركنا في فقده البدو والحضر
 وقد كانت "بَيْضَ الْمَاءِ نَفِيفُ الْوَغْيِ"
 أمن بعد طل المآذنات محمدأ
 إذا شجرات العرف جنت أسموها
 أن أن بعض الدهر الختون لفقده
 أن غدرت في الروع أيامه به
 لكن ألبست فيه المصيبة طينا
 كذلك مانتفك فقد هالكا
 سق الغيث غياثا وارت الأرض شخصه

ولأن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
 ياسقها قبرا ، وفي لحده البحر
 غداة ثوى إلا اشتهر أنها قبر
 ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
 رأيت الكرم الحر ليس له عمر
 وكيف احتى للغيوث صناعة
 معنى ظاهر الأنواب لم تبق روضة
 ثوى في الثرى من كان يحيى به الثرى
 عليك سلام الله وفقا فياتي

وأبو تمام رأس مدرسة من مدارس المحدثين ؛ وهو أبو تمام حبيب
 ابن أوس الطافى ، يعد رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، وصاحب الطريقة
 التي تؤثر المعنى وتختلف به وتعتمد الإكثار من البديع انتهت إليه زعامة
 الشعر في عصره فلم يكن أحد من الشعراء يستطيع أن يجرى معه في ميدان
 وحسبك أن البحترى سئل عن نفسه وعن أبي تمام فقال : إنما أكلت
 العيش به .

ولد بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق عام تسعين وما تأة من
 الهجرة ثم انتقل إلى مصر صغيرا فسكن يسوق الماء بجامع عمرو وكان المسجد

(١) الماء نفيف : جمع مأثور ، والسيف المؤثر القديم المتوازن ، وبواتر :
 جمع باتر وهو القاطع . وبتر : جمع باتر ، أي مقطوعة .

إذاً معهداً تدرس فيه العلوم والأداب فعُكَفَ على العربية يرويها
ويدرسها حتى حفظ الكثير من شعر المرب ، ونبغ في فرض الشعر ،
ثم خرج إلى بغداد فدح المعتصم وزيره ابن الزيات والحسن بن وهب
صاحب ديوان الرسائل ، ثم لاه الحسن بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات
سنة إحدى وثلاثين ومائتين من المجرة .

وقصيده هي في الرثاء ، وهو أوسع فنون الكلام مجالاً وأحفل أبواب
الأدب بالحكمة ، وأحرى أن تجده في الخبر النادر والمثل السائر والموعظة
البالغة ، والمرثي قائد عظيم طالما خرج إلى القتال حميداً ورجع مظفراً
منصوراً ، ذلك القائد هو محمد بن حميد الطوسي من بنى نبهان قبيلة من طيء
التي ينتمي إليها الشاعر .

خرج هذا القائد لخماربة بابك الخرمي رئيس الطائفة المنسوبة إليه
الخارجة على الخلفاء ، والتي ملأت الأرض فساداً ، وامتدت ثورتها من
عهد المأمون إلى عهد المعتصم ، ولم يخالف الحفل القائد في هذه المعركة فقتل
سنة ٢٢٤ هجرية فرثاه أبو تمام بهذه القصيدة .

وقد بدأ القصيدة فعظم من شأن الخطيب ووصف العيون التي لاتفى ماء
شونها بالبخل ، ونسبها إلى التقصير ، فقد مات عميد الناس في كل نامية
وموضع آمال العفة والبايسين ، وذكر أنه مات مجاهداً فسلموه السبيل
إلى غزو البلاد وأنه طالما رجع من الغزو مظفراً منصوراً فاطلق ألسنة
الشعراء بالثناء عليه وترك وراءه عيوناً دائمة تبكي قتلها وتتعى موتها ،
وأن هذا المرثي قضى عمره بين يومين : يوم يقتل فيه الأعداء ويوم يحسن
فيه إلى الفقراء :

فيوم لإلحاق الفقير بذى الغنى ويوم رقاب بوكرت لحماد
ثم اعتذر عنه بأنه لم يقتل حتى أبل بلاء حسنا ، وحتى تعطلت آلات

القتال فثلمت السيف وتكسرت الرماح ، وكانت السبيل إلى النجاة ميسورة
والهرب من الموت ممكنا ، ولذلك آثر جيل الذكر وحسين الأحدوثة
ماضي الدهر ، ورأى صبراً على الموت أكرم ، وأن وقوف ساعة في ساحة
الموت تعقب حمدأً وتورث مجدأً :

وإذا لم يكن من الموت بد فن العجز أن تموت جبانا

لقد عاش البطل جليداً ، وغدا إلى المعركة حيداً ، وسقط في ساحة
المجد شهيداً ، فما أفق الليل إلا وهو ينعم مع الشهداء في دار الخلود .. ثم
أنقلب على عشيرته الآفرين بواسمهم فذكر أن الرزء عام والمصيبة شاملة حتى
إن الفضائل تندبه وتبكي عليه وإن كان الصبر غير مستطاع فقد ذهب بذها به
ومثله لا ينسى لأنه كان كريم النفس عظيم الخلق رضى العشرة يغضي حياء
وتواضعه .

ثم تعجب من الحرب كيف تقتل مسعاها ، ومن الفوارس كيف تفتكت
بجاميها وذكر أن آلات القتال فقدت من يحسن استعمالها ويظهر في الحروب
مزيتها ، وأن السكرم ذهب من الناس فقد قطعت أصوله . وذابت أوراقه ،
ومضى الثرى بقية الماء من العود فاصبى هشباً تذروه الرياح ، ثم وصف العيش
بعده بأنه مرا لا يطاق . والحياة بنيضة يهرب المرء منها ويتمنى الموت من أجلها ،
وقد كانت في أيامه كرية سعيدة ينعم الناس في ظلامها ويتسافون كثوس
السعادة في جنباتها . لكنها الأيام لا تؤمن بفتحتها ولا تدوم حبرتها .. ثم ذكر
أن الفجاجعة عنت العرب حياماً فهم مأجورون فيه ومعزون به ، ولا تزال المنايا
تحتار من يعم رذوه ويحمل مصابه . ثم سأله الغيث أن يتعمد قبره بالسقيا ،
ولذلك عاد فأنكر ذلك على نفسه لأن في القبر البحر الذي تنشأ عنه هذه
الأمطار ، وسأل الله في ختامها أن ينزل زحاته عليه ، وتأمن بأن عادة الموت
أن ينزل بالكرام ، ويكلف بكل شريف .

ولقد أخذ نقاد الأدب على أبي تمام مأخذ كثيرة : منها رداة مطلعها
وأنه سرق جل معانيها ، وهذا حذر كثير من الشعراء في خيالها . ذكروا
أنه أخذ قوله :

كان بنى نبهان يوم وفاته

من قول صفية الباھلیة :

كنا كأنجح ليل ينها قر

وقوله :

أمن بعد طي الحادثات محمدًا

من قول أبي نواس : « طرى الموت ما بيني وبين محمد »

وقوله :

لئن عظمت فيه مصيبة طى

من قول عبد الله بن أيبوب :

جلت رزقك فعم مصابه

وقوله :

توفيت الآمال بعد محمد

من قول مكنت السلى يرثي ذفافه :

روى الأغاني قال قال محمد بن موسى كنا عند دهبل قد كرنا أبا تمام
قتله وقال : هو سرور الشعر ، ثم أخرج دفراً فإذا فيه : قال مكنت
السلى يرثي ذفافه العبسى :

ألا أيها الناعي ذفافه ذا الندى
تعست وشلت من أناملك العشر
إذا ما أبو العباس خلى مكانه
فلا حللت أثني ولا مسها طهر
نجوم ، ولا لذت لشاربها الخمر
ولا أمطرت أرضائهما ولاجرت

كان بنى الققاع يوم وفاته
نجوم ساء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافه
وأصبح في شغل عن السفر السفر
يعزون عن ثار تعزى به العلا
وييكي عليه المجد والباس والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله
وذخر الملن أمسى وليس له ذخر

وذلك إسراف منهم في النقد ، وتحامل لا يقوم في بعضه على أساس ،
فإن هذه المعانى مشتركة بين الشعراء ، وليس أحد أولى بها من غيره ،
ولا ننسى أن دعبلأ كان منافساً لأبي تمام معاصرآ له وبينهما من الخصومة
ما يدعونا إلى الشك في خبره ، وأبو تمام شاعر وراوية سن للناس طريق
اختيار الشعر وحفظ منه مالم يحفظه أحد ، فإذا جرى في شعره على معانى
المتقددين وأساليبهم وأخيتهم فذلك راجع إلى كثرة حفظه وانطباع
الصور في شعوره ، لا إلى سرققة متعمدة أجلاء إليها جدب في تفكيره أو إملاق
في لغته .. وأبو تمام الرجل الذى يخضع اللغة لمعانينة العميقة وأخيته
المبتكرة ويتأفى بالنأى بعيداً فيدينيه منه ويقربه إليه وقد تجده عسراً في
بلغ مرامه لكن ذلك لا يعيشه من المؤاخذة ، فقد أخذ بيت صفية ونفله
إلى شعره بمعناه وأكثر ألفاظه وقصر عن اللحاق به مع احتذائه وأخذه
منه ، وكذلك أيضاً تصويره عن سبقه من الشعراء في قوله : رأيت الكريم
الحر ليس له عمر .

قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقبة مال الفاحش المتبدد

وقال الحماسى :

وقالوا ماجداً منكم قتلنا كذاك الرمح يكلف بالكرم

وقال الخارجى : إن الشراة قصيرة الأعمار .

وقال هو في قصيدة أخرى بلغ الغاية :

إن تبتخل حدثان الموت أنفسكم
ويسلم الناس بين الحوض والمعن
فالماء ليس عجيبة أن أعزبه يفني ويمتد عمر الآجن الأسن
فرفع التثليل من شأن المعنى وبوأه من النقوس موضعًا مرضيًّا ،
واحتاج لذلك احتجاجاً مقبولاً . وكم كان من الحرى بأبي تمام أن
يتحدث في قصائد الرثاء إلى الناس في سهولة ويسر ، وأن يعدد
مناقب المرثي ، دون احتفال بالصنعة أو إسراف في المexas وجوه البديع ،
وكان ينبغي أن يشغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها ، ويندر أن
تجد بيته من أبياتها خالياً من صنعة ، ولكنها متينة رائعة تدل على مهارة
فائقة وصدق عجيب . انظر إلى هذه الاستعارات الجليلة : توفيت الآمال .
فاختت العيون دما . خجكت الأحاديث . مات مضرب سيفه . ثياب الموت .
يبكي عليه الباس . استشهد الصبر . طى الحادثات محمدًا . شجرات العرف .
سوق الغيث غيثاً . في لحده البحر . يحييا به الثرى . والطباقي في مثل : بكت ،
وخرجت ، وطوى ، ونشر ، وأبغض ، ويحب ، وأليس ، وعريت ، وبدو ،
وحضر ، وحر ، وحضر .

والجناس في مثل : انثر الغر ، مضرب سيفه من الضرب . بوأتو بتر .
إلى غير ذلك من ضروب البديع الذي كان معنِّياً به ومتواافقاً عليه ، وكان
يخرجه أحياناً إلى التشكُّل : كانثر الغر مثلاً ، أراد أن يخانس فوقع
في هذا الثقل ، ومثله من قصيدة أخرى له :

قرت بقران عين الدين وانشتلت
بالأشترن عيون الشرك . فاصطلما

وفي القصيدة يقول أبو تمام :

إليه الحفاظ المر والخلق الورع
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
هو الكافر يوم الروع أو دونه الكفر
ونفس تعاف العار حتى كأنما

وهو شبيه بقول الحواسية :

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم
وأن يرتقوا من خشية الموت سلماً
ولو أنهم فروا لكانوا أعزّة
ولكن رأوا صبراً على الموت أكراماً

و بما لا ريب فيه أن أبا تمام أخذ منها وقصر عنها ، لأن محصول كلامه
أن الفرار كان ممكناً ولكن كان يلزم منه العار فأبى نفسه الدنيا ، فردها إلى
الموت؛ ومحصول كلامها أنهم أبوا الفرار والموت يهجم عليهم ويأخذ بنفسهم
وعلم النجاة بأيديهم والفرار لعار فيه لأنهم أذنروا بل هو بقاء وحياة .

ومن صور الرثاء قول ابن الرومي يرثى ابنه محمدأً :

بكاوكا يشق وإن كان لا يجدى
الآن قاتل الله المنيا ورميها
توخي حام الموت أو سطحي ميتى
على حين شئت الخير من لحاته
طواه الردى عن أضحي مزاره
لقد أبهرت فيه المنيا وعيدها
لقد قل بين المهد والحد بيته
ألح عليه النزف حتى أحاله
بحودا فقد أودى نظيرك عندى (١)
من القوم حبات القلوب على عمد
فلله كيف اختار واسطة العقد
وآنسـتـ من أفعالـهـ آيةـ الرـشدـ
بعـيدـاـ عـلـىـ قـرـبـ قـرـيـاـ عـلـىـ بـعـدـ
وـأـخـلـقـتـ الـأـمـالـ ماـكـانـ مـنـ وـعـدـ
فـلـمـ يـنـسـ عـهـدـ المـهـدـ إـذـ ضـمـ فـالـلـحدـ
إـلـىـ صـفـرـةـ الـجـادـىـ عـنـ حـرـةـ الـوـرـدـ (٢)

(١) بكاوكا : الخطاب امينيه ، ولا يجدى : لا ينفع ، وأودى : هلك .

(٢) الجادى : الرعنان ، وهو أصغر .

وَظَلَ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقُطُ نَفْسَه

وَيَنْدُو كَمَا يَنْدُو الْقَضِيبُ مِنَ الرَّنْدِ (١)

عَجِبَتْ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ الصَّلَدِ
وَمَا سَرَنِي أَنْ بَعْثَهُ بِثَوَابِهِ
وَلَا بَعْثَهُ طَوْحًا وَلَكِنْ غَصْبَتِهِ
وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ الْحَوَادِثِ مِنْ مَعْدَدِ (٢)
إِنَّمَا كَرْهَهُ مَا حَنَتْ النَّيْبُ فِي نَجْدِ (٣)
قَدْنَاهُ كَانَ الْفَاجِعُ الْبَيْنُ الْفَقْدِ
مَكَانُ أَخْيَهُ مِنْ جَزْوَعٍ وَلَا جَلْدٍ
أَمَّا السَّمْعُ بَعْدَهُ مِنْ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي
فِي الْأَلْيَاتِ شِعْرِي كَيْفَ حَاتَ بَعْدِهِ
وَأَصْبَحَتْ فِي لَذَاتِ عِيشِي أَخْازَهُدِ
أَرِيحَانَةُ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي

مَأْسِيَكَ مَا مَاءَ الْعَيْنِ مَا مَأْسِيَتْ بِهِ
وَإِنْ كَانَتِ السَّقِيمَ مِنَ الدَّمْعِ لَا تَبْهِدِي
أَعْيَنِي جُودًا لِي فَقَدْ جَدَتِ الْثَّرَى
كَافِي مَا مَسْتَمْعَتْ مِنْكَ بِعْضَهُ
أَلَامُ مَا أَبْدَى عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى
مُحَمَّدٌ مَا شَيْءَ تَوْهُمْ سَلْوَةُ
أَرَى أَخْوَيْكَ الْبَاقِيَنَ كَلِبَهُما
إِذَا لَعَبَا فِي مَلْعَبِ لَكَ لَذَعَا

(١) الرَّنْدُ : نَبْتٌ طَيْبٌ إِرْانَةٌ لَهُ زَهْرٌ أَصْفَرٌ يُسَمِّي الزَّيْنَبَ ، وَقَدْ يُسَمِّي بِهِ الْأَسْ
وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الرِّيحَانِ .

(٢) مَعْدُونَ أَعْدَى : يُعْنِي نَصْرٍ وَأَعْوَانَ .

(٣) النَّيْبُ : جَمْعُ نَابٍ وَهُوَ النَّاقَةُ الْمُسْتَنَةُ .

وأرثاء من أهم موضوعات الشعر، واشتهر بالإجادة فيه أوس^(١) والأعشى وأبو زيد الطائى ولبيدم ٤١، ومتمن بن نويرة وأبو ذؤيب ومالك بن الريب وكعب بن معد^(٢)، وانفرد به الخنساء، ثم اشتهر بعد ذلك حسين بن مطير والسكيت في مراثيه للعلويين ودعل في مرثيته معاهد العلويين، ثم أبو تمام وهو من المعدودين في ذلك^(٣)، ومثله ديك الجن وهو في هذا أشهر من حبيب^(٤)، وللبعزى في الرثاء آيات رائعة ومنها مرثيته في المتوكل، وكذلك ابن الروى كاف في مرثيته لولديه «بكاؤكما يشق وإن كان لا يجدى».

الشعر الحماسى :

ومن روائعه قصيدة أبي تمام في فتح عمورية.

وكان أبو تمام صاحب مذهب في الشعر، وأميرًا في دولته منذ مطلع القرن الثالث الهجرى حتى وفاته، كان يتخير ألفاظه تخيراً شديداً، ويختهد في الصناعة البدعية ويدقق فيها غاية التدقق وخاصة في الجناس والطباق وبالغ في تجويد صياغته وبالغة شديدة، دقيق في معانيه أشد التدقق، وتكلف تجويدها أشد التكلف، وأهل اللفظ أحياناً حتى يفتر وأحياناً حتى أفسده العناية، وتكلف البداع إلى حد شديد، حتى كاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع، ويجعله صناعة فنية عتيدة، وقد أكثر في شعره من ضرب المثل، ومن الحكمة، وأغنى اللغة العربية بمعانٍ لم تكن مألوفة فيها.

(١) ومرثيتها : «أيتها النفس أجمل جرعاً، عند الأصحى لم يبتدىء أحد من الشعراً مرثية أحسن من ابتدأها (٣٤ : ٣ الآمال)».

(٢) وقالوا ليس للعرب مرثية أجود من بائتها في أخيه أبي المغوار (١٧٨) : ٢ ديوان المعافى).

(٣) ١٤١ : ٢ العدة.

وعورية إحدى مدن الروم في آسيا الصغرى ، وكانت قلعة عسكرية حصينة ، ففتحها المعتصم ودك حصونها ، فقال أبو تمام هذه القصيدة :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب (١)
يضم الصحائف لاسود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب (٢)

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أوثر من الخطب (٣)
فتح تفتح أبواب السماء له وترز الأرض في أنواها بالقشب (٤)
يا يوم وقعة عورية انصرفت عنك المني حفلا محسولة الحلب (٥)
أبقيت جد بنى الإسلام في صعد والمشركين دار الشرك في صلب (٦)
تدبر معتصم بالله من قب الله مرتفع في الله مرتفع (٧)

(١) الأنباء : جمع نبأ وهو الخبر . المعنى : السيف أصدق ما تضمنه الكتب ، وكان المتجمرون يخذلون المعتصم من فتح عورية في هذا الأوان ، وقالوا له : إننا نجد في الكتب أنها لا تفتح إلا في وقت نضج الزين والعنبر فلم يستمع المعتصم لهم.

(٢) الصفائح : جمع صفيحة : السيف العريض ، والصحائف : جمع صحيفة : القرطاس المكتوب ، والمعنى : إن السيف العريض هي التي تجلو الشك وتزيل الريب لا الصحائف المكتوبة .

(٣) فتح الفتوح : هو فتح عورية ، وكانت عزيزة على الروم ، مخصصة غاية التحصين ، ودافعت عنها جيش الروم دفاع الأبطال ، وكانت ذات موقع استراتيجي عظيم .

(٤) ترز : تظهر القشب : جمع قشيب أي جديد .

(٥) المني : ما يتمناه الإنسان . حفل جمع حافل وهي الناقة التي امتلا ضر عها .
الحلب : الحلبة من اللبن . محسولة : حلوة ، والمعنى : إن أمانينا عادت وهي حافلة بالسرور لتحقق ما أملت .

(٦) الجد : الحظ صعد : صعود . صلب : المحدار .

(٧) التدبر : تقدير الشيء على الوجه السليم المأمول الفوز .

لم يغز قوما ولم ينهى إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب (١)
ل ولم يقد جحفل يوم الوعي لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب (٢)

و هذه القصيدة من عيون الشعر العربي ، وهي طوبية اخترنا منها هذه الآيات وتمثل الجزالة غاية التمثيل ، ومتازب وحدة القصيدة ، وبصدق عاطفة الشاعر فيها ، وبقوه التصوير . وروعه النسج ، ودقة معانى الشاعر فيها .

وأبو تمام فيها ينوه بالمعتصم الخليفة وبجيشه وبالانتصار الذى أحرزه في هذه المعركة الخالدة باستيلائه على عمورية ودك حصونها ، وتشتت شمل المدافعين عنها ، وبالتحكم بعد ذلك في آسيا الصغرى مركز التخطيط العسكري الرومانى ضد العالم العربى الإسلامي آنذاك .

أبو تمام يشيد بهمة المعتصم وعزيمته ، ويقول : إن سيفه وهو الذى يحل المشكلات ؟ لأنبوءات النجمين ، وإن فيه الفصل بين الجد واللهو ، ثم يتحدث عن عظمة هذا الفتح وأهميته وأنه أكبر من خطب الخطباء ومن نثر الناشرين . ثم يذكر الفتح وأنه أرضى الأمان فهى به فى عيد جديد ، وأنه جعل حظ المسلمين فى صعود حظ والكافرين فى هبوط .

وأنه كذلك أثر لحكمة المعتصم وتدبير وشجاعة هذا الخليفة العظيم الذى نصر بالرعب يتقدم جيشه وكأنه معه جيش آخر غير الجيش المحارب ، والذى يغنى هو بنفسه وشجاعته عن الجيوش السκىفية والجنود الباسلين .

و هنا نجد التجربة الشعرية قوية ، والعاطفة الفرحة بانتصار المسلمين ملتبة ، وخيال الشاعر يقطأ مشبوا ، ومعانيه كثيرة عليها مساحة من ثقافة عالية وذهن خصب ، مع المبالغة فى المعانى ، ومع الحرص على صناعة البديع ؛ من سبع وطباق وجناس ومقابلة ومباغة وسواءها .

(١) نهد الرجل : نهض . الرعب بسكون العين أى الفزع والخوف .

(٢) الجحفل : الجيش العظيم . الوعي : الحرب . اللجب : الكشيف .

نماذج أخرى من الشعر

١ - لأحمد بن محمد الأفريقي الشاعر المعروف بالشيم وكان في بخارى في
أواخر القرن الرابع الهجرى^(١).

فقلت: أعزى عن ناظرى، أنت طالق
وأين خيولى والخلى والمناطق؟
وأين جوارى الحسان العواتق؟
عليه يمئى إتنى لمنافق إ
أصلى له ملاح فى الجو بارق
خارق ليست نحمن حقائق
تلوم على ترك الصلاة حلبى
لماذا أصلى وأين باعى ومتى؟
وأين عبيد كابدور وجوههم؟
أصلى، ولا قبر من الأرض يحتوى
بلى، لأن على الله وسع لم أزل
فإن صلاة السيء الحال كلها

٢ - ويقول ابن الروى في تأصيل النرجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله
إلا وناحله الفضيلة عائد
آب وحاد عن الطريقة حائد
زهر الرياض وأن هذا طارد
بتسلب الدنيا وهذا واعد
وعلى المدامنة والس ساع مساعد
أبد فإنك لاحالة واجد
ما في الملاح له سى واحد
بحيا السحاب كا يربى الوالد
شبها بوالده فذاك الماجد
ورياسة لو لا القياس الفاسد
لم ينجف الورد المورد لونه
للرجس الفضل المبين وإن أبي
فصل القضية أن هذا قائد
شتان بين اثنين هدا موعد
ينهى التديم عن القبيح بلحظة
اطلب بعقلك في الملاح سيبة
والورد إن فكرت فرد في اسمه
هذا النجوم هي التي ربتهما
فانظر إلى الآخرين من أدناهما
أين الخدود من العيون نفافة

وفي هذه القصيدة صنعة اطيفة يقول فيها عبد القاهر: عمل ابن الروى على قلب طرف التشيه فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناهى ذلك وخدع عنه نفسه وحلها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ثم لما أطمأن ذلك في قلبه واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة يجعل عنده أنفضل الترجس ووضعه في منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فصار يتوب من ذلك ويتحجف عيب العائب وغيرة المهزى ويجدد ما يجد من مدح مدحه يظهر السكينة فيها ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها ، ثم زادته الفطنة الناقبة والطبع المشر في سحر البيان ، مارأيت من وضع حجاج في شأن الترجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فقام بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له وما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة ، ويتحقق بها في لطف الصنعة قول أبي هلال العسكري :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلوا في الحكم إذ مثلوا به فلشد مارفع البنفسج شأنه

٣ - علي بن الجهم يتحدث عن الورد :

حسن الرياض وصوت الطائر الفرد لم يضحك الورد إلا حين أحبه
وراحت الراح في أنواعها الجدد بدا فأبديت لنا الدنيا محسنهما
وقابلته يد المشتاق تسنده
إلى التراب والأحشاء والكبش
أو مانعا جفن عينيه من السهد
وسيره من يد موصولة يد
ما قابلت طلة الريحان طلعته
إلا تينت فيه ذلة الحسد
تشفي القلوب من الأوصاب والكمد
قامت بمحاجته ريح معطرة
لا عذب الله إلا من يعذبه أو صاحب نكد

٤ - مروان بن أبي حفصة يحتج للعباسين بأنهم عصبة النبي فهم ورثته،

وليس لابناء فاطمة أن يرثوه ، وذلك من قصيدة له في مدح المهدى :

دون الأقارب من ذوى الأرحام قطع الخصم ، فلات حين خصم لبنى البنات وراثة الأعما (١) زلت بذلك سورة الأنعام حطم المناكب يوم كل زحام ودعوا وراثة كل أصد حامي	يا ابن الذى ورث النبي محمدأ الوحى بين بنى البنات وينضم أى يسكون وليس ذلك بكان ما للنساء مع الرجال فريضة خلوا الطريق لمعشر عادتهم وارضوا بما قسم الإله لكم
---	--

٥ - مسلم بن الوليد يفاجر قريشا ، وكان من شعراء البانية :

ر قريش ونفرها مستعار قبل أن تستجيرنا مستجار ترقيها كما ترقى الوبار (٢) لقوم سواهم والفحار صور حين اعتلى أم الأنصار؟ وقريش تلك الدهور تمها	فافخرتنا بما بسطنا لها العذ ذكرت عزها ، وما كان فيها إنما كانت عزها في جبال أيها الفاخرون بالعز والعن أخبرونا عن الآخر : أللله فينا العز قبل عز قريش
--	---

٦ - دليل الخزاعي في رثاء الشباب :

لا أين يطلب ؟ ضل ، بل هلكا ضلوك المشيب برأسه فبكي يا صاحبى إذا دمى سفكـا قلبي وطارقى في دمى اشتراكـا	أين الشباب وأية سلـكا ؟ لا تعجبـي يا سلمـ من رجلـ ياليـت شعـرى كـيف يـومـ سـكـا لا تأخذـا سـطـلـانـي أحـدا
---	---

(١) أى وراثة مثل وراثة الأعما .

(٢) جمع وبرة : دويبة كالسنور .

رواية الشعر

في العصر الذهبي نشطت حركة إحياء الشعر الجاهلي وروايته وتلقيه شفافها من أفواه الأعراب والمجائز وشيوخ القبائل وحكاياتها ومعمرها .

وقد اشتدت حركة الرواية في العصر العباسي عصر التدوين والتأليف ، وضاعف الاهتمام بها كثرة ما دس على الشعراء من شعر ، وما نخلوا من قصائد ، لذلك اتسمت حركة الرواية بسمة نقدية غالبة .

وقد كانت العرب أمة بدوية ، ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذي يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى العلم ، ولم تتمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يمسكوا بالقلم أو يخطوا باليراع ، ولذلك كانوا يعتمدون على الذاكرة يخزنون فيها ما عرموا ، ويحتفظون بين ثناياها ما يتردد بينهم من ألوان المعارف . ففي ذاكرة العربي ما يعزز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومقابرها وأماكن وقائعها ، كأنه مسطور في كتاب ومدون في صحائف ، لا يند عنه شيء ، لأن الحافظة الوعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الكثير من الغرائب عن رواية العرب وسعة حفظهم مما يعده بعض الناس وهم من الأوهام أو خيالاً من الأخيلة . ولكنها القدرة البارعة التي لم تعتمد على السكتب ولم تعول على السكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربي كان يعرف سلسلة نسبه ، ويعرف كذلك أنساب القبائل ، فلا يغيب عنه شيء ولا يتسرّب الخطأ إلى شيء مما روى .

وكان للعرب عنایة خاصة برواية الشعر ، إذ هو سجل مقاixin ، وديوان مآثرهم ، وجمع أحداثهم وقائمهم ، وعلمهم الذي لم يكن لهم علم

أجل منه ، وكان لكل شاعر راوية خاص يقتبس عليه ويروى عنه ، ويحتاج لقوله ، ويظهر محاسنه ويزدحع أشعاره ، فامرؤ القيس كا يقولون راوية أبي دؤاد الأيادي ، وزهير راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب بن علس . والخطيبية راوية زهير وابنه كعب .. وهكذا .

وفي عهد الدولة الأموية نشطت الرواية ، وانتعش رجالها كما ذكرنا ، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية معروفة وليسعنوا بما يرون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته ، وإدراك سمه وعظمته ، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربي والحرص على روایته إحياء لتاريخ حافل يعززون بأحداثه ، ويفاخرون بوقائعه ، ويتمجدون بما يحدث عنه من مذكرات وما ثر .

ومن ثم حرصوا أشد الحرص على الرواية ، وتلقف أشعار القدماء ، ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الحال ، ويكتبدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة في رواية غرائب الشعر تعذر القدرة في إنشائه ، والخفاوة بالرواية في قصور الخلفاء وبمحالس الولاة لاتقل عن العناية بالشعراء المجودين ؛ والتحول المبرزين – وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفت بضاعتتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشاهدون الأعراب وينجعون الغريب ، وينقلون ما ورثوه من هذا التراث الجيد ، وكانوا متوجهين في روايتهم ، مثبتين في كل ما يصل إليهم ، فلا يأخذون إلا من صحت عريتهم ، وبعدوا عن كل تأثير أجنبي ، كتميم وقيس ، وأسد وهذيل ، وبعض من كنانة ، وبعض من طى . أما القبائل التيجاورت قطرأً أعميناً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئاً من لمحتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً . وقيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لهم وجذام لأنهماجاوروا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ،

ولا عن ثقيف لخاطئهم تجاه الرّين ، ولا عن قضاة وغسانٍ حلوا لهم
بالشّام وهكذا .

ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أوتوا قوة الذاكرة ووفرة
الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحاضر حاملين ماقعدهم من بضاعة مرجحة ،
وتجارة راجحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل العطايا وسُنِي الهبات
ما يتعهدهم على الرواية والانقطاع لها .

ولقد جرت الرواية في عصر بنى العباس على سنتها في عصر بنى أمية
إذ ظلّ الرواية يرحلون إلى الباادية ، وبقى الأعراب الحافظون ينتقلون من
الباادية إلى الحاضرة ليبيع ما عندهم من أشعار . وعرض ما يختزنون من آثار ،
حتى فسدت لفظهم ، ولانت ألسنتهم ، وضعف فصاحتهم ، فقلّت الثقة بهم ،
وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

وكانت الرواية أول الأمر هو اية نفوس ألقها ورغبة قلوب أحبتها
وسيجهة عند بعض الناس ، حلّت بهم على أن يحفظوا ويختزنوا مارأهم من
أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد ، ومن طبيعة
النبع بشعوره ، المنتجه بإحساسه ، الذي لا يسرره غرض ، ولا تطغى عليه
منفعة ، أن يتعرى الصدق فيها ينقل ، ويتوخى الصحة فيها يجمع .

ولما وضحت شدة الرغبة في الرواية فيها عندهم ، وقوّة المحرص عليها ،
وكثر ما أغدق على الرواية من العطايا والمنح أخذوا يجعلون عليهم منه
تدر عليهم المكسب وتحلّب لهم الرّيح . وبعد أن كانت الرواية هو اية
نفس أصبحت رغبة كسب ، فقل فيها بعض الشيء الاعتصام بالأمانة ،
والحرص على الصدق ، والبالغة في تحري الصواب . وبين ذلك وجده الرواية
الذين أضافوا إلى الحق باطلًا ، وإلى الواقع خيالًا ، وإلى الحادثة أحداً .

كل ذلك لأن همهم الكسب ، ووكلهم أن يروج ما اخترعوه ، ويسيرون في الناس ما وضعاوه ، فينالهم من وراء ذلك الأجر ، ويصلونهم ما أملوا من كسب . وأسباب الاتصال في الرواية كثيرة ، فنها :

١ - كان الأعراب يتذدون الرواية وسيلة للكسب ، وسيلة الاجتالب الرزق فيقدون إلى الحواضر بما عندم للحصول على المال . فإذا نفذ ما يحفظون عدوا إلى الوضع والاحتراز . ويحدثنا محمد بن سلام الجعفي أن ابن داود بن متمن بن نويرة ، قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الميرة . فأتاه أبو عبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه ، وقام له بحاجته وكفياه مؤونته ، فلما نفذ شعر أبيه متمن جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، فإذا كلام دون كلام متمن ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر الموضع الذي ذكرها متمن والواقع التي شهدتها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتله . ويقول الأصمعي عن أعرابي اسمه أبو ضحضم إنه أنشد مائة شاعر كلهم يسمى عمرا . ويقول الأصمعي : فعددت أنا وخلف الآخر فلم نقدر على ثلاثة .

٢ - حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ برواية مانظر لهم فقوسهم ، وتفتح لهم أسمائهم ، من مدائخ يزعمون أن آباءهم مدحوا بها في القدم ليحرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال قد حاد البصرة على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال : ما أطرفتني شيئاً . فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الخطيبة مدحأ لأبي موسى الأشعري . فقال : وبذلك ، يمدح الخطيبة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروي للخطيبة ولكن دعها تذهب في الناس .

صاحب الأغاني يروى أن حمادا تقرب إلى خالد بن عبد الله القسري

باختراع أبيات نسبها إلى قيس بن الحدادية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل
به قوم فـأـكـرـمـهـ وـأـحـسـنـ إـلـيـهـمـ وـتـحـمـلـ عـنـهـمـ مـاـ أـصـابـوـاـ مـنـ دـمـاءـ — قال
على لسان قيس :

وقد حلّنا بقسرى أخي ثقة كالبدر يجلو دجى الظباء والأفلا
لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً يوماً ولا يرثون الدهر ما فتقا
كم من ثناء عظيم قد تداركه وقد تفاقم فيه الأمر وانخرقا
يقول أبو عمرو الشيباني : إن حماداً أشد خالداً هذه الآيات فوصله .
والتوليد فيها بين جداً .

٣ - عدم تخرج بعض الرواة من السكذب والأخلاق ، لشهرة تخسرا
أنفسهم ، وشفاء لداء يتغلغل في صدورهم ، ورغبة في إظهار السبق
والتفوق ؛ وقد كان على رأس هؤلاء السكذا بين الوضاعين : حماد وخلف
الآخر ؛ أما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : « لقد سلط على الشعر من
حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته
أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك . فإن أهل العلم بدون من أخطأ إلى الصواب .
ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعاييرهم .
فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره ويحمل ذلك
عنه في الأفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم
ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ولقد أقر حماد بحضور الخليفة المهدى وهو وللعمد بما زاده من
عنده في شعر زهير بن أبي سلى ، حتى أمر حاجبه فأعلن في الناس أنه
يبطل رواية حماد .

وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام ، أفرس الناس بيت شعر .

ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسخ في آخر حياته فأنا بأم بما وضع فلم يصدقه أحد . واعترف هو للأصمى بأنه وضع أشعاراً . وقبل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على زابط شرآ روبيت في الحماسة .

٤ - على أن بعض الحفاظ من الرواة كانوا حين يتزاحم لديهم ما حفظوا قد يختلط عليهم بعض المتشابه ويكتبس لديهم المتقارب في المعنى أو في الوزن أو المتفق في الروى . فقد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى ، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا ، حتى نسبوا الآيات الآتية إلى ابن الدمينة وإلى نحو أربعين شاعراً وهي :

أنضى نهارى بالحديث وبالمنى
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا
لي الليل شاقتنى إليك المضاجع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة
كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولقد كثر الرواة كثرة عظيمة ، ومن بينهم حاد الرواية المتوفى عام ١٥٥ھ ، وخلف الأحرى المتوفى عام ١٨١ھ ، وأبو عمرو الشيباني ، وأبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ھ ، والأصمى م ٢١٧ھ ، وأبو عبيدة معمر بن المقنى م ٢١٣ھ ، وسواهم ؛ وقد ختمت طبقة الرواة بالبرد (٢٨٥ھ) وتغلب (٢٩١ھ) ، فإليهما انتهت الرواية ، وبهما ختمت ؛ وحركة رواية الشعر في هذا العصر هي التي حفظت لنا أشهر القصائد القديمة ، وهي التي جعلت الرواة يقبلون على تدوين دواوين الشعراء ، وجمع شعر القبائل المختلفة كهذيل وغيرها ، وقد خلقت لنا هذه الحركة أعمالاً جليلة في البعد الأدبي وفي إحياء الشعر القديم ، وكانت مقدمة لحركة النقد والتحقيق التي تلت حركة الجمع والرواية والتدوين .

طبقات الشعراء

شعراء العصر العباسي الأول كثيرون ، ويختلفون باختلاف نزاعاتهم
السياسية والاجتماعية والفنية :

١ - فهناك شعراء لهم صبغة سياسية ومن بينهم مروان بن أبي حفصة
وكان عباسي الطوى ، وكذلك أبو تمام وابن المعتن ، من حيث كان دعم
شيعي الطوى والتزعة .

٢ - وهناك شعراء تغلب عليهم التزعة الاجتماعية ، وفي مقدمة هم
أبو نواس شاعر اللذة ، وأبن الرومي شاعر الهجاء في عصره ، والبحترى
شاعر المجتمع بأوسع ما تصوره من دلالة .

٣ - وهناك شعراء شهروا بآداب فنية وهم شعراء الصنعة الذين
مستحدثت عنهم بعد قليل ؛ وعلى الجملة فقد كان من أشهر شعراء هذا العصر :

١ - الطبقة الأولى من العباسين وهم خضرمو الدولتين كابن هرمة
(١٥٠ھ) ، وأبي دلامة (١٦١ھ) ، والحسين بن مطير الأسدى ، وأبى
حية التبرى ، وسديف بن ميمون ، وأبى الحنفى ، وبشار (١٦٧ھ) وهو
إمامهم ويعد إمام المحدثين كذلك ، وصالح بن عبد القدوس (١٦٧ھ) وحماد
عجرد (١٦٨ھ) ومطبيع بن إياض (١٦٩ھ) والسيد الحميرى (١٧٣ھ)
ومروان بن أبي حفصة .

٢ - والطبقة الثانية طبقة المحدثين الذين نشأوا في صدر الدولة العباسية ،
ومنهم أبو نواس (١٩٨ھ) وهو إمامهم ، ووالبة (١٧٥ھ) ، وسلم
(١٨٦ھ) ، والعباس بن الأخفى (١٩٢ھ) ، وأشجع السلى (١٩٥ھ) وأبى
العتايبة (٢١١ھ) ، ودعبل (١٤٨-٢٤٦ھ) وسوام .

٣ - والطبقة الثالثة طبقة أبي تمام (٢٣١ھ) والبحترى (٢٨٤ھ) وأبن
الرومى (٢٨٣ھ) وابن المعتن (٢٩٦ھ) وهي طبقة طارت شهرتها في كل مكان .

الطبع والصنعة عند المحدثين

١ - بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفنى للأسلوب هو الصنعة ، فالمصنوع هو المتفق المذهب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتقطيع ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإنما فهو مصنوع متكلف ، والأدب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه ، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاحاً جديداً في معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى في تحديد معناها أن تجمع بين الرأيين الذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب في الصوغ أو استجداء لنزف الأسلوب وـ "صناعة" ؛ أما الصنعة فهى إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ؛ وهيامه "فنى بها" ، وقصده "إليها" ، وتعتمده طافى شعره ، حتى ليطلب الفن للنفء ويستأهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التي استبدت بها هذه الزرعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

ويجمع جمهور النقاد في القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء في العصر الجاهلى : عبدالشعر ؛ وعابوا شعراً ، قال الأصمى الأديب الرواية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابغة وأشباههما عبد الشعر ، وقال : الخطمية - وهو شاعر إسلامي مشهور - عبد لشعره ،

قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده
كاله متخيلاً مستوراً لمـ كان الصنعة والتسلف والقيام عليه ، وكان الأصمعي
يستحسن التفاوت في الشاعرية لأنـه مظاهر الطبع وخلوـ الشعر من آثار
الصناعة ، وعلىـ هذا الرأـي يـسير بعضـ المحدثـين عنـ يـرى أنـ التفاوتـ فيـ شـعـرـ
الـشـاعـرـ دـلـيلـ علىـ عـبـقـرـيـتـهـ وـطـبـعـهـ ، وـيـعـدـهـ العـقـادـ الآـيـةـ الـذاـطـةـ عـلـىـ شـاعـرـيـةـ
المـتـبـنيـ وـعـظـيمـ مـكـانـتـهـ فـيـ الشـعـرـ .

ولقد كانـ الشـعـرـ العـرـبـيـ أـثـرـاـ لـلـفـطـرـ وـالـبـدـيـهـةـ ، وـاسـتـجـابـةـ لـمـشـاعـرـ الشـاعـرـ
وـشـعـورـهـ بـالـحـيـاةـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ وـكانـ أـكـثـرـ اـرـتـجـالـاـ أوـ ماـ يـشـبـهـ الـارـتـجـالـ ،
يـنظـمـهـ الشـاعـرـ عـلـىـ الـبـدـيـهـةـ ، وـيـأـنـ بـهـ عـفـوـ الـخـاطـرـ ، تـرـدـ إـلـىـ ذـهـنـهـ الـمعـانـيـ
وـتـتـبـاعـ ، فـتـنـتـالـ عـلـيـهـ الـأـفـاظـ وـتـأـيـهـ الـأـسـالـيـبـ شـعـرـاـ وـشـعـورـاـ وـسـحـراـ
وـجـالـاـ ؛ كـلـ ذـلـكـ فـيـ سـهـولةـ وـتـدـقـ وـفـطـرـةـ دـوـنـ تـقـيـيفـ وـتـهـذـيبـ وـتـقـيـحـ ،
حتـىـ قـالـ الجـاحـظـ : وـكـلـ شـيـءـ لـلـعـربـ فـإـنـماـ هوـ بـدـيـهـةـ وـارـتـجـالـ وـكـأـنـ إـلـهـامـ ،
وـلـيـسـ هـنـاكـ مـعـانـةـ وـلـاـ مـكـابـدـةـ وـلـاـ إـجـالـةـ فـسـكـرـةـ وـإـنـماـ هوـ أـنـ يـصـرـفـ وـهـمـهـ
إـلـىـ السـكـلـامـ وـإـلـىـ جـلـةـ الـمـذـهـبـ وـالـعـمـودـ الـذـىـ إـلـيـهـ يـقـصـدـ ، فـتـأـيـهـ الـمعـانـيـ
أـرـسـالـاـ ، وـتـنـتـالـ عـلـيـهـ الـأـفـاظـ اـنـثـيـالـ .

وفـيـ الـعـصـرـ الـجـاهـلـيـ بـدـأـ لـونـ جـدـيدـ مـنـ أـلوـانـ التـهـذـيبـ وـالـصـنـعـةـ فـيـ
الـشـعـرـ عـلـيـ يـدـ أـوـسـ وـزـهـيرـ وـتـلـامـيـنـهـ .

كانـ أـوـسـ بـنـ حـيـجـرـ مـنـ أـصـحـابـ التـنـقـيـحـ ، وـكـانـ يـسـعـيـ مـحـبـراـ لـهـ لـحـسـنـ
شـعـرـهـ ، وـتـلـمـذـ عـلـيـهـ زـهـيرـ ، وـكـانـ طـفـيـلـ الغـنـوـيـ كـذـلـكـ ، وـكـانـ الفـرـ بـنـ
تـوـلـبـ مـنـ أـصـحـابـ التـنـقـيـحـ وـالتـهـذـيبـ ، وـكـانـ أـبـوـ عـرـدـ بـنـ الـعـلـاءـ النـاقـدـ
الـرـأـوـيـةـ مـ ١٥٤ـ هـ يـسـمـيـهـ السـكـيـسـ لـخـدـقـهـ بـالـشـعـرـ ، وـالـنـقـادـ يـعـدـونـ النـابـغـةـ
الـذـيـانـيـ أـيـضـاـ مـنـ الـمـصـنـعـينـ ، وـيـقـولـ أـنـصـارـ الـصـنـعـةـ : إـنـ اـمـرـأـ الـقـيـسـ أـيـضـاـ
كـانـ يـنـقـفـ شـعـرـهـ وـيـعـدـ النـظـرـ فـيـهـ فـيـسـقـطـ رـدـيـهـ وـيـثـبـتـ جـيـدـهـ ، وـكـانـ
أـمـرـقـ الـقـيـسـ رـاوـيـةـ أـبـيـ دـوـادـ الـأـيـادـيـ ، وـكـانـ يـلـوـذـ بـهـ فـيـ شـعـرـهـ وـيـتـوـكـاـ عـلـىـ

معانٰيه كثيراً ، ولكن شعر امرىء القيس ينفي عنه الصنعة والتتصنيع ، وفرق بين أن يحيى عفواً في شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون صنعاً ينتح فنه كما ينتح الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد في سبع سنين كان يسمّها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التشكيف والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها . خوفاً من النقد والنقد . بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة في شهر ثم لا يزال يهدبها حتى يتم عليها الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهدبها في ستة أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائد الحوليات . وقد سار تلاميذه زهير على نهج أستاذهم كالخطيبية الشاعر الإسلامي وسواه .

وكان هذا المذهب الفني في الشعر الجاهلي - مذهب الصنعة والتتصنيع - أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كـ عكاظ وسواء بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تمام له قبة في عكاظ ويتحمّك إليه الشعراء ؛ كما كان أثراً للتكمب بالشعر واتخاذه وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سني المدايا والأطافل من مدح حبوب ؛ وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالفناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد والتجدد في المعانٰى من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي ، نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبدعة كـ طرفة وامرئ القيس ومململ وآثار الشعراء المصنعين .

والملقات السبع وهي من أشهر القصائد الجاهلية في البلاغة الأدبية وأحفلها باوهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار

الطبع الأدبي المولود ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فعلقة أمرىء القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفة فنده ، وعملقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التأريخ القومي والعربي والسياسي لقبيلة الشاعر ، « تغلب » ، وعملقة عنترة حديث عذب جليل بين الحب وال الحرب والبطولة ، وعملقة زهير دعوة للسلام وتنفير من الحرب ووصف لآهوا الماء وويلاتها ، ويؤكد ي تكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ويقاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية ، وشنان بين هذه العملقة وبين باقية النابغة ، كليني لهم الخ ، أو ينها وبين قصيدة زهير « صحا القلب عن سلمي » ، بعد ما بين الأثر المطبوع والمصنوع .

واستمر مذهب الصنعة بعد العصر الجاهلي ، يظهر في شعر الخطية والراغي والنيرى وغيرهما حتى جاء العصر العباسي .

٢ - كان الشعراء المحدثون - وهم الذين نشأوا في ظلال الدولة العباسية وفي ظلال الامتزاج الذى حدث بين العرب والأمم الأخرى - يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليم وسوى هذه الألوان ، التي يقصدونها قصداً ويفتنون فيها افتاناً ، ويحرصون على توسيعهم وقصائدهم بها وتحجيم آثارهم بزخرفها . وكان الراغي مقدمة لهذا اللون من الصنعة ، فكان كثير البديع في شعره ^(١) .

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة ^(٢) ، ولم يكن في المؤلفين أصوات بديعاً منها ^(٣) ، ثم اتبع بشاراً وابن هرمة مقتدياً بهما العتاي والنيرى ومسلم وأبو نواس ^(٤) ، فالعتاي يذهب شعره في البديع ^(٥) ،

(١) ٣٤٢ : ٣ البيان (٢) ١١٠ : ١ العدة (٣) ٥٥ : ١ البيان

(٤) ١٩٠ : ١ العدة (٥) ٢٤٢ : ٣ البيان

وكان يحتذى حذو بشار في البديع ^(١) ، وكان يجمع الخطابة والشعر الجيد والوسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتکلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشياهما ^(٢) ، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم ^(٣) ، وكانت تتبادر طبقات شعره فتصعد كثیرها ويحيط قليلها بكثیرها وكذاك كان حبيب ^(٤) ، وكان أبو نواس ثانى بشار في منزنه لفظاً ومعنى وكثيراً ما صب على قوله وجراه في مضماره . حتى قال المحافظ فيما : هنا واحد والعدة اثنان بشار حل من الطبع بحيث لم يتکلف فقط قوله ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا أذن ، وليس بعد بشار موله أشعر من أبي نواس ^(٥) ، وكان أبو نواس يشبه بالنابغة ^(٦) ، وكان أسيير المحدثين شعراً ^(٧) . والصنعة واضحة بشكل ملحوظ في ميمنته :

وذى رحم قلت أظفار ضغته بخلق عنده وهو ليس له حلم ^(٨)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيباً أدبياً واسعاً للشعر ومنها جيداً مأثوراً إلا على يد المحدثين عامه ^(٩) وعلى أيدي مسلم وأبي تمام علىخصوص ، فقسم أول من تکلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن في الأشعار المحدثة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يحيطه في صنعته ويجيدها ^(١٠) ، بل هو فيما زعموا

(١) ٥٥ : ١ البيان . (٢) ٥٤ : ١ البيان .

(٣) راجع ٢٠ : ٣ الأغانى ، ١١٠ : ١ العدة ، ١٣ : ٢ زهر ، ٢٥٠ موضع ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعي يقول هو عاتمة الشعراء (٣:٢٣ الأغانى)

(٤) ٣٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(٥) ١٦١ العصر العباسي للاسكندرى .

(٦) ١١٠ : ١ العدة . (٧) ١٧٣ : ٣ العدة .

(٨) وهي في ديوانه ، وتتسبّب لعن بن أوس خطأ .

(٩) ١٧٣ (١٠) ١١٠ : ١ العدة .

أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذ الجنس بالبديع واللطيف^(١) ، وأول من أفسد الشعر بالبديع^(٢) ، ويشيد به النقاد جمِيعاً في مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره في هذا الباب^(٣) ، كان يتخذ الصنعة مذهبها يطبق عليه نماذجه بيتاب فعن بضرور التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباقي واستعارة ومشاكلة وأقام أفالاظه وتعابيره كما يقيم المثالون تماثيلهم ، وحقاً كان مسلم زعيم التصنيع في عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبَر عن خواطر وإنما تعبَر عن ألوان^(٤) .

٣ - وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحذوه سار أبو عام والبحترى . « فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة الفظ وما يملاه الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً يأنى بالأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح الناس صفة وأحسن مذهبآ في الكلام يسلك منه دمانة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة^(٥) ، كان لآبى تمام مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جمِيع الشعراء^(٦) ، وربما أسرف في المطابق وفي المجناس وجوه البديع من الاستعارة وغيرها^(٧) ، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمها^(٨) ، وهو أول من شرع البديع وأتبع عيوب التقسيم والتصریع

(١) ٢٠ : معاهد التصنيع .

(٢) الموازنة .

(٣) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٧٢ معجم الشعراء ، ٢٤٨ رسائل البلغاء ، ١٣٢ : ٤ ذهر الأدب .

(٤) ٨١ و ٨٣ أفنون ومذاهبه . (٥) ١٠٩ العدة .

(٦) ١٦٨ : ٧ مهند الأغانى . (٧) ٩٦ لمعجاز القرآن .

(٨) ٩٢ رسالة الفرقان .

والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس (١) ، وعلى أي حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة وأكثرها منها في أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس على أن مسلماً أسمى شعرا من حبيب وأفل تكفا (٢) ، وكان أبو تمام يستخدم في صناعة شعره وشى التصنيع الذي عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلا ، وتصوير وأضاف إليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد في تصويره على صبغ التدبيح وقد استوّعِب الفلسفة والثقافة وحوّلها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكلا كل ذلك وسواء تجتمع في شعره فيجلله الغموض في كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى آخذه به النقاد فهو يتذكر أفكارا وصورا جديدة ولكنّه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدي ما يريد وجانب الغموض والمعنى الغويصة في شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التي ثبتت في فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبرغ من مذهب البرناسين ، وكان أبو تمام يستخدم الطباق واستخداما معقدا يلوّنه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة ، وكان البحترى يتشبه بآبى تمام وينحو نحوه ويجدو حذوه في البديع (٤) .

وكان لا يرى في التجنيس مايراه أبو تمام (٥) ويقل التصنّع له فإذا وقع في كلامه كان في الأكثرين رشيقا، وتصنّعه للباطقة كثیر حسن وتعمقه في

(١) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبي تمام التي ذكرها الشهاب الخفاجي في ريحانته (٣٠٤ - ٣٠٩) وقد صفتها الخالدي على لسان أبي تمام يشكو فيها الطلاق من الواقع الموصلى الذي كان يغير على شعر أبي تمام في كلامه وشعره .

(٢) ١١٠ : ١ العدة . (٣) راجع ١١٥ و ١١٦ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١ و ١٣٢ .

الفن ومذاهبه في الشعر العربي . (٤) ١٨٣ : ٧ مهنيب الأغانى .

(٥) أي من إسرافه فيه .

وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلامة (١) والبحترى على أى حال لم يكن متفلسها ولم يكن من رجال الفكر العميق ، كان بدوياً أعرابياً فضللت أدوات الصناعة عنده ماذجة بسيطة (٢) ، كان يتبع الألفاظ وينقدوها تقداً شديداً كما يقول البافلاني ، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصيغات وقد تحلى بأصناف الحال كما يقول صاحب المثل السائر ، بل كانت كالعسل حلاوة (٣) .

أما ابن الروى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على الفظاظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من همزة الفظ وخشونته (٤) ، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة الحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع (٥) ، فهو حديث في تقافته ولكن لا يستطيع أن ينهض في فنه بالوان التصنيع وزخارفه وحقاً قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرج له إلى مجال المصنعين (٦) ، وهو مع ذلك قد يأتي بالوان الزخرف الفنى في شعره ، ولكن دون أن يتخذها مذهباً ، وكان يستخدم الطلاق والجناس فى شعره ، وهو يشبه البحترى في ذلك إلا أن البحترى يكثر

(١) ٩٦ إيجاز القرآن .

(٢) ٩٠ الفن ومذاهبه .

(٣) ٣٥ طبقات ابن المتن ، والأمدى يفضل ابتداءاته (٥٥ : ١ العدة) وكان مقصراً في الخروج من النسبة إلى المدح (٤١ إيجاز القرآن) ، ويفضله الجرجانى بهودة الابتداء على حبيب والمتبنى وفضلهما عليه بالخروج والختمة (٢٠٥ : ١ العدة) .

(٤) ١٠٦ : ١ العدة ، وإن الروى أكثر الشعراء اختراعاً للمعنى (٢٣٢ : ٢ العدة) ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران) .

(٥) ٩٤ الفن ومذاهبه .

(٦) ٩٥ المرجع .

من الجناس ، وقد استعار من أبي تمام صيغ التدبيح ^(١) .

٤ - وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعز وختم به ^(٢) ؛ كان ابن المعز هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن وينظم الشعر ليلهمو به ، وكان في العباسين كالوليد في الأمويين ، وكان متتكلفاً مجيداً في تسلكه كأكان الوليد مطبوعاً مجيداً في طبعه . ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعز طريقة أبي تمام ولم يكن من المطبوعين ^(٣) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعز فيقول : وما أعلم شاعراً أكل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض الموضع إلا لل بصير بدقائق الشعر وهو عندي ألطاف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً وافتاناً وأقربهم قوافي وأوزاناً ولا أرى وراءه غاية طالبها في هذا الباب ^(٤) ؛ ولقد صدق ابن رشيق في حكمه الأدبي على ابن المعز وصنعته فإن له من روانع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاؤه السياحة في صناعته ما يروع القارئ ويستبد بإعجاب النصف من النقاد ، « كان أبو تمام متتكلفاً للبديع وكان البحترى وابن المعز يجربان مع الطبع ، وكان مسلم بن هجاج وسطاً ^(٥) .. ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعز وبنته وحياته ووجوداته وشعره ، وآية ناطقة بجهة الحال السارى في الحياة .

وقد استمر مذهب الصنعة بعد ابن المعز منهجاً فنياً لـكثير من الشعر حتى العصر الحديث .

(١) وكان يلتزم حرفة ماقبل الروى في أكثر شعره (١٣٣ : ١ العدة) وكان يلتزم ما لا يلتزم في القافية (١٣٧ و ١٢٨ : ١ العدة) وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروى (١٧٢ سر الفصاحة) . (٢) ١١٠ ج ١ العدة .

(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العدة .

(٥) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب الشايب .

ترجم للشعراء :

ابن المعتن الخليفة العباسى الشاعر

حياته :

ولد أبو العباس عبد الله بن المعتن في شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلkan ، في بيت الخليفة ، وولى والده المعتن بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ . ومكث فيه ثلاثة سنين ، قتل بعدها يد الأزرار الذين كان يخدمهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنكبة والده أثر عميق في حياته ونفسه .

تلقي ثقافته في الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الراهن بألوان العلوم والثقافات والأداب ، وكان من أساتذته المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، وسواءاًهما من فحول العلماء .

وظهرت شاعريته في أول عهده بالشباب ، فامتلأت بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البلبل الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الواصف على خصائص الأدب والبيان . ولهم مؤلفات كثيرة جيدة منها : كتاب البديع ، وفصول التأليل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع في جزأين في مصر والشام .

عاصر ابن المعتن بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين ، هم : المهتمي (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتهد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزًا بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخليفة ، وهو في نفسه ناقم هل الحياة التي ملئت سواه مقايلدها ، وبقى عليه عدة مرات أطلق بعدها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول في شعره :

من يشتري حسبي بأمن خمول من يشتري أدبي بحظ جمول؟
ولسامات ابن عمه الخليفة العباسى المكتفى بالله عام ٢٩٥هـ ، ولـ
الأزاك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً ، فشار الناس فى بغداد ،
وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعز الخلافة عام
٢٩٦هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة تزيده
القوة الحربية في الدولة ، وبقى على ابن المعز ، ووزيره محمد بن داود بن
الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء
العرية المعدودين .

بيته :

عاش ابن المعز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها
القرن الثالث ، والتى حفلت بالوان الحضارة ، وشئى فنون العلوم والثقافات
والآداب ، كما عاش فى بيته الخاصة الخلفية بالوان الترف والنعيم والمجد ،
في قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته
وشاعريته .

شاعريته وخصائصها :

١ - أر هفت نفسية ابن المعز وحياته وبيته وثقافته ، ملهم الشاعرية ، قوى المisksات (١) .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاهره ، وما يختلج في
صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة .
فشعره صورة لحياته الخاصة أولاً ، ولحياة الطبقة المترفة ثانياً ، وللإنجاحات
العليا في السياسة والاجتماع والآداب أخيراً ، وهو فوق ذلك صورة صادقة

(١) ويروى عن ابن مجاهد (٥٣٤) : من قرأ لأبي عمرو ، وتمذهب الشافعى ،
وروى شعر ابن المعز فقد كل ظرفه (٢: ١٠٣ : طبقات الشافية للسبكي) .

للفن الخالص ، الذي يؤمن بالفن للفن ، لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنّه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو مال أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظم لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

٢ — وقد أجاد في الشعر السياسي ، كما أجاد في الفخر ، والإخوانيات ، والغزل . وخيّراته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثرة شبّهات ، وفه فيها يقف بجانب فن أبي نواس في خيراته .

وكذلك كان في الصيد والطرد مجيداً مبدعاً ، يقتفي فيه آثار امرئ القيس ، وأبي نواس والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التي تفوق فيها .

وكذلك بلغ ابن المعز في الوصف حد الجودة والإبداع ، ورسم صوراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجداني ، له موسيقى عذبة ، وفيه رقة وسلامة ، وصح وطبع ودقة وعمق ، وابداع في الأسلوب وتجدد في التشبيه والاستعارة ، وقد نمى ملكته في نفسه دقة حسه ، ولطف شعره ، وامتلاه ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه كان يقول الشعر لرضاء لنفسه ، وتصويراً لحسه ، بما صرّفه إلى وصف الطبيعة ، وبجالس الآنس ، ومطارد السيد .

أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعز منها قليلاً ، ترك الزهد لأبي العتاهية ، والرثاء لأبي تمام ، والهجاء لابن الروى ، والمدح للبحتري ؛ وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١) .

٣ — ومعنى ابن المعز تصل بنفسه وحسه وحياته ، وهو فيها دقيق

الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حينا ، ومقلد أحيانا أخرى .

٤ - وخياله الشعري خيال وافع ، يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطوي به من خيال ووصف وتصوير وخياله النشط يعني بمحاسات الأمور ؛ وربما أنها المشاهدة دون أن يكفي نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنيات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالرونق والعذرية . في جزالة تشيع في أعطاوه حينا ، وسهولة ورقه يفيض بها شعره أحيانا ، مع جمال في ترف البيان وألوان البديع ، مما حدا فيه حذو بشار ومسلم وأبي تمام . وتشيع في أسلوبه الصياغة الفنية ، الممتلئة روحًا وحياة وموسيقى ووضوحًا ، في قرب وأخذ ، وجودة فريحة ، ووحدة خيال كما يقول :

والصبا معلىه حاجة وأملا

منزلته الشعرية :

ابن المعز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التي نبعت في القرن الثالث المجري ، وهو أمير التشبيه في الشعر العربي القديم والحديث .

يعد في الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهي الطبقة التي خلفت طبقة أبي نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه في طبقته أبو تمام والبحترى ؛ وبعض النقاد يجعل ابن الرومي وابن المعز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويجعل أبو تمام والبحترى حاملي راية الطبقة الثالثة في المحدثين .

ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعز وابن الرومي

طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سوادهم من الشعراء^(١) ..

ويقول: «وليس في المولددين أشهر اسم من أبي نواس ثم حبيب والبحترى ثم تبعهما في الاشتهر ابن الرومي وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبي نواس في المحدثين، وامرئ القيس في القدماء^(٢) ..»

المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز :

المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز ، هي مدرسة المحدثين ، التي قاد زمامها أبو تمام والبحترى ، والتي امتازت بـ ميزتين :

الأولى : هي التعمق في المعانى واستنباطها ، مما يتجلى ذلك في شعر أبي تمام وابن الرومي وأخوه مليوساً .

والثانية : هي الصناعة الشعرية المتأنقة ، التي تتطلب ألوان الجمال في الأداء ، وتعتمد على النزف البياني في الأسلوب ، من : جناس وطبقاً ، وتشبيه واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب - كما يقول ابن رشيق - «لاتنظر في أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو ترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا النوع فمن غير قصد ولا تعلم ، مما عرفا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التشكيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين بشار وابن هرمة ، ثم قدمهما فيه مسلم ، والعتابي ، والفرى ، وأبو نواس ، واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وبن المعتز .. فاتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به^(٣) ..»

(١) ٨٢ ج ١ العدة . (٢) ٨٢ ج ١ العدة .

(٣) ١٠٨ - ١١٠ ج ١ العدة .

فابن المعز إذاً هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية المتمدة المتکلفة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليه و به ، وكان في العباسين كالو ليد في الأمويين ، وكان متکلفاً مجيداً في تکلفه ، بقدر ما كان الو ليد مطبوعاً مجيداً في طبعه ، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : « وما أعلم شاعر أكل ولا أعب تصنیعاً من ابن المعز ، فإن صنعته خفیة اطیفة ، لا تکاد تظهر في بعض المواضع ، إلا لل بصیر بدقاقة الشعر ، وهو عندي أطف اصحابه شعراً ، وأکثرهم بديعاً وافتئاماً ، وأقربهم أوزاناً وقوافی ، ولا أدرى وراءه غایة لطالها في هذا الباب » ^(١) .

ويقول الجرجاني فيه : وطريقة ابن المعز طريقة أبي تمام ، ولم يكن من المطبوعين ^(٢) ، وكان الجرجاني يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع .

ويقول أبو الفرج في وصف شعره وخصائصه : « هو وإن كان فيه رقة الملوکة ، وغزل الظرفاء ، وهلملة المحدثین ، فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدین ، ولا تقدّر عن مدى الساقین ، وليس يمكن واصفاً تصویح في مجالس اللهو بين ندائی وقیان وعلى میادین من النور والبنفسج والریاحین إلى غير ذلك ، أن يعدل بذلك عما يشبهه من السکلام البسيط الرفق الذي يفهمه كل من حضر ، إلى جيد السکلام ووحشیه ، وإلى وصف الہید والمہامه ، والظبی والظلیم ، والناقة والبلل ، والدبار والقفار » . والأصفهانی يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعز فيه جيد كثیر وإلى أن رقة أسلوبه غالباً ترجع إلى حیاة الملک التي تستلزم الترف وإلى وصفه لأنوار اللهو التي تستدعي رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسيّة الشاعر غالباً عن أغراض الشعر البدوى ، فرقه شعره ودقة تشبيهاته أثر من آثار البيئة فيه .

(١) ١٠٩ العددة .

(٢) ٣٦٢ أسرار البلاغة .

ويقول ابن شرف القيرداوي في رسالة الانتقاد : ابن المعزن ملك النظام له التشبيهات المثلية والاستعارات الشكلية ، والإشارات السحرية ، والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشاق ، ووصف الحسن الفائق .

فن ابن المعزن في التشبيه :

طارت شهرة ابن المعزن الأدية والفنية في باب التشبيه ، وأني في ذلك بما سحر الناس وخلد في صفحات الشعر والأدب . وسار المثل في القديم والحديث بتشبيهات ابن المعزن لأنها أظهر سمة وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصویره لفنه ، وفي الحق أننا لأنجد التشبيه ملکة من الملکات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعزن ، ولأنجد هذه الكثيرة مع تلك الجودة عند أحد سواه . وكان ابن المعزن يقول : إذا فلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففطن الله في (١) .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعزن بمكانة الأدية الكبيرة في باب التشبيه ، يقول البافلاني : وأنت تجده في شعر ابن المعزن من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع من هذا ما لم يتتبع غيره ، وانفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء (٢) ، ويقول الشعالي : تشبيهات ابن المعزن يضرب بها المثل في الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه في شعره فقد جامك الحسن والإحسان وما كان غذى النعمة وریب الخلافة ومنقطع القرین في البراعة

(١) ١٤٦ ج ١ معاهد التخصص . ٦٩٣ ج ١ دائرة المعارف البدستاني ، ومقدمة ديوان ابن المعزن المطبوع بيروت وينسبها الرافعي الذي الرمة (٢٥ ج ٢) آداب العرب للرافعي) ، وهو غير صحيح .

(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للباطلاق .

تهيأ له من حسن التشيه مالم يتهيأ لغيره من لم يروا مارآه ، ولم يستحدنو
ما استحدثه من نفاس الأشياء وطرائف الآلات ^(١) .

ويقول المطوعي : جل كلام ابن المعزن في التشيه عن أن يمثل بنظير
أو شبيه ^(٢) : ويقول العباسى : هوأشعر الناس في الأوصاف والتشيهات ^(٣)
ويقول ابن رشيق : قالت طاقفة الشعراء ثلاثة ، جاهلى ، وإسلامى ، ومواله
فالجاهلى أمرق القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمواله ابن المعزن ، قال ابن
رشيق وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشيه على جميع فنون الشعر ^(٤)
ويقول : ولا بد لكل شاعر من طريقة تقلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل
عليه تناول ما كان المعزن في التشيه ^(٥) ، ويقول الحصري : وليس بعذى الرمة
أكثراً افتناناً وأكبر تصرفاً في التشيه من ابن المعزن ^(٦) ، ويقول الدميري :
هو صاحب التشيهات التي أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره ^(٧) . ويشيد
بتشهيهاته كثير من الباحثين ^(٨) وقد وضع عبد القاهر هذه التشيهات موضع
الدراسة والثقة وأشار بها في الأسرار . وتتوضع تشيهيات ابن المعزن مع
روائع الشعر العربي ، قال الخوارزمي : من روى حوليات زهير واعتذاريات
النابفة وخربيات أبي نواس وزهديات أبي العطاية ومراثي أبي تمام ومداعع

(١) ١٨٢ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب .

(٢) ١٧٤ ج ١ ذهر الآداب .

(٣) ١٤٦ ج ١ معاهد التعميص .

(٤) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٥) ٢٥٥ ج ١ العمدة .

(٦) ٢١٩ ج ١ ذهر .

(٧) ٨٣ ج ١ دميري .

(٨) ٢٢٢ ج ٣ شنرات ، ٣٧٠ الوسيط . ٣٤ العصر العباسى السابعى ييوس

البحترى وتشبيهات ابن المعز لم يخرج إلى الشعر فالمؤت أولى به . ويقول بعض المحدثين : فمن الناس ابن المعز بتشبيهاته كما أسكنم أبو نواس بخمر ياته ^(١) .

وقد قلدء الشعرا في فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم ابن المعز يحيى حذو ابن المعز في التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على قالبه ^(٢) . وكان العقيل أبو الحسن على بن الحسين من أمته المدرسة التي تعنى بالتشبيه وتجيده وهو من شعرا القرن الخامس وسلك مسلك أبي نواس وابن المعز في الخير وتأليف المعانى ^(٣) . وكذلك احتذاه في تشبيهاته : ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ ^(٤) وأبو نواس والواراء ^(٥) ، وابن خفاجه ، وسواهم .

ترجع بوعض هذه الملائكة المصورة في بحث ابن المعز وأسباب تلك القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيهه بعضها ببعض إلى ذهنه الخصب ، وعقليته الناضجة ، وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق ومشاعره المرهفة ، وهيامه الفنى يتذوق الجمال وتصوره وتصويره ، وإلى مظاهر الحضارة وترف الحياة التي عاش فيها ، وإلى مذهب الصنعة الشعرية الذى آثره ليدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكير والحياة .

ويذكرنا أن نصوص التشبيه في فن ابن المعز ، تصويراً واضحاً ، على نمط من التفصيل ، فتقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها ما يأتى :

أولاً : كثرة التشبيهات في شعره كثرة هائلة ، حتى لاخلو قصيدة من

(١) ويشيد بها كثير من علماء الأدب والبيان . (٢) ١٨٣ ج ١ زهر .

(٣) ٢١٤ ج ١ ظهر الإسلام . (٤) راجع ١٥٢ المثل السائر

(٥) شاعر مطبوع منسجم ، الأنماط عدب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه (١٤٦ ج ٢ فوات الوفيات) .

قصائده ، ولاقطعة من مقطوعاته ، من عدة تшибيات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملكة القوية ظاهرة ملوضة في فن ابن المعز فيسائر شعره ، وشئ أغرابه ، وإن كثر ظورها في أوصافه وخرباته وغزله وطرده ، وهو في هذا يبذر جميع الشعراء ، الذين لم يكثروا التشبيه في شعرهم هذه السکثرة ، فقد عكفت ابن المعز على التشبيه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير .

ثانياً : تшибيات ابن المعز تшибيات حسية يعنى فيها بتصوير المحسات ، ياخراجها في مظاهر حسبة يستمدّها من بيته ، هو بصور مظاهر الطبيعة وشئ ألوان الحضارة المادية ، في صور لها سحرها وجمالها الفني الرائع . وتلما يعنى بتصوير الوجانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتتجاوز نطاق الحياة المادي وجمالها الحسي إلى دائرة التخييل والتتصویر للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس في الحياة ، وفاضت صنعته - كما يقول بعض المحدثين (١) - بأصباغ الزخرف الحسي ، الذي لم ينفع في بحوار الفلاسفة . وهي مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة في أروع صورها وأجلها . مما يفيض بالخيال الرائع ، ويزيل مكامن هذه الحياة المترفة التي تتألفها وحالاتها ابن المعز ، بما فيها من مداهن التبر ، وأواني الفضة وصحاف الذهب المخللة بأنواع الجواهر الكريمة ، واللالـ النادرة حتى ليخيل إلى القاريء أن هذا الصبح - مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف - قد استحال على يد ابن المعز ، إلى صبح آخر جديد وذلك هو سر تفردـه في هذا اللون . ثم هذه التшибيات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحسنة البصر ، أكثر من سواها من المحسات ، ولا ابن المعز فن مستقل في تصوير الألوان خاصة من بينسائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الحودة والإحسان ، وسيأتي كثير من مثل

(١) ٨٧ و ٨٠ الصبح البديعي في اللغة العربية - مخطوط .

ذلك في شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعز إذا اضطر إلى تشبيهات عقلية ، استمد صورها من المظاهر الحسية في غالب الأحيان ، فيقول :

رددت إلى التقى نفسي فقرت كما رد الجسم إلى القرب

أو يقول :

اصبر على مضمض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

أو يقول :

لاتجتمعوا بالله ويحكموا غلظ الوعيد ، ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعز في تشبيهاته مصور بارع ، ينقل لك بريشه على صفحة شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هو قوى في تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذنه الخصب ، الذي يقدر الأشياء ، ويقدر الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيهها شعرياً يمثل أصله في كل خصائصه التي أرادها الشاعر ، وصوره من أجلها . ثم هو لم يحب أن يمثل عواطفه في تشبيهاته ، لثلا تخرج عن حقائق الأمور التي تمثلها أمام العقل ، وفي رؤيه البصر ، ثم هو يظهر لك إصياغ صوره كلها دون أن يمزجها بعضها ببعض ، أو يلونها بلون خاص .

رابعا : وظاهر أخرى في تشبيهات ابن المعز هي دقة التصوير التي امتاز بها وبلغ فيها متوى الإجاده ، وتقديم بها على كثير من الشعراء الوصافين . فإنه كان يوضح الشبه بين الشبيهتين توضيحاً بالغاً مما اختلفا في الجنس وتباعدوا في الخيال ، وكثيراً ما كان يجمع أعناق المتنافرات في ربوة . ويعقد بين المتنابيات معاعد النسب والألفة ، مما يدل على دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الحاطر ، وما يعطيه الناقد في كثير منه منزلة الحاذق الصانع ،

والمصور الملمم الذي سبق إلى اخزاع نوع من الصنعة حتى صار إماماً فيه ، وأمسى من بعده عبala عليه ، وتبأله .

فالبنفسج زهر غضيرف ، تبصر فيه زرقة أوراقه وحرة ساقه ، يشبهه ابن المعتن لا يزهر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ، ولكن يشبه بذهب نار لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخد منه له مثلاً ، ثم لم يكن بذلك ، بل دق في التصوير ، ونظر نظرة خاصية غريبة ، فشيءه بزرقة النار ، أول ما تشتعل في الكبريت ، فبلغت غاية التصوير ، وملأ زمام الإجاده ، حين يقول :

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حر اليراقية
كأنها فوق قامات ضعف بها أوائل النار في أطراف كبريت

والصبح حين يظهر في حواشى الظلمية ويدفع الليل دفعاً يشبه ابن المعتن بأشخاص الغربان ، ولسكنه يجعل الغربان يغض قوادم الريش ، ثم يجعل الغربان ذاهبة في القضاء ، طائرة في جو السماء ، يدفعها الخوف لا الرجاء ، فيبدع في ذلك كله ظاية الإبداع حين يقول :

كأننا وضوء الصبح يستعجل الدجي نطير غراباً ذا قوادم جون(١)

فيجيد الشبه والتصوير . ونمام التدقيق والسحر في هذا التشبيه ، في أن يجعل ضوء الصبح ، لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجي ويستعجلها ، ولا يرضي منها بأن تتمهل في حركتها . ثم صور ذلك كله في قوله : « نطير غراباً ، دون أن يقول غراب أو غراب يطير ، وذلك لأن الغراب وكل طائر إذا كان هادئاً واقفاً في مكانه فازعج وأخف وأطير منه كان ذلك أسرع لطيرانه ، ومسيره إلى حيث لازراء العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار ، لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول .

(١) الجون : الأبيض والأسود من الأضداد ، والمراد به هنا الأسود .

والشمس في تموج شعاعها وفي إشرافها واستدارتها يشبهها ابن المعز
بتموج نور المرأة ، ولا يقنع بذلك بل يجعل المرأة في كف الأشل فيقول :
والشمس كالمراة في كف الأشل ، .. ويصور أشعة الشمس في تلاؤها
وإشرافها ووقوع أشعتها على الأرض بالذهب المصوب على الأرض فيقول
في إجاده :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب
خامساً : وابن المعز يسبغ على صوره في التشبيه ظل حياته المترفة
المفعمة بألوان النعيم . فيشبهه الأذريونه بكرووس الذهب التي يحفظ فيها
الطيب وفيها بقية منه ، وإشبهه الترجس بكرووس الدرالي في حشوها العقيق ،
ويشبه العنبر بمخازن البلور .. إلى آخر هذه الأوصاف التي استمدها الشاعر
من حياته وبيته .

أثر حياة ابن المعز وبيته في شعره :

شعر ابن المعز صور أديبية جميلة تمثل حياته المترفة أنت تمثيل ، ففيه
صور كثيرة مستمدّة من الأزهار والورد والجوهر السكريّة وحياة الملوك
ومظاهرها المختلفة .

فهو مثلاً يصف العنبر في شبهه بمخازن البلور ، حين يقول في ابتداع
وتجديد :

كأنه مخازن البلور لم يبق منه وهج الحرر
إلا ضياء في ظروف نور

ويصف المسلال أول ظوره ، حيث يرى قوساً من بياض ، محيطاً
بالظلّام ، فيشبهه بزورق من فضة ، قد ألقته حوصلة من عنبر ، والعنبر أسود
والزورق حين يكون مشدلاً بما يحمل لا يجد منه فوق سطح الماء إلّا جره
صغير أشبه ما يكون بالقوس .

ثم جعل ابن المعتن الزورق من فضة ، ليكون الجزء البادى منه فوق سطح الماء أىض متألاً كما شيرها بالقوس الفضي الصغير الذى ينير من القمر حين يكون هلالا ، ومن هنا جاءت روعة هذه الصورة وطراقتها ، وذلك حيث يقول ابن المعتن في وصف الملائكة :

أنظر لايته كزورق من فضة قد أنقلته حولة من عنبر
ويصف الملائكة أيضاً في صوره بصورة منجل من فضة يقصد من زهر
الدجى نرجسا ، والنرجس هنا يشير إلى ظلام الليل ، والمنجل شيره بقوس
الملائكة ، والفضة تشير إلى ضوء الملائكة ، والمنجل لا يستعمل إلا في الحمد ،
ولذلك ثم جعل ابن المعتن هذه الصورة الجميلة حين جعل المنجل يقصد من زهور
الظلام النرجس وحده ، أى يقصد ما يمثل الظلام في السكون ، فيقول ابن
المعتن في إجاده بارعة في وصف الملائكة :

ـ كمنجل قد صيغ من فضة يقصد من زهر الدجى نرجسا
ومن من الشعراء يستطيع أن يصور هذه الصور الرفيعة ؟ إن الشاعر
المغرور لا يمكن أن يتحدث عن الفضة والذهب والبلور والزهور في شعره
مثلياً تحدث عنها ابن المعتن ، وقد سبق بيت ابن المعتن الذي يصور فيه أشعة
الشمس وقد أرسلت على الأرض بالذهب المصبوب عليها ، وهو :

ـ وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب
ويقول ابن المعتن يصور لهب النار المرتفع من الموقد بأشجار الذهب :

ـ فموقدات ابن يضرمن الهمب
يشبعنه من فحم ومن حطب
يرفعن نيرانا كأشجار الذهب

ـ وهذه الصورة رائعة لأحد جملها ، وهي جديدة التصوير .

موازنات أدية :

١ - يقول البحترى في وصفه العناق :

ولم أنس ليلتـنا في العنـا ق لـب الصـبا بـقـصـيب قـضـيـبا
أخذـه ابنـ المـعـزـ وزـادـ عـلـيـهـ فـيـ المـعـنـىـ وـفـيـ جـوـدـةـ التـصـوـيرـ ،ـ وـدـفـةـ
الـتـعـبـيرـ ،ـ قـالـ :ـ

فلـوـ تـرـانـاـ فـيـ قـيـصـ الدـجـ حـسـبـتـناـ فـيـ جـسـدـ وـاحـدـ
وـهـنـاـ زـرـىـ ابنـ المـعـزـ يـرـقـ فـيـ الأـسـلـوبـ وـالـتـعـبـيرـ وـالـوـصـفـ ،ـ وـيـجـيدـ فـيـ
الـتـصـوـيرـ إـجـادـةـ بـارـعـةـ .ـ

٢ - وقال كثير :

أخذـناـ بـأـطـرـافـ الـأـحـادـيـثـ يـيـنـتـناـ وـسـالـتـ بـأـعـنـاقـ الـمـلـىـ الـأـبـاطـعـ
أخذـهـ ابنـ المـعـزـ فـقـالـ :

سـالـتـ عـلـيـهـ شـعـابـ الـحـىـ حـيـنـ دـعـاـ أـنـصـارـهـ بـوـجوـهـ كـالـذـانـيـرـ
فـقـولـهـ :ـ «ـ سـالـتـ عـلـيـهـ شـعـابـ الـحـىـ »ـ يـقـابـلـ الشـطـرـ الشـانـىـ كـلـهـ مـنـ يـيـعـ
كـثـيرـ .ـ فـهـوـ أـوـجوـرـ ،ـ عـلـىـ أـنـ «ـ سـالـتـ عـلـيـهـ شـعـابـ الـحـىـ »ـ أـبـلـغـ فـيـ التـصـوـيرـ
مـنـ قـوـلـ كـثـيرـ .ـ

٣ - وقال أبو نواس في الراح :

كـانـ صـفـرـىـ وـكـبـرـىـ مـنـ قـقـافـعـهاـ حـصـباءـ درـعـلـ أـرـضـ مـنـ الـذـهـبـ
أخذـهـ ابنـ المـعـزـ فـأـجـادـ حـيـنـ يـقـولـ :

مـنـ كـيـتـ كـانـهـ أـرـضـ تـهـرـ فـ نـوـاحـيـ لـؤـلـؤـ مـغـرـوسـ
فـنـجـدـ ابنـ المـعـزـ يـعـقـدـ الـصـورـةـ تـعـقـيـداـ فـيـاـ وـاـخـاـ ،ـ وـيـرـسـمـهاـ يـأـجـادـ دـوـنـ
أـنـ تـهـنـوـ الـلـوـحـةـ الـتـيـ رـسـمـهاـ ،ـ وـنـجـدهـ مـعـ ذـلـكـ مـجـدـاـ ،ـ وـإـنـ كـانـ لـأـبـيـ نـوـاسـ
شـرـفـ السـبـقـ وـبـسـاطـةـ الـأـدـاءـ .ـ

ع — والعامة تشبه الورد بالخد والخد بالورد . وهو من المبتذل ، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تقله من العامي إلى الخاصي ، أو ضم إليه معنى يشفع به ، كما قال علي بن الجهم :

عشية حياني بورد كانه خدوء أضيفت بعضهن إلى بعض
وهذا من قصيدة ، مدح بها إبراهيم بن المهدى ، ولما سمع إبراهيم منه هذا البيت ، زحف حتى صار فى ثلث الفراش ، وقال : ياقى شبهوا الخدوء بالورود
وأنت شبمت الورود بالخدود (١) . على أن فى بيت ابن الجهم زيادة تبعد
عن الابتذال . وهو إضافة بعضهن إلى بعض .

وقال ابن المعتر فى هذا المعنى ، يصور يياض الورد وما فجوانبه من احرار :

بياض فى جوانبه احرار كما احررت من الخجل الخدوء
فأبدع فى التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجانى فى وساطته :
ولو اتفق له أن يقول حرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل وافق
شبه الخجل (٢) ، قال عبد القاهر : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الورد ،
فشببه على طريق العسكن ، فقال هذا البياض حوله الحمرة كهذه الحمرة حولها
البياض فى وجنة الخجل (٣) ، ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة
وإن عده القاضى الجرجانى غلطًا فى التشبيه (٤) .

ه — وقال أبو نواس فى الراح :

إذاعب فيها شارب القوم خلاته يقبل فى داج من الليل كوكبا
أخذه ابن الصبحاك وأحسن :

(١) ١٥٨ ج ٢ زهر الآداب . (٢) ١٥١ وساطة .

(٣) ١٧٢ ج ٢ العمدة . (٤) ١٧٢ أسرار .

كأنما نصب كأسه قر يكروع في بعض أنجم الفلك
وقال ابن الرومي فيه ، وكان أحسن منها :
فكانها وكان شاربها قر يقبل عارض الشخص
وقال ابن المعز فراد عليهم حيعاً :
وكانه وكان الكأس في فه هلال أول شهر غاب في شفق
وهو أحسن مارصف به كأس على فم .

٦ - ولما كان ابن الرومي هو أقرب شاعر إلى ابن المعز من طبقته ،
فسنوازن هنا في إيجاز بين قصيدتين للشاعرين في موضوع واحد ، لترى من
هذه الموازنة مدى فن كل من الشاعرين ، ولكن هذه الموازنة لاتعطينا حكمًا
حاسمًا على شاعرية أيهما ، لأنه كثيراً ما يأتى أحد الشاعرين بمعانٍ في
موضوع القصيدة لا يأتي بها الآخر ، ومع ذلك فأنما أعرض هاتين القصيدين ،
اللتين اختربما من شعر الشاعرين لتقاربهما في الخيال ، ووحدتهما في
الموضوع ، فوق وحدتهما في الوزن . قال ابن الرومي من قصيدة في وصف
مجلس الراح :

شيس من الحسن في معصفرة ضاحت بلون لها معصفرها
في وجنات تحرر من خجل لأن ورد الريسع حرها
يسعى إليها بكأسه رشا أشه الله وذكرها
في كفه كالشباب لاح على ظلماء ليل دجت فنورها
إن بزت للهواء عبرها أو قرعت بالمراج كدرها
ويقول ابن المعز في مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه جن به مزهر ومزار
وزانه من بنى العباد رشا بالجيد والمقتلين سحار

قد ركبت كفه مشعشعه إبريقها في السّكّاس هدار
يلمع فيها من كل ناحية كوكب نوره إليك نظار
فطللت في يوم لذة عجب وافي به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجي يأخذ من نورها ويمتاز .

١ - في هاتين القطعتين وصف الساق والراح ، وفي قطعة ابن الرومي
زيادة وصف القيمة التي تغنى في مجلس الراح .

٢ - وصف ابن الرومي الساق بالأنوثة ، ووصفه ابن المعز بالسحر .

٣ - شبه ابن الرومي نور الراح في السّكّاس ، بالشمام في ظلام الليل ،
أما ابن المعز فقد شبه السّكّاس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل السّكّاس
يأخذ من نورها ويمتاز .

٤ - وصف ابن الرومي الراح بأنها أصنعي من الماء وألطف من المواه ،
ووصفها ابن المعز بكوكب نور متقد .

٥ - ألفاظ ابن المعز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومي .

٦ - وابن الرومي في جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات
ولكن ابن المعز يقف عند حدود التصوير ، لا يعتمد لمزج تلك الأصياغ
بعضها بعض ، بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ - وابن الرومي يفوته أحياناً ما هو أبلغ في الوصف . وأروع في
أداء الغرض . من حيث لا يفوته ذلك ابن المعز . كمارأينا في وصف ابن
الرومي للساق بالأنوثة ، ووصف ابن المعز له بالسحر .

وابن المعز يتتفوق على ابن الرومي تفوقاً ظاهراً حين يصف مظاهر
الشرف والملوكيّة في حياته . . ويروى أن لأنّه لام ابن الرومي ، وقال له :
لم لا تشبه تشبيهات ابن المعز وأنت أشعر منه ؟ فقال : ألا تندم شيتاً من
قوله ، الذي استعجزتني عن مثله ؟ فأشدده قوله في الحال :

انظر إلية كزورق من فضة قد أنقلته حولة من عبر
فقال زدنى ، فأنشدـه قوله في الأذريون (وهو ذهر أصفر في
وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كان آذريونها والشمس فيها كالية
مباهن من ذهب فيها بقايا غالبة

فصاح : واغوناه لا يكـفـ الله نفـساـ إلا وسعـهاـ ، ذاكـ إنـماـ يـصـفـ مـاعـونـ
بيـتهـ ، لـأـنـهـ أـبـنـ خـلـيـفةـ ، وـأـنـاـ أـيـ شـيـ أـصـفـ ؟ـ وـلـكـنـ انـظـرـ إـذـاـ وـصـفـ
مـاـ أـعـرـفـ ، أـبـنـ يـقـعـ قـوـلـيـ مـنـ النـاسـ ، هـلـ لـأـحـدـ قـطـ مـثـلـ قـوـلـيـ فـيـ
قوـسـ العـنـامـ :

على أحمر في أصفر إثر مبيض
يمطرزها قوس السحاب بأخضر
كمذيبال خود أقبلت في غلالـ
و قولـيـ في صـانـعـ الرـقـاقـ :

يدـحـوـ الرـقـاقـةـ مـثـلـ الـلمـحـ بـالـبـصـرـ
ماـيـنـ رـقـيـتهاـ فـيـ كـفـهـ كـرـةـ
إـلاـ بـعـقـدارـ ماـ تـنـدـاحـ دـائـرةـ

وقـولـيـ فـيـ قـالـيـ الزـلـاـيـةـ :

رأـيـتـهـ سـحـراـ يـقـلـ زـلـاـيـةـ
يلـقـيـ الـعـجـينـ لـجـيـنـاـ مـنـ الـذـهـبـ

نـقـدـ لـشـعـرـ أـبـنـ المـعـنـ:

أولاً : يأخذ بعض السكتاب على ابن المعن أنه لا يزيد في صوره الفنية
على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك ، دون أن يعبر في تصويره عن خلجان
نفسه ومشاعره ، فهو حين يشبه الملائكة بزورق من فضة أنقلته حولة من

عتبر ، لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الملال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ومع ذلك فلم يحسن في نقل نسخة تامة الشبه بالملال ، ويكتفى أن تصور الملال في خيالك ثم تصور بخياله زورق ابن المعتن ، لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتن من منظر الملال الجليل . وكذلك تصويره للملال بمنجل الفضة الذي يقصد من زهر الديجى نرجسا ، ففضلا عن أنه لا تشابه بين الملال والمنجل إلا في الشكل الخارجي ولا صلة بينهما في الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك راح ابن المعتن يصنع المنجل من الفضة ، ثم يجعله يقصد النرجس ، وليسكن لهذا النرجس زهر ، وليسكن هذا الزهر نابتا في الديجى ، وليس وراء ذلك كله شيء من العاطفة والإحساس أو إدراك شيء من خفايا الجمال ، وأسرار العاطفة .

وهذا نقد لا يقوم على أساس ، ويخلص فيما يلى :

- ١ - أن البيتين السابقين لا يصوران الملال تمام التصوير .
- ٢ - أن التشيه عند ابن المعتن فن عالص ولكن لا حياة فيه .
- ٣ - أنه في تشيهه بعيد الفكر ، بعيد عن الوضوح .

١ - وردنا على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للملال تصويرا تماما سفسطة . ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبه هو جو الشاعر الفرنسي الملال بمنجل من ذهب راع أعلام الأدب الفرنسي ، فكيف يراغون لو كانوا يعلمون بما أدى به ابن المعتن .

٢ - وردنا على الثاني هو أن فن ابن المعتن في التشيه لا يخلو كله من التعبير عن عواطفه وشعوره ، وما خلا من ذلك فإنما كان الشاعر فيه يسابر الفن الخالص ، لثلا تبعد الصور التي يرسمها عن حقيقتها المرسومة ، وأى ضمير على الفنان في ذلك ، وهل اتفق النقاد بعد على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون هذا التصوير بلونها الخالص ؟ اللهم لا ، على أن الفن وحده

مهما سار في طريقه بعيداً عن العاطفة ، فهو وحده مظاهر يستثير العاطفة والوجدان .

٣ - وردى على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء في الأدب ، لا تزال محل بحث النقاد لأن ، ولم ينفع عليها بعد اثنان ، فالجاحظ حين كان ينادي بالوضوح والإفهام ، وبأن البلين من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعوا إلى أن يجتهد المتكلم في تهذيب اللفظ وترتيبه ، وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الإبانة ، ولم ير أن خير الكلام العامي المرذول . والمقاصى الجرجاني لم يحاسب المتنبي في وساطته على عمقه في التفكير والتوصير ، لأن ذلك سمة عامة في شعر المحدثين ، وعبد القاهر في أسراره يقسم الغموض إلى ما فيه التعقيب في الأداء غيره ، وإلى ما فيه الدقة في المعنى فيشيد به ، ويرى أن المعاف الشريفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى ساق ، ورأى بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض في فن المتنبي هو سر عبريته الشاعرة ، التي ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء .

ثانياً : ومن ردى الشعر قول ابن المعزن :

أرى ليلاً من الشعر على شمس من الناس
فاجمع بين الليل والناس ردى ، وقد وقع هنا باردا ، كما يقول
أبو هلال (١) :

ثالثاً : ويأخذ بعض النقاد على ابن المعزن قوله في وصف كتاب قد
شكلت حروفه :

بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

(١) ٢٤٩ الصناعتين .

لأنه مدح الكتاب يجعل مطاعوره شوكا ، وإن كان لا يحظى الشبه التام
في صورته ، لكنه بالذم أشبه (١) .

ويمكن أن يقال إن ابن المعز إنما يلاحظ الشكل في الشبه دون ماسواه .

نماذج لشعر ابن المعز

١ - من شعره في الغزل :

أو علا منها خلاء قفارا	قف خليلي نسأل لشرة (٢) دارا
واستجابت قلبها فطارا	البسني سقها أقام وسارت
جعل الدهر موعدا وانتظارا	لى حبيب مكتنبا بالأمانى
واتقوا أخذ طرفها السحارا	أيها الركب بلغوها سلامى

٢ - قوله في وصف الخنزير :

دع مازاه وخذ رأي خسبك في	يامن يفندى في الله والطرب
لقد جذبت جوحا غير منجذب	أف المدامة تلحافى وتعدانى
راح اترى من الأحزان والكرب	وقد يباكرنى الساق وأشر بها
حتى تغلغل سلك الدر فى الثقب	مازال يقبض روح الدين ميزله (٣)
وأنبت الدر فى أرض من الذهب	وأمطر السكاس ماء من أبارقه
نورا من الماء فى نار من العنبر	وسينج القوم لما أن رأوا هجبا
يقيمه الفان بين الصدق والكذب	لم يبق فيها البلا شيئا سوى شبح

٣ - وقال في الفخر :

أيها السائل عن الحسب الأط

(١) ٢٥٢ طراز المجالس

(٢) اسم محبوبة كان يتغزل بها الشاعر ، ويتأله بها باسمها كثيرا
فينطبق به : شر ، وشيرية

(٣) المبلل المثقب الذي يثبت به ختم العنب ، والمصنفة أيضا

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القربي فماذا ت يريد ؟
ولنا ما أضنه صبح عليه وأنته رايات ليل سود
وملائكتنا رق الإمامة ميرا ثا ، فمن ذا هنا بفخر يحيد ؟

٤ - وله كذلك في الفخر والشكوى :

خليل إن الدهر ماتريانه نصبرا، وإن لأى شئ سوى الصبر ؟
سألتكم بالله ما تعلمـاتـى ولا تكـنـا شيئاً فـعـنـدـكـمـ خـبـرـى
أرفع نيران القرى لعـانـها
وأضرـبـ يوم الـوعـ في ثـغـرةـ النـعـرـ ؟
وأسـالـ نـيـلاـ لـاـيـجـادـ بـنـيـلـهـ فيـفـتحـهـ بـشـرـىـ وـيـخـتمـهـ عـذـرىـ ؟
ويـارـبـ يـوـمـ لـاـيـزـولـ ظـلـامـهـ مـدـدـتـ إـلـىـ المـظـلـومـ فـيـهـ يـدـ النـعـرـ
فـسـبـحـانـ رـبـيـ مـاـلـقـوـمـ أـرـىـ لـمـ كـوـاـمـ اـضـغـانـ عـفـارـبـهاـ تـسـرـىـ
إـذـاـ مـاـ اـجـتـمـعـنـاـ فـيـ النـدىـ تـضـالـمـواـ
كـاـ خـقـيـتـ مـرـضـىـ السـكـوـاـكـبـ فـيـ الـفـجـرـ
بنـوـ الـعـمـ لـاـ بـلـ هـمـ بنـوـ الـفـمـ وـالـأـذـىـ
وـأـعـوـانـ دـهـرـىـ إـنـ تـظـلـمـتـ مـنـ دـهـرـىـ

النشر الفنى في العصر العباسى الأول

نهض النثر الفنى في هذا العصر نهضة لم يبلغها قبل ذلك في عصر من العصور ، فقد رقت الأساليب ، وعذبت الأنفاظ ، وعمقت المعانى ، وسمت الأخيلة ، وتعددت الأغراض ، واتسعت الأفكار . وذلك كله بما تناهى للعباسيين من حضارة ومدنية وتعدد في صور الحياة ، ومظاهر العيش ، وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعرف (١) الأجنبية .

وقد كان ابن المقفع من أشهر الكتاب الدين وضعوا أصول النثر الأدبي الفنى في الأدب العربى ، وقد أسهم مع عبد الحميد السكاكى في دعم كيان هذا النثر ، وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع جانبا من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثرا واسعا بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابية الفنية ، ومنهم : يعقوب ابن داود وزير المهدى ، وأبو الريبع محمد بن الليث الذى كتب للهجرى والمادى والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هرون (٢) ، ويحيى بن برمك ، ثم ابناه: جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٩٧ م) وأخوه الفضل ، والحسن ابن سهل (٣) ، وأخوه الفضل (٤) ، وأحد بن يوسف (٥) م ٢١٢، وعمرو

(١) راجع بлагة بن العباس فى البيان والتبيان للجاحظ (٣ : ٣٦٦ - ٣٨٧) ط الخامنوى .

(٢) راجع : ١٥٥ : ١ البيان ، ٢٨٢ : ٢ ذهر ، ٢٦٠ : ٣ ذهر الأداب أيضاً .

(٣) يشيد به الجاحظ (٨٤ : ١ البيان) ، وله كلمة يعرف بها أنواع الأداب

١٩٥ : ١ ذهر .

(٤) تهناه يحيى البرمكى وضمه إلى المؤمنون (٧٤ المكافأة) وأشاد المصرى ببلاغته (١٦ - ١٩ : ٢ ذهر) .

(٥) له ترجمة في الأوراق قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ - ٢٣٦) وكأن عال =

ابن مسدة ٢١٧هـ ، والعتابي م ٣٢٠هـ^(١) ، ومحمد بن يزداد وزير المأمون^(٢) .

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفنى منزلة ساقمة ، وامتاز بسمولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعانى وأختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه بل الاحتفال بها والطعن فيها سواها ما شكا منه النقاد^(٣) ، وما ل الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلاد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان » أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ألح ، لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويلتبسىء ويختدر وينذر^(٤) . والإطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابه التاريخ ، يقول ابن الأثير : « والعجم يفضلون العرب في الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتاباً من أورله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص

= الطبقه في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه ، ولوه شعر جيد (٤٨ ج ٣ ذهر) ، وكان من نبلوا بالسكنية (١١ ج ٣ العقد) ، وهو أول من افتتح المكتبة في التهانى بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١ ديوان المعان) .

(١) راجع ١٧٥ فهرست ابن التديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .

(٢) راجع ٢٤٤ معجم الشعراء .

(٣) ص ٢ أدب السكاكن لابن قتيبة بهامش المثل السائر ، ٤٤ و ٤٣ رسائل المحافظ حيث يقول المحافظ : والناثيء من السكاكن إذا وطئ مقعد الرياسة يكون أول يدوه الطعن على القرآن في تأييفه وألا يرتفع من السكاكن إلا المنافق ألح ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفي رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٤) راجع مقدمة أدب السكاكن

وأحوال كما فعل الفردوسى في نظم الشاهنامة وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب قنونها ^(١) ، ولم يحصل الكتاب في أوائل العصر العباسي الثاني بالبديع ، والتألق الكبير في الأسلوب ، ويغيب البديع الماحظ بأن «كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة أخ» ^(٢) ، كما عابه الباقلانى بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه ^(٣) .

وكان حامل لواء الطريقة الجديدة إمام البيان الماحظ ، واقتدى به كتاب حضره ، كالصولى وابن الزيات والحسن وسلیمان ابن وهب وسعيد ابن حميد وأحمد بن إسرائيل والحسن بن خلاد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهنود وظهر أثر ذلك في تفسيرهم وإنتحاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الأواني .

وقد تأثر بأسلوب الماحظ الأدباء الذين آتى لهم الرعامة الأدية بعده ، كان المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر الأديب المشهور . وآخر من تأثر بالماحظ هو التوحيدى (المتوفى عام ٤٠٥ : ١٠٠٩ م) ، وقد ذاع في شهر فى هذا العهد أولان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية ، والوسائل الإخوانية ، والرسالة الأدبية ، والتوفيق ،

(١) ٤ ج ٢ المثل السائر ، وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة في هذا العصر كرسالة أخيه (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ - ابن طيفور مخطوط) .

(٢) ٨٢ مقامات البديع - المقامات الماحظية ، ٢٠٩ ج ٢ ذهر .

(٣) راجع ١٩٤ إعجاز القرآن .

والمقامة ، والأدب الوصفي ، وأدب الطبيعة ، وأدب القصة ؛ وسوى ذلك من فنون النثر الأدبي في هذا العصر الظاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت في هذا العصر كتب أدبية جامدة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجاحظ ، وأدب الكاتب ؛ وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على أيدي الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعز وقادة بن جعفر وسراجم .. ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبي قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته في هذا العصر الحافل .

ولسوف سنتحدث بالتفصيل عن كل لون من أنواع النثر في هذا العصر ، مبين العوامل التي أثرت فيه ، والظواهر التي جدت عليه .

(١) الخطابة في العصر العباسى الأول

صور من الخطابة :

١ - خطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

«ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ،
جهنم يصلونها ويدرسون القراء ، نكصونكم يا هل الشام آل حرب وآل مروان ،
يتسلكون بكم في الظلم ، ويتهرونون بكم في مداحض الزلق ، يطاؤن به حرم
الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماً كم غداً ؟ يقولون : ربنا هؤلاء أصلونا
فآتتهم عذاباً ضعفاً من النار » : إذاً يقول الله عز وجل : « لسکل ضعف
ولكن لا تعلمون » .

أما أمير المؤمنين فقد انتقد بكم التوبة ، واغفر لكم الزلة ، وبسط لكم
الإقالة ، وعاد بفضله على نقصكم ، وبحلمه على جهلكم . فليفرخ روعكم^(١)
ولتطهّن بكم داركم ، ولتعظمكم مصارع أولئكم ، فتلك يومهم خاربة
بما ظلموا » .

٢ - وخطب سليمان بن علي عم أبي العباس ، فقال :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى "صالحون
إن في هذا بلاغاً لقوم عابدين" ، قضاهم مبرم ، وقول فضل ، وما هو بالمزل .
الحمد لله الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين
أنجدوا الكعبة غرضاً^(٢) ، والقى إرثاً ، والدين هزوأ ، وجعلوا القرآن

(١) يقال أفرخ روعه : أي خلا قلبه من الحم وعلي هذا يكون معنى أفرخ خلا ،
ومعنى الروع القلب ، أما قوله : أفرخ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف .

(٢) إشارة إلى ما نال الكعبة من بني أمية من هدم وتدمير في فتنة الزبير .

عضين^(١)، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكأين ترى من بئر معطلة وقصر مشيد^(٢) ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبد ، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب ، واضطهدوا العترة ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكثروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً .

٣ - وخطب أبو جعفر المنصور بالمداشر عند قتل أبي مسلم الخراساني فقال :

«أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسرروا أغش الأمة : فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده ، وفتنات لسانه ، وصفحات وجهه ، وأبداه الله لإمامه باعزاز دينه ، وإعلامه حقه .

إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص ، أجز رناه خبيه هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بایعنينا وبایع الناس لنا ، على أنه من نکث بنا فقد أباح دمه ، ثم نکس بنا فکمنا عليه لأنفسنا حکمه على غيره لنا ، ولم تعننا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه .»

٤ - ومن خطبة للمنصور :

يا عباد الله لاظالموا ، فإنها مظللة يوم القيمة ، والله لو لا يد خاطئة ،

(١) العضة . الفرقة ، وجمعها عضون ، والمعنة « بالهاء » الكذب وجمعه عضون أيضا . فعنى جعلوا القرآن عضين ، جعلوه أجزاء ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال آخرون هو سحر ، وقال غيرهم كهانة . وقيل جعلوه كذبا .

(٢) المشيد : المطل بالشيد وهو الجص ، والمشيد « كسرم » المطول

وظلم ظالم ، لم يشيت بين أظهركم في أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق
بـهذا الأمر مني لأننيته حتى أدفعه إليه ^(١) .

٥ — ومن خطبة للسفاح في الكوفة حين بُويغ بالخلافة :

يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ; ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تغيروا
عن ذلك ، ولم ينسكم تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأنتم
الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ^(٢) .

٦ — خطبة للمأمون :

خطب المأمون وقد سلم الناس عليه بالخلافة حين بلغه بخبر اسان قتل
أخيه ، إذ أقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فصعد المنبر وحد الله وأثنى عليه
وصلى على زيه ثم قال :

إِنَّ الْأَنْسَارَ إِنِّي جَعَلْتُ لَهُ نَفْسًا ، إِنَّ اسْتِرْعَاكَ أَمْرَكَ أَنْ أَطْبِعَهُ فِيمْكَ ،
وَلَا أَسْفَكَ دَمًا عَمَدًا إِلَّا تَحْلِمَهُ حَدُودُهُ ، وَتَسْفَكَهُ فَرَاثَتُهُ ، وَلَا آخِذُ لِأَحَدٍ
مَالًا وَلَا أَنْثًا وَلَا نَحْلَةً ^(٣) تَحْرُمُ عَلَى ، وَلَا أَحْكُمُ بِهَا فِي غُصْبِي وَلَا رَضَايَ ،
إِلَّا مَا كَانَ فِي اللَّهِ وَلَهُ ، جَعَلْتُ كَلَهُ لَهُ عَهْدًا مُؤْكَدًا ، وَمِنْتَاقًا مُشَدَّدًا .

إِنِّي أَفِي رُغْبَةٍ فِي زِيَادَتِهِ إِيَّاهُ فِي نَعْمَى ، وَرَهْبَةٍ مِنْ مَسْأَلَتِهِ إِيَّاهُ عَنْ
حَقِّهِ وَخَلْقِهِ ، فَإِنْ غَيْرَتْ أَوْ بَدَلتْ كَسْتَ لِلْغَيْرِ ^(٤) مُسْتَأْهَلًا ، وَلِلنَّكَالِ ^(٥) ،

(١) ٣ : ٢٣ : جمهرة خطب العرب

(٢) ٢ : ٢١٣ : شرح ابن أبي الحديد

(٣) نحله أعطاءه والاسم النحله

(٤) الغير : الأحداث

(٥) النكال : العقاب

معرضنا وأعوذ بالله من سخطه وأرعب إليه في المعونة على طاعته، وأن
يحول بيني وبين معصيته^(١).

وهذه الخطبة في مناسبة معروفة و موقف رهيب ، إذ خطب بها المأمون
الناس لما بلغه قتل أخيه الخليفة ، وقد أقبل الناس عليه يبايعونه بالخلافة ،
وفيها يعلن المأمون سياساته نحو رعيته ، وهي أنه سوف يتلزم ما ألزم الله
به في معاملة الشعب ، ويعلن احترامه للدماء والأموال ، وأنه لن يحكم
يهواه في رضا ولا غضب ، وأنه يلزم نفسه العمل بما ألزم الله به الله عزوجل ،
وينبئ بمهده مع الله رغبة في زيادة نعمته ، ودفعا لحسابه ومسئنته .. ويؤكد
المأمون العهد وأنه لن يغير أو يبدل شيئا منه وإلا كان للخطوب والعقاب
مستحقا ، ثم يتغوز بسخط الله ويرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن
يبعاد بينه وبين معصيته .. وأسلوب الرسالة فيه إيجاز شديد ، وتشتمل على
حكم عالية ، مع البلاغة النادرة والروعـة الفاتحة ، مما يدل على علو منزلة
المأمون في البلاغة ، ونبات قدمه في الفصاحة .

هـ - خطبة داود بن علي على منبر السكوفة :

كان داود بن علي بن عبد الله بن عباس خطيب بنى العباس وأحد
مؤسسى دولتهم ، نشا هو وإخوته . وكانوا اثنين وعشرين رجلا - في
قرية الحبيمة من أعمال عمان^(٢) ، وكان الوليد بن عبد الملك أجل علي بن
عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها غضباً عليه ؛ وخوفاً من وثوبه إلى
الملك والخلافة .

وأخذ هو وإخوته عليهم وأدبهم على حبر قريش وابن حبرها

(١) ١١٩ و ١٢٠ الجزء الثالث من جهرة خطب العرب لأحمد صفت
ط ١٩٣٣

(٢) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية وهي الآن مقبر إمارة شرق الأردن

وبلغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعبد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لخم وجذام وتونخ وغسان وفيهم فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجاذبهم صفات الحضر من الانغماس في الترف والملذات والعمى على الملاهي .

وكان داود أحد النابغين من إخوته في هذه الصفات ويزيد عليهم أنه كان بلغتهم ولسانهم وأخطفهم في وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه في الدولة . ولاء أبو العباس - عقب بيعته بالكوفة - ولاية الكوفة وسودادها ، ثم ولاء إمارة الحاج في هذه السنة ، وولاء معها ولاية الحجاز واليمن واليامنة ، فقتل من ظفر بهم من بنى أمية في مكة والمدينة في هذا العام ١٣٢ هـ - وهو أول موسم ملكة بنو العباس ، وخطبهم خطبة الآية بعد ، ثم ذهب عقب الموسم إلى المدينة ، فتوفي بها بعد شهرين من قدوله إليها في شهر دينember الأول سنة ١٣٣ هـ .

ولداود خطبة بلغة خطبها يوم بيعة أبي العباس السفاح على منبر الكوفة ، وهي . « الحمد لله ، شكرًا شكرًا إنا والله ما خر جنا لمحفر فيكم نهرًا ، ولا لنبني فيكم فصرًا ، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن أرخي له من خطامه حتى عثر في فضل زمامه ؟ فالآن (١) حيث أخذ القوس باريها وعادت القوس إلى النزعة (٢) ، ورجع الملك في نصابه في أهل بيته النبوة والرحمة ، (والله لقد كنا متوجع لكم ونحن في فرشنا) ، أمن الأسود والأحرار ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمة العباس ، لا ورب هذه البنية - وأو ما يده إلى الكعبة - لأنبيج منكم أحداً ..

(١) ظرف لأمن الأسود .

(٢) جمع نازع وهو الرأى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم .

وهذه الخطبة الموجزة البليغة الرائعة تتضمن كل ما يمكن أن يقوله خطيب في هذا المقام ، وكل ما كان يجب أن يقوله هذا الشاعر العظيم في هذه المناسبة .

وقد اشتغلت على حمد الله وشكره على هذا النصر العظيم ، وعلى نفي أن يكون العباسيون قد قاموا بدورتهم لغرض شخصي ، من حب السيطرة أو حب الدنيا ؛ وعلى بيان مثالب الأمويين ومساوئهم في الحكم . كما تضمنت التصريح بعودة الخليفة إلى أهلها وأصحابها من آل النبي الذين خرجوا لينتصروا للشعب الإسلامي الثائر ؛ ثم أمن داود بن علي الناس ، اللهم إلا الأمويين خصوم العباسيين والمطاردين منهم بعد أن دالت الدولة لهم ، وأخذوا منهم مقابلات الخليفة ، وزعامة الإسلام .

وأسلوب الخطبة يمتاز بالجزالة والقوة والبلاغة، وبالإيجاز ، مع ما فيها أحيانا من سجع مطبوع . ولا شك أن هذه الخطبة تمثل المثلثات العربية السليمة في هذا العصر .

٦ — ووصى عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه فقال:

«أي بنى ، إني مؤد حق الله في تأدليك ، فأد إلى حق الله في الاستماع مني ، أي بنى . كف الأذى ، وارفع البذا^(١) واستغن عن الكلام بطول الفسکر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحدى مشورة العاقل إذا كان غاشياً ، لأنه يرديك بشورته ، واعلم يابني أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نافتاً ، ووجدت هواك يقطنان ، فليراك أن تستبدل برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا تزدلك ، وأن نتيجته لا تهيني عليك » .

(١) البناء : السفة والآفات في المنطق .

٧ - وخطب المأمون خطبة الجمعة فكان مما قال :

«أوصيكم عباد الله ونفسي بقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والشجاعه
لوعده، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه،
فأتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبغى بما يزول
عنهكم ويغنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جد بكم (١) ، واستعدوا للموت فقد
أظلمكم ، وكونوا كقوم صبح فيهم فانتهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم
بدار فاستدلوا . فإن الله عزوجل لم يخلقكم عبنا ، ولم يترككم سدى ، وما بين
أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تقصصها المحظة
وتهدمها الساعة الواحدة بلجيرة بقصر المدة ، وإن غايباً يحدوه الجديدان
الليل والنهر بلجدر بسرعة الأوبة ، وإن قادما يصل بالفوز أو الشقة لمستحق
لأفضل العدة » .

٨ - وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تهيأ لقتال الحوارج
 فقال : «إنكم فتنة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذين عن دينه ، الذين عن
عن محارمه ؛ والداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبه ، والطاعة لولاة
أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين . فاستدرجوا موعد الله
ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشرروا وتمردوا ، وشقوا
العصا (٢) ، وفارقوا الجماعة، ومرقو من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً،

(١) الجد في الأمر : الاجتياه ضد المزول ، وقولهم «أجدك لافعل» ،
بكسر الجيم استخلاف بالحقيقة ، وبالفتح استخلاف بالبحث ، وإذا قيل «أجدك
لا فضل ، فتح لغير» .

(٢) أصل العصا الاجتماع والاتلاف وشقوا العصا أي شقوا الاجتماع
والاتلاف وفرقوا الجماعة ، وأصل ذلك أن الحاديين يكونان في رفقة فإذا فرقهما
الطريق شقت العصا التي معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها ويضرب بكل فرقة .

فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

فليكن الصبر معلقكم الذي إليه تلتجأون ، وعدكم التي بها تستظمرون ، فإنه الورز المنبع الذي دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة ، التي أمركم الله بلباسها ، خضوا أبصاركم ، واحفتو أصواتكم في مصافكم ، وامضوا أقداما على بصائركم فارغين إلى ذكر الله والاستعانته به كأمركم الله ، فإنه يقول : « إذا لقيتم فتة فاثبتوها واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، أيدكم الله بعز الصبر ، ووليسكم بالخاطئة والنصر » .

٩ - حوار بين المؤمن وإبراهيم بن المهدى :

لما ظفر المؤمن بعمه إبراهيم بن المهدى (١) أمر يادحالة عليه ، بغيره به يحصل في قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المؤمن : لاسم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلّك يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم على رسالتك يا أمير المؤمنين ، ولـي الثار حكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار في الأمل مجحت به الآلة على التلف ، وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فإن تعاقب بحقك ، وإن تعف بفضلك ، ثم أنشأ يقول :

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
نحو بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن في فعال من المكرام فكـنه

(١) لما عقد المؤمن ولاية العهد على الرضا العلوى أنكر العباسيون عليه ذلك وخلعوا من الخلافة وبایعوا بها عمه إبراهيم بن المهدى فاسرع إلى المؤمن فهرب وتوارى ولكن المؤمن ظفر به .

فأطرق المأمون ملياً ثم رفع رأسه فقال : إن شاررت أبا إسحاق والعباس في قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لها يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لها : بدأنا له ياحسان ونحن نستأمره فيه ؛ فإن غير الله يغير ما به ، فقال : أما أنا يكوننا قد نصحاك في عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعل ، ولكن أية أن تستجلب النصر إلا من حيث عررك الله . ثم استعبر باكيًا ، فقال له المأمون : ما يبكيك ، قال : جذلا ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صفتة في الإنعام ، ثم قال يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي خلأمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوه ، ولـى بعد ما شفاعة الإفرار بالذنب ، وحرمة الآب بعد الآب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحقيقة ، والندم توبه ، وعفو الله يذهبما وهو أكبر ما يحاوـل ، يا إبراهيم لقد حبـيت إلى العفو حتى خفت ألا أوجـر عليه ، أما لو علم الناس مـالـنا في العـفو من اللـذـة لـتـقـرـبـوا إلينـا بـالـجـنـيـاتـ ، لا تـثـرـيـبـ عـلـيـكـ يـغـفـرـ اللهـ لـكـ ، ولو لم يكن في حقـ نـسـبـكـ ما يـلـغـ الصـفـحـ عن زـلـكـ لـبـلـغـكـ مـاـمـلـتـ حـسـنـ توـصـلـكـ ، وـلـطـيفـ تـنـصـلـكـ ، ثم أمر بـرـدـ مـالـهـ وـضـيـاعـهـ .

١٠ - دخل معن بن زائدة الشيباني على المنصور وقد أسن فقارب في خطوه فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يا معن . قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك جلد . قال على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقة ، قال هي لك يا أمير المؤمنين ، قال فـأـيـ الدـوـلـتـينـ أـحـبـ إـلـيـكـ ؟ هذه أم دولة بيـنـ أـمـيـةـ ؟ قال : ذلك إليـكـ يا أمـيرـ المؤـمنـينـ إنـ زـادـ بـرـكـ عـلـ بـرـمـ كـانـهـ دـوـلـتـكـ أـحـبـ إـلـيـ .

١١ - ومن أقوال الواعظ ماريـوـيـ أنـ ابنـ السـمـاـكـ دـخـلـ عـلـ الرـشـيدـ ، وـقـالـ لهـ الرـشـيدـ : عـطـنـيـ . قالـ : يـاـ أمـيرـ المؤـمنـينـ ، اـتـقـ اللهـ وـحدـهـ لـاشـرـيكـ لـهـ ، وـاعـلمـ أنـكـ غـدـأـوـاـقـفـ بـيـنـ يـدـيـ اللهـ رـبـكـ ، ثـمـ مـصـرـوـفـ إـلـىـ إـحـدـىـ مـنـزـلـتـينـ لـأـثـاثـ لـهـ : جـنـةـ أـوـ نـارـ ، فـبـكـيـ الرـشـيدـ حـتـىـ أـخـضـلـتـ لـحـبـتـهـ ، فـأـقـبـلـ الفـضـلـ بـنـ الـرـيـعـ

على ابن السماك فقال: سبحان الله ! وهل يتخلج أحد شرك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكي الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

تطور الخطابة في هذا العصر

أسباب رقيها :

كان قيام خلافة بنى العباس انقلابا خطيرا هز المشاعر؛ وأثار الخواطر وأهاج النفوس، وقلب الأوضاع، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة، واستدعي تأليف إيماءات، وقيام الكثير من الدعوات، وحضر الناس على التشيع لبني هاشم، وإعلان السخط والإإنكار علىبني أمية، وسياستهم الجائزة، وما اقتربوه من سينات، وارتکبوه من منكرات.

ولاشك أن حدثاً جليلاً مثل هذا الحدث ، لابد أن يستعان فيه بالخطابة على جذب القلوب ، وكسب الأنصار ، وتحميس المتشيعين ، وتأجيج نار البعض على الدولة الغابرة ، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظافرة .

وكان من شأن بنى العباس أن يقيموا الدعاء ، ويبثوا الخطباء في كل مكان يعلنون باللحجة الساطعة حقهم في خلقة المسلمين ، وإمامية الناس بعد مسجد المرسلين

كما كان من شأنهم أن يعنوا عنساً ية باللغة بالمواسم الدينية، والأعياد الإسلامية فهم يخرجون في مواكب رائعة وجموع حاشدة، ويسيرون بين الصفوف المرصوصة، حتى يصلوا إلى المسجد، ثم يدخلون في خشوع ووقار

وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤمنون الناس ويختبئونهم ، ويلقون عليهم بلين العذات ، ورائع الآيات ، حرصاً منهم على الظلم وبظاهر الإلامة الدينية ، والزعامنة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظاهر هو الذي تأسس به ملوكهم وقامت عليه دولتهم .

لذلك كان للخطابة في عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ، ومنزلة كريمة ، و شأن عظيم .

وزاد من نهضتها ورقها في مطلع هذا العصر ما كان عليه مؤسس الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة المسكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر العي والمسكينة والضعف لم يكن قد ظهر بعد في مظهره الشديد .

وقد آثر الملوك ما كانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ؛ يروى (١) أن بشر بن المعتمر من يواهيم بن جبلة ابن مخرمة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف لاستفادة أو ليكون رجلاً من النظارة ، فقال بشر : « أضرروا عما قال صفعاً ، واطروا عنه كشعاً ». ثم دفع إليهم صحيفتين من تحبيره وتمييقه وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإنجاها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرآ ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الأيماع ، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ؛ ولإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلفك إلى التعقيد ، والتعقيد يستملّك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريماً فليتّمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقّهم ما أن تصونهما

(١) ١٢٦ : ١ البيان والتبيين للجاحظ - الطبعة الثانية - نشر التجاربة .

غما يفسدهما ويهجئها ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس إظماماً لها وترهن نفسك بملابسها وقضاء حقها .. الخ.

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء بعيشون في البادية ، حيث الفصاحة واللسان والبيان وقوة الحجة وشدة العارضة ، وقد كثروا فوردهم على الخلفاء للاستمناخ والشكوى والاستعطاف وغير ذلك .

فلا عجب إذن أن تهضم الخطابة وتزدهر ، ويعلو شأنها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المفوهون .

ولقد كان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام محفوظ ، فقد استدعي الأصمعي لتأديب ولده ، وقال له : أريد أن يصل بالناس في يوم جمعة ، فاختار له خطبة ، وحفظه إياه ، حفظه عشراء ، نفرج وصل بالناس ، فأعجب به الرشيد (١) .

ثم وكل الخلفاء والأمراء والولاة الخطابة في الناس ، إلى خطباء مختارين ، وعهدوا بذلك إليهم ، ماعدا الممتدى به (٢٥٦ - ٢٥٥ھ) ، فقد كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، فيخطب الناس ، ويؤمهم (٢) ؛ وفي عام ٢٧٩ھ صلى المعتصم بالناس صلاة الأضحى ، ولم يسمع منه خطبة (٣) ، وأصبح الخليفة لا يخطب إلا في الأعياد (٤) ؛ ولما عزم المطیع لله

(١) ٢٠ و ٢١ : الفرج بعد الشدة .

(٢) ٨ : المسعودي .

(٣) ٩٧ : تاريخ أبي الحasan .

(٤) كان الخلفاء الفاطميون يخطبون في كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء (٢٧٧ و ٢٨١ : الخطاط المقرizi) ، وكان الحاكم يخطب في جامع عمرو الجمعة وفي جامع ابن طولون الجمعة وفي الأزهر الجمعة ويستريح الجمعة ، فلما بني الجامع الحاكم انتقلت الخطبة إليه (١٣٨ : حسن الحاضرة) .

(٣٤٢ - ٣٦٢ هـ) على الصلاة بالناس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله إذا انتهى في الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل في ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختار له دعاء (١) ، وخطب الطائع بعده في عيد الأضحى (٣٦٣ هـ) خطبة قصيرة (٢) . وفي البصرة كان الخطيب يخطب كل صباح (٣) .

وفي آخر العصر العباسي الأول ضعفت الخطابة بزوال أسبابها ، وأعممية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة في الجيوش ، وضفت الملوك ، كذلك صار في الكتبة وقد تنوّع أسلوبها وأغراضها غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ، ولم يبق لها إلا مظاهرها الدينية ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ، ويخطبون الناس ، وآخر خليفة خطب على المنبر هو الراضي (٤) .

أنواع الخطابة :

والخطابة في هذا العصر تتّنّوّع إلى خطابة سياسية ، وخطابة اجتماعية ، وخطابة دينية ، وخطابة أدبية .

ومن السياسية خطب زعماء البيت العباسي ، ومن الخطب الاجتماعية ما كان يلقى في مختلف المناسبات القومية والاجتماعية ، ومن الخطابة الدينية خطب الوعظ والقصص وخلافهما . ومن الخطابة الأدبية الخطابة في مختلف المقامات الأدبية التي كانت تحدث في هذا العصر ، والتي أدت إلى نشأة فن المقامات .

(١) ٣٤٩ : ٢ معجم الأدباء ، لياقوت .

(٢) ١٠٦ ب المتظم - خطوط .

(٣) ١٠٣ : ٢ الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريدة .

(٤) راجع ٢١٣ الأدب العربي للزيارات ، ٤٥ وما بعدها الأدب العباسي لمحمود مصطفى ، ١٠٤ وما بعدها المصر العباسي للسباعي بيومي .

دواعىها وموضوعاتها:

وقد تعددت دواعي الخطابة في عصر نفوذ الخلفاء وتتنوعت مظاهرها، وكثرت ألوانها.

١ - فقد كانت الحاجة ماسة إليها في تثبيت الملك، ودعم الدولة، وتوطيد أركان الخلافة، وإقناع الناس بأحقية بنى العباس لها، أو في مواجهة الخصوم، وتهديد المعارضين، والتشريع على نفي أممية، بما قادوا من خطأ، واجترحوا من مساوى، وفي إثارة النفوس، وكسب القلوب، وتحميس الجنود، والتباشير بفتح، والتهنئة بنصر ونجو ذلك.

٢ - كما اتخذوها أداة للوعظ، وتنذير الناس بالأخرة، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومتاعها، وذلك في المحايل العامة، والمواسم الجامحة، والأعياد الدينية. وجعلها القصاص في تصريحهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتعال النفوس بذلك سير الأولين وتاريخ الماخرين ومن أشهر القصاص موسى ابن سيار الإسواري، وأبو علي الإسواري، وكان يقص في فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم في تصريحه، وكان يوانس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتاج به، ثم قص بعده أبو العباس الفزير ولم يدرك في القصاص مثله؛ وصالح المرى، وكان صحيح الكلام، رقيق المجاس، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بيانا لم يكتبه ولم يذبها لم يكن يدانيه . « هذا ليس قاصا ، هذا نذير » .

٣ - كما كانت لسان الوفود الذين يفسدون على دار الخلافة، تأييداً لسياسة؛ أو إظهاراً لمحبة، أو طلبها لحاجة أو شكاية من مظلمة.

٤ - وما يقرب من الخطابة في روعة أسلوبها، وشدة تأثيرها، وسمو بيانها، الحوار الذي كان يدور بين البلغاء والفصحاء، من خاصة القوم، ورجال الدولة . . . وقد مرت ألوان من هذا الحوار .

خصائصها :

امتازت الخطابة في هذا العصر بجمال أسلوبها ، وغامقة ألفاظها ، وبعدها عن الحوشية والغرابة ، وعن الابتذال والإسفاف .

كما امتازت بقوة تأثيرها ، وروعة تصويرها ، لاصطبااغها بصيغة الدين وتأثيرها بأسلوب القرآن الكريم واعتباها على الكثير من آياته والاقتباس من عظاته والاستشهاد بكلام الرسول . ويكثر فيها أسلوب الحاج ، ومعانى الوعد والوعيد والتسيفية والتهديد ، والامتنان بالنعم ، والشكر على كريم الملة ، وجليل المودة .

على أن الحضارة التي غرقوا فيها قد أكسبتها غزارة في المعانى ووفرة في المادة ورقة في الأساليب ، ودمانة في الألفاظ ، مما ضاعف تأثيرها وزاد في بهاتها ورونقها .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ في هذا العصر أعلام من الخطباء المصالق ومخول من البلاء المقاول ، من نشأوا نشأة عربية قوية ؛ وورثوا ملكات البلاغة والخطابة من أصولهم العربية ، أو اكتسبوها بالتأدب والتعلم والدرس والحفظ .

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع ، والشأن بعيد ، من أمثال بنى العباس وبنى هاشم ، وبنى عبدالمطلب ، وعظام القواد من العرب ، ونابغى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار والقصص والأسئل واللغة والأدب والنقد .. ومن ولاة الدولة وخصوصها ، من خوارج وعلويين وشمويين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمّنونهم في الصلاة ، واستمر ذلك بعد

هذا العصر إلى الأرض المأهولة عام ٣٢٩ هـ ، والذى كان آخر خطبة عباسى خطب على المنبر . ويصف البحتري في راتية بلاغة له خروج المتوكل لصلاة عبد القطرين وإمامته للناس ؛ وخطبته فيه ، فيقول فيها يقول :

أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المنير وتخبر ووقة في برد النبي مذكراً . بالله تنذر تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمُهَاجِر والرشيد والأمين والمأمون ،

ومن الأمراء : داود بن علي المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخواه عبد الله وصالح وأبناءه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ؛ ومنهم سليمان بن علي ، وابنه جعفر وبنوه : سليمان وداود وأيوب .. من يصفهم الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » فيقول : « وجاءة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظاراً في أصالة الرأى ، وفي الكمال والجلالة ، وفي العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنقوس الشريفة ، والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يخلون عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم بعض ذلك » (١) .

ويقول الجاحظ في داود بن علي : « كان أنطق الناس ، وأجوادهم ارتباكاً واقتضايا للقول ، ويقال إنه لم يتقدم في تحبير خطبة قط ، ولم يكلم كثيراً معرف محفوظ » (٢) .

ومن خطباء العلوين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن وأبناءه : محمد وإبراهيم وموسى .

ومن خطباء بنى طالب : عبد الله بن معاوية .

(١) البيان والتبيين الأول ص ٢٦٥

(٢) ٢٦٣ : ١ البيان والتبيين .

ومن الوزراء : الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذو الرياستين ووزير المأمون
وصهره ، وجعفر البرمكي .

ومن الخطباء : سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للأمون^(١) ، وطاهر
ابن الحسين ، وعبد الله بن طاهر - ومنهم : العتافي الذي يقول فيه الجاحظ :
« ومن الخطباء الشعراء ، من كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل
الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتافي » و منهم : خالد بن صفوان ،
وشيب بن شيبة المتوفى عام ١٧٠ هـ الذي يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شيبها على فتاتها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبةها

وغيرهم من ثلول الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والفصاحة .

وقد ظهرت في العصر العباسي الأول طبقة من القصاصين الذين كانوا
يعتمدون على الخطابة في قصصهم ، وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين
أسماء طائفه كبيرة منهم ؛ كما ظهرت طبقات كثيرة من الوعاظ في هذا العصر ،
ومن بينهم : أبو زكريا الرازي (٢٥٨ هـ)^(٢) ، وعلى^(٣) بن محمد المصري
(المتوفى ٢٣٨ هـ)^(٤) .

وكان كثير من الصوفية من الخطباء البارعين ، والبلغاء المفلقين ..

(١) كلام الجاحظ عليه في البيان والتبيين ٥٩ : ١ .

(٢) زبدة الفكر ١٩ ب - مخطوط . (٣) ١٨١ المتنظم - مخطوط .

(٤) ظهر في العصر العباسي الثاني من الوعاظ : ميمونة البغدادية ٣٤٣ هـ

٩٣ تاریخ أبي الحسن) ، وأبو الحسين بن سمعون ٣٠٠ - ٤٣٩ هـ ٣١٩ (٥٢٨٧)
معجم الأدباء لياقوت) ثم محمد الشيرازي (٦٤٣٩ هـ ١١١: ١ تاریخ بغداد) ، ومن
الخطباء ظهر في العصر الثاني : ابن نباته (المتوفى عام ٣٧٤ هـ ٩٨٤ م) ، وعبد
الواحد بن عبد السكين (٩٤٦ هـ) بنيسا بور (٢٠٤: ٣ طبقات الشافية للسبكي) .

(٢) الكتابة في هذا العصر

صور للكتابة في هذا العصر :

١ - كتب عبد الله بن المقفع في وصف أحد إخوانه .

إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظم له
في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يتشهى
ما لا يجد ولا يكثير إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ؛ فلا يدعون
إليه ريبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناء ، وكان لا يأشر عند نعمة .
ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان اسائه ، فلا يتكلم بما لا يعلم
ولا يماري فيما علم ، وكان خارجا من سلطان الجحالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على
ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا أطلق بد القائلين ، وكان يرى
ضعيفاً مستضعفـاً ، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوة
ولا يشارك في مراء . ولا يدل بمحجة حتى يرى قاضياً فهماً ، وشموداً عدواً ،
وكان لا يلوم أحداً على ماقد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ،
وكان لا يشك وجمعه إلا إلى من يرجو عنده البره ؛ ولا يستشير أصحاباً إلا
من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسرط ولا يتشك ولا يتشهى .
وكان لا ينقم على الولي ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه
بشيء من اهتمامه رحيلته وقوته .

فعلميك بهذه الأخلاق إن أطقتها - ولن تطبق - ولكن أخذ القليل
خير من ترك الجميع .

٢ - وكتب يحيى بن خالد البرهاني وهو في الحبس (١) إلى هرون الشيد:

(١) كان البراهيم قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على
سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في ملوكه ولم يبق له من الخلافة إلا رسماً =

لأمير المؤمنين ، و الخليفة المهدىين ، وإمام المسلمين ؛ وخليفة رب العالمين
من عبد أصلته^(١) ذنو به ، وأو بقته^(٢) عبو به ، وخذه شقيقه ، ورفته
صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الخدثان ، فل في الضيق بعد السعة ،
وعاجل البؤس بعد الدعة ، واقترش السخط بعد الرضا ، وأكتحل الشهاد بعد
المجود . ساعته شهر ، وليلته دهر ، فقد عاين الموت ، وشارف الفوت ،
جزعاً لوجودتك يا أمير المؤمنين ، وأسفأً على مآفات من قربك ، لا على شيء
من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا في يدي عارية
والعارية من درودة .

أما ما أصبت به من ولدى فبدنيه ، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره ،
ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سني ، وضعف قوتي ، وارحم شيئاً ، وهب لي رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فلن مثلثي الزلل ومن مثلث الإقالة ، وإنما أعتذر إليك يا قرار ما يجب به الإقرار حتى ترضى عنـي ، فإذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرـي وبرأة ساحتـي مالا يتعاظـمـكـ بـعـدهـ ذـنـبـ أـنـ تـغـفـرـهـ ، مـدـ اللهـ لـيـ فـيـ عـمـرـكـ وـجـعـلـ يـوـمـيـ قـبـلـ يـوـمـكـ .

فلم يكن له جواب من الرشيد .

٣ - ومن رسالة لسليم بن مهارون وجه بها إلى محمد بن سعيد القاضي:

(۲) أوراقه : أهلسته .

إذ احتجت بعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذي عفة ونزاة طعمة ، قد هذبته الآداب ، وأحكنته التجارب ، ليس بظنين في رأيه ، ولا يمطعون في حسبي ، إن أوئمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيها ، له سُنْ مع أدب ، ولسان تقدّه الرزامة ويسكته الحلم ، تكفيه الملاحظة وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكامها ، وقام في أمورهم فحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يليغ نصيب يومه بحراً مان غذه ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاؤه لسانه ، وحسن بيانه . وقد آثرتك بطلبه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأليك (١) .
وهذه الرسالة تشبة رسالة ابن المقفع السابقة في وصف أحد إخوانه .

٤ - رسالة عمر وبن مسعدة :

كتب إلى المؤمن وقد تأخرت أرزاق الجند :

كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبله من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واحتلت بذلك أحواتهم (٢) .

وكان عمر وبن مسعدة من بلغاء الكتاب في العصر العباسي الأول ، وكان كاتب التوقيعات بين يدي جعفر البرمكي وزير الرشيد ، وتوفي عام ٢١٧ هـ ، وكان كتاباً بليغاً جزيل العبارة وجيزةها (٣) .

(١) ٣٤٩ : ١ الأمالى .

(٢) ٣٣٤ : أدب الكتاب الصوى .

(٣) ٦ : ٨٨ مجمع الأدباء ، ١ : ٥٥٥ ابن خلkan ، ٥ : ٥٠٢ الواق بالوفيات - قسم ثالث مخطوط بدار الكتب المصرية ، و مجلة الجمع العلمي =

وكانَتْ بِلَاغَةً عَمْرُونَ بْنَ مُسْعِدَةَ مُضْرِبَ الْأَمْثَالِ ، وَلِمَا وَقَفَ أَحْدَنْ بْنَ يُوسُفَ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْمُوجِزَةِ الْبَلِيغَةِ الرَّائِعَةِ أَعْجَبَ بِيَلَاغَتِهَا ، وَقَالَ :
لَهُ دَرُّ عَمْرُو مَا أَبْلَغَهُ ، أَلَا تَرَى إِلَى إِدْمَاجِهِ الْمَسَالَةِ فِي الْإِخْبَارِ ، وَإِعْفَانِهِ
سُلْطَانَاهُ مِنِ الْإِكْثَارِ .

وَمُصْمِنُونَ الرِّسَالَةِ شَكُورِيَّ وَطَلَبَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونَ بِإِرْسَالِ مِنْ تَابَاتِ
الْجَنْدِ الْمُتَأْخِرَةِ ، وَخَوَافِرَهَا إِخْبَارٌ بِحَالَتِهِمْ مَعَ طَلْبِ الْأَطْلَبِ وَالشَّكُورِ . . .
وَهَذَا مِنْ غَيْرِ شُكْرٍ مَا جَعَلَهُ أَهْمَيَّةً فِي نَظَرِ بَلَاغَةِ الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ ، وَيَضْمِنُ
إِلَى ذَلِكَ إِيجَازَهَا الشَّدِيدَ الْبَلِيغَ الَّذِي جَعَلَهُ أَحْدَنَ بْنَ يُوسُفَ مِنْ أَسْبَابِ
بِلَاغَةِ الرِّسَالَةِ .

وَفِي رَأْيِي أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لَا تَسْتَحِقُ هَذَا الْاِهْتَامُ وَذَلِكَ التَّقْدِيرُ ،
لَا نَهَا لَا تَتَأْثِيرُ فِينَا إِحْسَاسًا . وَلَا تَجْعَلُ الدُّوقَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ فِيهَا فِي رَأْيِي
قَارِئُهَا الْخَاصِّ ، بَلْ الْعَادِيُّ، جَدِيدُ، وَجَلَّةُ « اخْتِلَاطُ أَحْوَالِهِمْ » أَشْبَهُ بِالذَّمِّ مِنْهُ
بِالْمَدْحُ ، وَلَوْ قَالَ بَعْدَ الْقَدْمَةِ : « عَلَى أَحْسَنِ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ جَنْدٌ يَذْبُونُ عَنِ
الْخَلَافَةِ » ، وَيَتَعَرَّضُونَ فَوْقَ ذَلِكَ لِلْأَلَامِ الْجَمْعِ وَالنَّصْبِ ، وَيَقَاسُونَ الْحَرْمَانَ
مِنْ تَأْخِرِ وَصْوَلِ أَرْزَاقِهِمْ ، وَاخْتِلَاطِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ، لَكَانَ
أَرْوَعُ وَأَبْلَغُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ مُسْعِدَةِ السَّقِيمِ ، مَعَ اتِّحَادِ الْمُصْمِنِينَ ، وَتَوْافِقِ
الْأَسْلُوْبِيِّينَ فِي أَغْلَبِ التَّرَاكِيبِ .

فصل للجاحظ في الحسد ^(١)

الحسد - أبكاك الله - داء ينمك الحسد ، ويفسد الأود . علاجه حسر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فدارويه في عناء ، ولذلك قال النبي صلي الله عليه وسلم : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس جلسائه : « أى الناس أقل غفلة » ، فقال بعضهم : « صاحب ليل ، إنما همه أن يصبح » . فقال : « إنه ل كذلك ، وليس كذلك » ، فقالوا له : « فأخبرنا بأقل الناس غفلة » . فقال : « الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكمها ، فلا يغفل أبداً » . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع في الدين من النار في الخطب اليابس . وما أتى الحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنه ونعمته عليه » . قال عز وجل : « ألم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملائكة عظيمها » .

والحسد عقید الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم » .

فنه توله العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، وحدث التفرق بين القرناء ، وملحق الشر بين الخلفاء ، يكن في الصدر كون النار في الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد - بعد تراكم الغوم على قلبه ، واستكان الحزن في جوفه ، وكثرة مضمضه ، ورسوسه ضميره ، وتنقص عمره ؛ وكدر نفسه ، وشك عيشه - إلا استصغره نعمة الله عنده ، ومحظاه على سيده

(١) من رسالة الجاحظ في الحسد والحسود .

بما أفاد غيره ، وتنبيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، ولا يرزق أحداً سواه – لكان عند ذوى العقول مرحوماً ، وكان لديهم في القياس مظلوماً . وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحسد مخنول وموزور ، والحسود محبوب ومقصود . والحسد معموم ومهجور ، والحسود مغشى ومزور . »

والحسد – رحلك الله – أول خطيبة ظهرت في السعوات وأول معصية حدثت في الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وفانيه في خلقه ، واستكثر عليه فقال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » . فلعنه وجعله إبليس ، وأنزله من جواره بعد أن كان آنيساً ، وشوهد خلقه تشويناً ، وهو على قلبه تمويناً ، نسي به عزم ربه فواعق الخطيبة ، فارتدع الحسود فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقى وغوى . وأما في الأرض فابن آدم حسد أحد همائه أخيه فعصى ربه وأنكل آباء . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوبة ، إذا ألقى الحجر عليه شادحاً فأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد – إذا كان الحسود غنياً – أن يوبخه على المال ، فيقول : « جمعه حراماً ، ومنعه أيتاماً ، وألب عليه محاويج أقاربه ، فتركهم له خصماء ، وأعانهم في الباطن ، وحمل الحسود على قطعتهم في الظاهر ، فقال : « لقد كفروا معرفتك ، وأظهروا في الناس ذمك . ليس أمنا لهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد له خصماً أعاشه عليه ظلياً . وإن كان من يعاشره فاستشاره غشه : أو تفضل عليه بمعرفك كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، وإن كان عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال إنه يحب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود . »

وإن كان المحسود عالمًا قال: «مبتدع لرأيه لامتيغ ، حاطب ليل ، ومبتغى نيل ، لا يدرى ما محل ، قد ترك العمل ، فأقبل على الحيل . وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، ويبحج ليثني عليه ، ويصوم لتقبل شهادته ، ويظهر النسك ليودع المال بيته ، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته ، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكثونه يتغير لونه ، وتخفيص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستقالة بحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبد الله بن أبي قبل نفاقته نسج وحده ، بجودة رأيه ، وبعد همته ونبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسيادة ، وإذعانهم له بالريادة ، وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه ، وتبين لهم عقله ، وفقد بينهم جمهله ، ورأوه لذلك أهلاً لما أطاق له حلا .

فلياً بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة ، ورأى « عبد الله » عز رسول الله ، شيخ بآفاقه ، فهدى إسلامه لحسده ، وأظهر نفاقه . وما صار منافقاً حتى صار حسوداً ، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً ، فلم يبعد اللاب ، وجميل بعد العقل ، وتبوا النار بعد الجنة . ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : « يا رسول الله لا تلهي ، فإننا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه .

ولو سلم للبعض ول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمسكان ، ومن السؤدد في ارتقاض ، فوضعه الله لحسده ، وأظهر نفاقه . ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانه فاصفر من كثرة أحزانه
دمعه فقد أشعل في جوفه ما هاج فيه حر نيرانه
العيوب أشهى عنده لذاته من لذة المال لخزانه
فارم على غاربه حبله تسلم من كثرة بهتانه

ورسالة الماحظ «الحاشد والمحسود»، التي ينصح فيها القارئ، باتخاذ
المحيطة والتوق من سهام الحسد والحسدين، من أهم رسائله، وأبلغ
ما كتب من نثر فني.

وأسلوبه هنا هو أسلوب الماحظ الذي تظهر فيه شخصيته ظهوراً
تماماً، حتى ترى فيه رقة الأنفاظ وبساطة العبارة وجمال الأسلوب والزهد
في الصور العبانية، وهو يتردد بين السجع والازدواج مع ميل إلى الإطناب
والترادف، وتعاون العبارات على الفكرة الواحدة.

والرسالة تمثل النثر الفنى في عصر الماحظ، أصدق تمثيل، في بلاغته
وجماله وتمثيله مع الحضارة العقلية والفنية والأدبية التي سادت الأدب
والثقافة آنذاك.

وفي هذا الفصل من رسالة «الحاشد والمحسود»، يبين ضرر الحسد،
وينفر منه، ويظهر خفاياه، ويكشف نفسية صاحبه كشفاً، ويدو
من أسلوب الماحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسي الذي يفصح عن طوابيا
النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحاً شديداً.

ولا شك أن الماحظ قد سبق بهذا التحليل النفسي في أسلوبه الكتاب
والبلاغة والأدباء، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراً شديداً.

وقد ولد الماحظ بالبصرة ١٦٠ هـ وكانت في عنفوان الثورة العلمية
والأدبية، فأخذ عن علمائها وأدبائها، كالاصمى والأخفش والنظام المعتلى
الذى تخرج عليه فيما بعد، وكانت له مدرسة وتلاميذ صارت لهم ولهم من
الشهرة وذبوع الصيت ما كاد ينسى الناس النظام على قوة جدله، وشدة
عارضته، وخلابة منطقه وسحر بيانه، وكثرة جمعه للمسائل، وإحاطته
بالعلوم، وليس يشك أحد أن الماحظ كان نادرة من نوادر التاريخ،
وثروة ضخمة في اللغة والأدب، ولأسلوبه في السكتابة ميزات جعلته
صاحب طريقة عرف بها؛ ونسبت إليه، منها:

أولاً : الإطناب الذي لا تحس فيه مللاً ، ولا تشعر منه بسأم ،
ولأنود معه أن ينقطع بك حبل الحديث ، لأنه يزح جده بهزله ، ويستطرد
إلى الملح والنوارد والطرف ، استجلاباً للنشاط ، وإيقاظاً للتفكير ،
مستعيناً بالترادف ، والاستقصاء للمعاني ، والإيفاء للموضوع .

ثانياً : الاهتمام باختيار الألفاظ ، وتنسيق الجمل ، وترتبط
الأسلوب : واعتماده على المنطق القوى ، والفكر السليم .

ثالثاً : تقطيع الجمل إلى فقرات ، والتزام السجع حين يريد اقتباد
العواطف وأمتلاك زمام الوجдан .

وقد ظهرت هذه الخصائص والميزات في أسلوبه في هذا الفصل ظهوراً
واخفاً ليس فيه خفاء .

والمالاحظ صاحب باع طوبيل في صناعة الكلام وأسلوب الكتابة ،
كاد ينفذ به إلى القلوب ، وبخترق الأفenders ، ويناجي العواطف ويمتلك
المشاعر ، ويصل بقلبه المتصوقل ، وبيانه القوى ، إلى خلامجات النفوس ،
وخفاياها الصغير ، وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ما جعل لمنطقه من
التأثير ، وما لحجته من الرهبة ، ماساعدته على الوصول إلى هدفه حين يرمي ،
ولغايتها حين يقصد ، لا يستوعبها عليه شامس ، ولا يتأنى عليه صعب .

٦ - وكتب أحمد بن يوسف بنىء بمولود :

« أما بعد : فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به برجاً ،
أعند فيه بالنعمة من الله الذي أوجب على من حذرك ، وعرفني من حجل
رأيك . فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك
غلاماً سرياً ، أجمل صورته ؛ وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد
سروري بذلك ، وأكثرت حداده عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقىً ،
يشد عضدك ويكثر عدوك ويقر عينك . »

وكتب في الذم :

« أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أبجر ، من طريقه إليك . ولا مستودعاً أقل زكاً ، ولا أبعد ثمرة خير ، من مكانه عندك ، لأنك يحصل منك في حسب دني : ولسان بذى ، ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لدليك ضائع ، والش克ر عننك مهجور ، وإنما غابتك في المعروف أن تحرزه ، وفي وليه أن تكفر به » .

٧ - وكتب محمد بن عبد الملك الزييات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال:

« أما بعد فقد أتيتني إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منها عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لاته ، إما تقصير في عملك للإخلال بالحزم ، والتغريب في الواجب ، وإما مظاهره لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محله النكرا بك ، ووجوب العقوبة عليك ، لو لا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الآلة والنظر ، والأخذ بالحججة ، والتقدم في الإعذار والإندار . وعلى حسب ما أنت من عظيم العشرة . يجب اجتهدك في تلافي التقصير والإضاعة ، والسلام » .

٨ - وكتب الجاحظ إلى ابن الزيارات يستعطفه وقد تذكر له وتلون عليه:

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصيتك من سرف الموى ؛ وصرف ما أغارك من القوة إلى حب الإنفاق ؛ ورجح في قلبك إثمار الآلة ، فقد خفت - أيدك الله - أن تكون عندك من المنسوبيين إلى نزق السفهاء ، وبمحابية سبل الحسكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وأن امرأ أسي وأصبح سالماً من الناس إلا ماجنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذمه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم أجترى، إلا لأن دوام
تغافلك عن شئيه بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يوم من
المكانة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان
خيراً لي منك أرهبني فاتقاني ، وأعطاني فأغناي . فإن كنت لا تمب عقابي -
أيدك الله - لخدمة ، فيه لا ياديك عندى ، فإن النعمة تشفع في النعمة ،
ولا انفع لك لذلك فعد إلى حسن العادة، ولا فاعل ذلك لحسن الأحداث ،
ولالافت ما أنت أهل من العفو دون ما أنا أهل من استحقاق العقوبة ، فسبحان
من جعلك تعفون عن المتعبد ، وتجافي عن عقاب مصر ، حتى إذا صرت إلى
من هفوته ذكر وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعم إلا منك ،
يجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كزير صفحك
عنى ، وأن موت ذكرى مع انهقطاع صبي منك كحياة ذكرى مع اتصال سببي
بك .. واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم .. والسلام .

٩ - وكتب عبد الله بن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سر من رأى ،
ويذكر خرابها :

كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأفقد جدرانها ،
فشاهد اليأس فيها ينطق . وحبل الرجال فيها يقصر ، فكان عمر أنها يطوى ،
وكأن خرابها ينشر . وقد وكلت إلى المجر نواحيها ، واستحدث باقيها إلى
فانيها . وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يحب فيها حق جوار ، فالظاعن منها
بحرو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نماره إرجاف ، وسروره أحلام .
ليس له زاد في حل ، ولا مرجع في歸 . خطاها تصف للعيون الشكوى ،
وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار
الملائكة ، تفيض بالمخنود اقطارها ، عليهم أردية السيف ، وغلائل الحديد ،
كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيف . على خيل تأكل
الارض بحوارها ، وتمد بالنقع سائرها ، قد نشرت في وجوهها غرراً كأنها

صحاب البرق ، وامسكتها تحجّيل كاسورة اللجين ، فجيش يتلقف الأعداء
أوانه ، ولم ينهض أواخره ، وقد صب عليه وقار الصبر ، وهبت له روافع
النهر ، يصرفة ملك يملا العين جالا ، والقلوب جلالا . لانخاف خبيته ، ولا
تنقض سريرته ، ولا يختفي بسم الرأى غرض الصواب ، ولا يقطع بعطايا
اللهو سفر الشباب ، قابضاً يد السياسة على قطار ملك لا ينشر حبله ، ولا
يتلطف عصاه ، ولا تطغى جرته ، في سن الشباب لم يجن ماً ، وشيب ولم
يرافق هرماً . قد فرش مهاد عده ، وخفض جناح رحته ، راجحا بالعواقب
الظانون ، ساعياً على الحق يعمل به ، عارفاً بالله يقصد إليه ، مقرراً للحل وبيذهله ،
 قادرًا على العقاب ويعدل فيه ، إذ الناس في دهر غافل ، قد اطمأنت بهم
سيرة لينة الحواشي ، خشنة المرام ، تطير بها أجنبية السرور ، ويهدب فيها
نسيم الجنور ، فالاطراف على مسرة ، والنظر إلى مبرة ، قبل أن تخب مطايها
الغير ، وتستقر وجوه الخدر . وما زال الدهر ملياً بالنواب ، طارقاً
بالعجبات ، يؤمن يومه ، ويغدر غده .

على أنها - وإن جفت - معشوقة السكني ، وحبيبة المثوى ، كوكبها
يقظان ، وجوها عريان ، وحصاتها جوهر ، ونسيمها معطر ، وزرابها مسك
آذفر ، ويومها غادة ، وليلها سحر ، وطعمها هنيء ، وشرابها مرىء ، والبقاع
دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج التوّس بالتعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء .
والمم إلى فرجة ، ولكل سائلة قرار ، وبالله أستعين وهو المحمود على
كل حال :

غدت سر من را في العفاء فناما
قطانيك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلواها شيئاً بحالها
لما نسجتها من جنوب وشمال
إذا ما أمرت منهم شكا سوء حالة
يقولون : لأنملك أسى وتحمل

١٠ - ولأحمد بن يوسف إلى المأمون :

داعى نداك يا أمير المؤمنين ، ومنادي جدواك ، جمعاً الوفود ببابك ،

يرجون نائلك المعمود ، فنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدل بخدمته ، وقد أحجف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه ، ويتحقق حسن ظنهم بطوله ، فعل إن شاء الله تعالى (١) .

١١ — ولابن قتيبة يقدم كتابه (عيون الأخبار) :

وهذه عيون الأخبار ، نظمتها لغذل التأدب بصيرة ، والأهل العلم تذكرة ، ولأسئل الناس ومسوسم مزدبا ، والملوك مستراحـا من كـد الجـد والتعب ، وصنفتـا أبوابـا ، وقرـنتـ البابـ بشـكلـه ، والـخبرـ يـمثلـه ، والـسـلـكـةـ باـخـتـهـا ، ليـسـهـلـ عـلـيـ الـمـسـعـلـ عـلـمـهـا ، وـعـلـيـ الـدـارـسـ حـفـظـهـا ، وـهـىـ لـقـاحـ عـقـولـ الـعـلـمـاءـ ، وـنـتـاجـ أـفـكـارـ الـحـكـماءـ ، وـحـلـيةـ الـأـدـبـ ، وـالـمـتـخـيرـ مـنـ كـلـامـ الـبـلـغـاءـ ، وـفـطـنـ الـشـعـرـاءـ ، وـسـيـرـ الـمـلـوـكـ ، وـآـثـارـ السـلـفـ .

١٢ — ومن رسائل أبي اسحق الصولي على لسان الم توكل لأهل حصن الحارجين عليه؛ وهي من الرسائل التي أغنت عن الجيوش :

أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ما قوم به من أود وعدل به من زيف ولم به من منشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض أو لاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يسطظر به من تحذير وتحنيف ، ثم التي لا يقع بجسم الداء غيرها :

أنـةـ ، فـإـنـ لـمـ تـغـنـ عـقـبـ بـعـدـهـ وـعـيـدـاـ ؛ فـإـنـ لـمـ تـغـنـ عـرـأـهـ
وـكـتبـ إـلـىـ اـبـنـ الـزـيـاتـ يـسـتعـطـفـهـ :

«كتبت وقد بلغت المديـةـ المـحزـ ، وـعـدـتـ الـأـيـامـ بـكـ عـلـىـ بـعـدـ عـدـوـيـ بـكـ عـلـيـهـ ، وـكـانـ أـسـوـاـ الـفـلنـ وـأـكـثـرـ خـوـفـ أـنـ تـسـكـنـ فـوقـ حـرـكـتـهـ ، وـتـكـفـ عـنـ دـأـذـانـهاـ . فـصـرـتـ أـضـرـ عـلـيـهـاـ ، فـكـفـ الصـدـيقـ عـنـ نـصـرـ خـوـفـاـ مـنـكـ ، وـبـادـرـ إـلـىـ الـعـدـوـ تـقـرـ بـاـ إـلـيـكـ .»

(١) ١٦٩ : هـ معجم الأدباء لياقوت - طبع القاهرة .

١٣ — وقال أبو يوسف في كتاب «الخروج»، الذي كتبه للرشيد:

وأنا أرى أن تبعث قوماً من أهل الصلاح والمعفاف من يوثق بيته وأمانته؛ يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد، وكيف جروا الخراج على ماء أمر وابه، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر، فإذا ثبت ذلك عندك وصح، أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكل، حتى لا يتعدوا ماء أمر وابه، وما عهد إليهم فيه، فإن كل ما عمل به وإلى الخراج من الظلم والعنف فإنما يتحمل على أنه قد أمر به، وقد أمر بغيره، وإن أحالات بوحد منهم العقوبة الموجبة انتهى غيره واتنق وخف، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترعوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذذهم بما لم يجب عليهم. وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف، وخيانة لك في رعيتك، واحتتجان شيء من الفيء، أو خبث طعمته أو سوء سيرته، فرام عليك استعماله والاستعانة به، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك، أو تشركه في شيء من أمرك بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض مثل ما تعرض له، وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوه بمحاباه.

حالة الكتابة في هذا العصر

يراد بالكتابية هنا هذا الفن البليغ من النثر الذي أدانه القلم وعمادة التجويد والتمذيب، واصطناع الصور الأدبية الرائعة التي تحدث في النفس ارتياحاً وإعجاباً، وتبعث فيها نشوة وهزة، وهو ما نسميه الكتابة الإنسانية أو الفنية أو الأدبية، التي يتألق فيها الكتاب، ويُعنى بها الأدباء، ويدرسها النقاد والعلماء، ويحفظها ويتأدب بها الشدة في الأدب، لأنها مظهر من مظاهر البلاغة والبيان، وفيها متعة النفس؛ وغذاء الروح.

أنواع الكتابة ومواضيعها :

وللكتاب الفنية في هذا العصر ألوان عده :

١ - فنها الرسائل الإخوانية التي يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض في تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاعة أو اعتاب ، وما إلى ذلك ، وهي أوسع ميداناً وأكثر انتشاراً ، وأعذب بياناً ، وأعلى منزلة ، وأسلي قدرأ ، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته ، وأخلاق الناس ومنازعهم .

٢ - ومنها الرسائل الأدبية المطولة التي يكتبها البلغاء ، يسجلون فيها خواطرهم ويدوّنون آرائهم فيما يعن لهم من شؤون الاجتماع أو الفكر أو الأدب ، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها في الترويج عن النفس أو الفكاهة والسخرية ، ونحو ذلك ؛ بما يتجلّى في السير والأسماء والمخرافات والأخبار والقصص ، كرسائل الخinis التي كان يكتبها البلغاء في هذا العصر ، لتقرأ في خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرسائل ابن المفع ، وككتاب الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والترييع والتذير والخاصد والمحمود ومناقب الترك .

فضلاً عن اصطناع الكتابة في فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة ونحو ذلك من الموضوعات التي كانت وقفاً على الشعر .

٣ - ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التي تصدر من ديوان الرسائل نوعيه (الختام و"التوفيق) ، في شأن من شؤون الدولة؛ وكانت الكتابة في هذا الديوان بخلافها في الدواين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت تعتمد على التائق في الأسلوب وإجمال في العبارة وتبرأة في إظهار المعنى بصورة واضحه مقبولة .

ونحن نعلم أن المدينة ازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغأ ، وأعمال الدولة اتسعت اتساعاً ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ،

ونفوذ الفرس في الدولة ، وسعة سلطان الخليفة في المشرق والمغرب ؛ فأنشأ
الخلفاء العباسيون السكثير من الدواوين التي تقوم باتجاه الأعمال المتعددة ،
وخصوصا كل ديوان منها بعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين
الوزراء الفارسيون وأتباعهم من نقلوا النظام السكري في الإدارة وطبقوه
في دولة الخليفة . . ومن الدواوين التي كانت موجودة : ديوان الخراج
والنفقات ، وديوان الظلم والشرطة ، وديوان "هنيـاع والإقطاعات ،
وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المحارن ، وديوان المشرق ،
وديوان المغرب . وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذي يقلد منصب الوزارة تسد إلـيـه إدارة تلك الدواوين
كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القواد في جيش الخليفة
وقد يتصرف فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فإذا كان الوزير أثيراً
لهـى الخليفة ، موثقاً به الثقة كلـما ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأـي ،
ألق إلـيـه الخليفة مقابلـيد جميع الأمـور . ووكـلـ إلـيـه إدارة جميع الدـواـوـين ،
فيصبح المـشـرـفـ على جـمـعـ أـعـمـالـ الـدـوـلـةـ ، وـالـمـتـصـرـفـ فيـ شـتـونـ الـحـرـبـ ،
كـالـفـضـلـ بـنـ سـهـلـ ، الـذـيـ وـكـلـ إـلـيـهـ الـمـأـمـونـ ذـلـكـ كـلـهـ ، ثـقـةـ بـهـ ، بـعـدـ أـنـ اـنـتـصـرـ
جـيـشـ الـخـلـيـفـةـ بـقـيـادـةـ طـاهـرـ بـنـ الـحـسـينـ عـلـىـ عـيـسـىـ بـنـ مـاهـانـ بـتـدـبـيرـ الـفـضـلـ
وـحـسـنـ سـيـاسـتـهـ ؛ وـلـقـبـهـ الـخـلـيـفـةـ ذـاـ الـرـيـاستـيـنـ ، وـكـانـ لـهـ عـلـمـ عـلـىـ مـسـانـ ذـيـ
شـعـبـيـتـيـنـ ، وـكـتـبـ عـلـىـ سـيـفـهـ مـنـ نـاحـيـةـ رـيـاسـةـ التـدـبـيرـ ، وـمـنـ الـأـخـرـيـ رـيـاسـةـ
الـحـرـبـ . . وـلـخـطـرـ مـنـصـبـ الـوـزـيـرـ وـجـلـالـهـ اـشـرـطـ فـيـنـ يـتـقـلـدـهـ أـنـ يـكـونـ
عـلـمـاـ أـدـيـاـ بـلـيـغاـ أـرـيـغاـ مـصـيـاـ دـاهـيـةـ مـخـنـكاـ ، قـدـ أـدـبـتـهـ التـجـارـبـ وـعـلـمـتـهـ الـأـيـامـ ،
يـرـوـىـ أـنـ الـمـأـمـونـ كـتـبـ فـيـ اـخـتـيـارـ وزـيـرـ : إـنـ الـقـمـسـتـ لـأـمـورـيـ رـجـلـ
جـامـعاـ لـخـصـالـ الـخـيـرـ ، ذـاـ عـفـةـ فـيـ خـلـانـقـهـ ، وـاـسـقـامـةـ فـيـ طـرـانـقـهـ ، قـدـ هـذـبـتـهـ
الـأـدـابـ ، وـأـحـكـمـتـهـ التـجـارـبـ ، إـنـ أـوـتـمـنـ عـلـىـ الـأـسـرـارـ قـامـ بـهـ ، وـإـنـ قـلـدـ مـهـمـاتـ
الـأـمـورـ نـهـضـ فـيـهـ ؛ يـسـكـتـهـ الـحـلـمـ ، وـيـنـطـقـهـ الـعـلـمـ ، وـتـسـكـفـهـ الـلـحـظـةـ ، وـتـقـنـيـهـ

اللحمة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم المفهوماء ؛
إن أحسن إليه صبر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيبي يومه بحرب مان
غده ، يسترق قلوب الرجال بخلاة لسانه وحسن بيانه (١) .

والذين تسنموا هذا المنصب الخظير (٢) كانوا من صفة الناس وأعلام
أدب وخلفاً وكفاية ودرأية وذكاء وفهم : كأبي سلمة الخللال ووزير السفاح ،
وأبي أيوب الموردياني وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدى ،
ويحيى بن خالد البرهانى وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه
الحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وسواهم ، من كانوا درة في جبين الدهر ،
وغررة في وجه الخليفة ، وشجعوا العلوم والأداب ، وأيدوا حركة الترجمة
ورعواها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر . يعينه على أعماله ، ولو لاة
الأقاليم كذلك كتاب ، فإن المفعع مثلاً كان يكتب لوالى كرمان داود
بن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والكتاب من نسبوا من أصول
فارسية ، وكان الوزير قليماً يختار لنصبه إلا إذا كان من أفاد ذا الكتاب .

(١) الأحكام السلطانية .

(٢) قال ابن خلكان : اختلف أرباب اللغة في استئناف كلية الوزارة على قولين :
أحدهما : أنها من الوزر وهو الحمل فكان الوزير قد حل عن السلطان الثقل ،
وهذا قول ابن قتيبة ، والثانى أنها من الوزر بفتح الواو والزاي وهو الجبل الذى
يعتصم به لينهى به من الملاك ، وكذلك الوزير معناه الذى يعتمد عليه الخليفة
والسلطان ويلتتجى . إلى رأيه ، وهو قول أبي إسحاق الزجاج « ٢٢٩ : ١ »
وفيات الأعيان .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ليست عربية بل هي مأخوذه من
اللغة الفهلوية من كلمة « فيشيرا » ، ومعناها الأمر أو التقرير .

ولم يكن لقب الوزير موجوداً في الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل
الخلافة العباسية ، وكان يسمى قبل ذلك كاتباً ومشيراً .

وقد ألفت في أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة ، منها : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولي ، وكتاب الكتاب لابن درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجمشيارى ، وكتاب الأحكام السلطانية وسواها ، وألف القلقشندي المصرى أخيراً كتابه الضخم « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء » وحول ثقافة الكاتب وشخصيته يقول أبان ابن عبد الحميد اللاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد مستهياً عطفه وفضله ، راجياً أن يكون في حاشيته ، وقاما بخدمته^(١) :

أنا من بغية الأمير وكين
من كنوز الأمير ذو أرباح
كائب حاسب خطيب أديب
ناصح رائد على التصالح
شاعر مفلق أخف من الريح
شة إما تكون تحت الجناح
أنا فيه فلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين لله
لم بقول منور الإفصاح
ولي في النحو فطنة واتقاد
وبصیر بترهات الملاح
أيمن الناس طائر آ يوم صيد
لغدو دعيت أو لرواح
ولاست بالناسك المشمر ثوبه
ولا الماجن الخلبي الواقح

وهكذا اتسعت الدواوين باتساع الأعمال . وتتوعد بتتنوع مطالب الدولة ، ييد أن الكتابة - فيما عدا ديوان الرسائل - كانت لا تتجاوز ضبط الجباية وحساب الإيراد والنفقات والمرتبات ومحاسبة الولاية وتصريف الأمور ، مما لا يخرج عن التسجيل في الدفاتر ، والتعداد والإحصاء ، وليس

(١) يروى أن أبانا لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاه فلما دخل عليه أباه بكتاب فرمى به إليه وقال له : أجب عنه ، فأجاب أبان بما في نفسه وأحسن . فأمر له بألف درهم ، وكان يرى أول دخل عليه وأخر خارج من عنده ، فحسده أبو نواس فهجاه فأقصاه الفضل عنه .

في ذلك كله مجال لبراعة أو بيان وإفصاح ، ولا يتم الباحث الأدبي بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الإحاطة بها وفهمها .

فاما السكتابة في ديوان الرسائل فهى التي تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، وترد إليه ، ولذلك تولاه خول البيان ، وأعلام البلاغة ، وخداق الأدب ، المحظوظون بشئ الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلاً أعلى في الفصاحة والجمال وتمثل الم渥اطف والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير .

وقد كانت طبقات الأدباء في صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها طبقة السكتباب ، الذين لم يرو الجاحظ قو ما قط أ مثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الآلاظف مالم يكن متوعراً وحسيناً ولا ساقطاً سوقياً (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم منه بهم في نقد (٣) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية ، من الفرس والروم والسريان والقبط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وأدابها وأخذوا يجدون في اللغة العربية مذاهب جديدة في السكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاهات الحضارة والتوفيق العقلي والاجتهادى الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقنون مذاهبيم الأدية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شدة الأدب كما ترى في مخاضرة بشر بن المعتزى م سنة ٢٠٥ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها : إن بشرًا من يابراهم بن جبلة ابن غرمة وهو يعلم الفتياً الخطابة فوق بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر : أضرروا عما قال صفحوا

واطروا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تعبيره وتنميته في أول البلاغة وعناصر البيان (١) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الساكت أو الأكابر كما يقول الجاحظ (٢) ؛ وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد ابن عبد الملك الزيارات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة صعدوا بهنهم وبلاعهم إلى أرق المناصب في الخلافة الإسلامية .

هذه هي السكتابة الفنية التي عرفت في هذا العصر .

أما السكتابة العلمية ، التي هي كتابة التأليف والتدوين ، والتي تحفل بالاصطلاحات ، ويراعي فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتدوي إلى التتابع ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتي تعتمد أكثر ما تعتمد على الحقائق ، لا على التهويل والانطلاق مع الخيال والأنسياق وراء العاطفة .

نقول : أما هذه السكتابة فلم يكن لها كبير خطر في هذا العصر ، لأن العلوم كانت لازالت موضوعها مختلطة ، وكانت حينذاك في بداية التدوين . حاشا كتب الأدب التي كتبت بلغة شبيهة بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب التي ترجمت في هذا العصر في مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ السمت التأليف الذي ظهر بوضوح بعد عمر نفوذ الخلفاء .

نهضة السكتابة في هذا العصر :

بلغت السكتابة الفنية في هذا العصر من الرق والسمو مالم تبلغه في أي عصر من العصور وذلك انتقاماً آثار الثقافات الأدبية والفكرية ، ولكثره محفوظات الأدباء من أدب العرب والأداب المترجمة ، ويرى أن رجل مسأل ابن المقفع : ما الذي مكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع

(١) ١٥١ : ١

(٢) ١٠٤ : ١

يعنى به الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب والكتاب باعثاً على النهوض بالكتابة ، داعياً إلى ارتفاع شأنها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوى بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزاً على تجويدها والتأنق في أساليبها .

ولئن كانت الكتابة في آخر عصر بني أمية ، قد صارت صناعة عتيدة ، لها أصولها ومناجيها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل التجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وأزدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات وأصبحت سلماً الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزراء وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبغ فيها فول لم يجد المهر بيت لهم في البلاغة والفصاحة والخلق والبراعة واللطف وشرف الصناعة ، حتى بذوا خمول الشعر في عظمة الجاه ، وسعة النفوذ والسلطان .

خصائص الكتابة في هذا العصر :

(١) تمتاز الكتابة الفنية في هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة في الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال . ومن هذه الميزات :

١ - سعة الخيال وطراحته ، وعمق المعانى ودقتها وتنوعها وجدتها وسعتها ، وظهور آثار الثقافات الأصلية والترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق في أداتها والإيقاع بها .

٢ - التأنق في الألفاظ وحسن تغييرها والبعد بها عن الحوشية والغرابة .

٣ - أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهذيب ، واستعمال الحسنان البدوية ، والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الوصف ، وجمال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع في تغيير الأساليب ،

في جزالة حيناً، وعذوبة حيناً آخر . وقد دعى الكتاب إلى اختراع المقدمات في أوائل الرسائل المطولة ، وفي بعض المنشورات والعمود؛ وإلى تنويع عبارات البدء والختام في الرسائل؛ وكانوا يبالغون في الإيجاز حيناً وفي الإطناب حيناً آخر ، وفق ما تقتضيه الأحوال والمقامات؛ وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز ويوصي به ، ولكن لم يكن السائد في أسلوب كتابة الرسائل في هذا العهد ، ويروى عن جعفر البرمكي أنه كان يقول لكتابه : «إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا».

ـ وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أورع مارافهم منها من تهويل في الخطاب وتعديد للألقاب ، وإفراط في استعمال طرف الإيجاز والإطناب، وشدة تلاطم الحالات وابتداعها ، وتلامح المعانى واحتراعها ، والمقدمات التي كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة ، وبعض عمودهم ومنشوراتهم .

(ب) وللاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكثرون من التهذيب والتفصيح والتجويد ، وتوخي الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذاراً من النقد الذى قوى في هذا العصر . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب عبارة وعبارة ، ويضعون الفروق بين التراكيب والصيغ ، ويطالبون سوامى بها ، ويحرصون هم عليهما ، ويعيرون على من خالفهما ، يرى أن عاملاً للسيدة زيدة على بعض ضياعها كتب إلها من رسالة : «وأدام كرامتك ، فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره : «أصلح خطأك وإلا صرفاك عن عملك ، فأعاد الإمامان في أسلوبه فلم يهتم لخطته ، فعرضه على صديقه له ، فقال : إنما كرهت قوله في صدر الرسالة : «وأدام كرامتك ، لأن كرامة النساء دفهن ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب فوقعت على ظهره : «أحسنت ولا تعد» . ومن ذاقهم في ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خسروا أبقائه وأمتع

بك ، بالابن والخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشياهم ، ولقد كتب محمد ابن عبد الملك الزبيات إلى عبد الله بن طاهر رسالة ، ورددت فيها كلية ، وأمنع بك ، فسكتب إليك عبد الله :

أحدت عما عهدت من أدبك	أم نلت ملكاً قهست في كتبك ؟
أهـ قد زـى أـنـ فـي مـلاـطـفـةـ الـ	إـخـوانـ نـقـصـاـ عـلـيـكـ فـيـ أـدـبـكـ ؟
أـكـانـ حـقـاـ كـتـابـ ذـيـ مـقـةـ	يـكـونـ فـيـ صـدـرـهـ (ـوـأـمـتـعـ بـكـ)ـ ؟
أـنـجـبـتـ كـفـيـكـ فـيـ مـكـاتـبـيـ	حـسـبـكـ مـاـفـدـ لـقـيـتـ مـنـ تـبـكـ

فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كـيفـ أـخـونـ إـلـاـخـاءـ يـاـ أـمـلـيـ	وـكـلـ شـيـءـ أـنـالـ مـنـ سـيـبـكـ
أـنـسـكـرـتـ شـيـئـاـ فـلـسـتـ فـاعـلـهـ	وـلـنـ زـاهـ يـخـطـ فـيـ كـتـبـكـ
إـنـ يـلـكـ جـهـلـ أـنـاكـ مـنـ قـبـلـهـ	فـعـدـ بـفـضـلـ عـلـيـ مـنـ حـسـبـكـ
فـاعـفـ فـدـتـكـ النـفـوسـ عـنـ رـجـلـ	يـعـيشـ حـتـىـ الـهـاـتـ فـيـ أـدـبـكـ

وكذلك جعلوا ، أطال آلة بقامك ، أرجح وزنا من قوله « أبقاك الله طويلا » ، قال ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد : « من الألفاظ المرغوب عنها ، والصور المستوحي منها ، في كتب السادات والملوك ، على اتفاق المعانى ، مثل « أبقاك الله طويلا » ، وإن كنا نعلم أنه لا فرق بين قوله « أطال الله بقامك » وبين قوله « أبقاك الله طويلا » ، ولكن جعلوا هذا أرجح وزنا وأنبه قدرأ في الخطابة ، كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » ، أحسن منزل في كتب الفضلاء والأدباء من « جعلت فداك » ، على اشتراك معناه ، واحتمال أن يكون فداءه من الخير ، كما يتحتم أن يكون فداءه من الشر . على أن كتاب العسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها في جميع محاولاتهم ، وجعلوها هجراهم في خطابة الشريف والوضيع » .

ويروى أن الريبع قال : دخلت على الشافعى وهو مريض فقلت له : « قوى الله ضعفك » ، فقال : لو قوى ضعنى قتلى ، قلت : واقه مأردت إلا الخير ، قال : أعلم أنك لو شتمتني مأردت إلا الخير ، قل : « قوى الله قوتك وضعف الله ضعفك » .

وهذه الدقة المتأثرة عن الشافعى يؤكدنا ما روى عنه أنه قال : « أكره أن تقول : أعظم الله أجرك في المصائب » ، لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك .

طبقات الكتاب :

١ - الكتاب في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

ا - فالطبقة الأولى: هي التي أدركت الدولتين ، وهي طبقة ابن المقفع ، وبحي بن زياد الحارثي ، وعمارة بن حزة ، وأبي أيوب الموريني . من كتبوا للمنصور .

ب - والطبقة الثانية: طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود وزير المهدى ; وبحيى بن برمل ويوسف بن القاسم من كتبوا للهادى والرشيد .

ج - والطبقة الثالثة: طبقة جعفر بن بحى ، وأخيه الفضل ، وإسحاق بن صبيح ; والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو ابن مسدة ، وأحمد بن أبي خالد الأحوال - من كتبوا للرشيد والأمين والمؤمن .

د - والطبقة الرابعة: الطبقة التي ربيت في عصر المؤمن وجمعت بين الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ، وإليها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ؛ وبدأ علمها خول الشعر

في عظمة الجاه والرياسة؛ مثل: الجاحظ و محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم ابن العباس الصولي، و سعيد بن حميد، والحسن بن وهب، و سليمان بن وهب؛ و سوادهم من كتبوا للخلفاء بعد المؤمنون.

٢ - ويجعل بعض الكاتبين^(١) هذه الطبقات طبقتين؛ الأولى: رئيسها ابن المفعع، وطريقته تنويع العبارة. وتقسيم الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوكح السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع؛ وقد حد البلاغة فقال: « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلاً »، وقال بعض الكتاب: « إياك وتتبع الوحشى من الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذاك هو المعى الأكبر »؛ وقال الآخر: « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة ».

والثانية: رئيسها الجاحظ؛ وطريقته أشبه بالأولى في سهولة العبارة وجزالتها وإنما تمتاز بتقسيم الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة؛ وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل والاستطراد، ومزج الجد بالهزل؛ وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية.

وهؤلاء الكتاب جميعاً صفوة من البلاغاء والفصحاء وأرباب البيان، من ملوكوا أزمة البلاغة، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة، وامتازت كتابتهم بطول النفس، وجمال الأداء، وبراعة الأسلوب، وشرف المعانى، وحسن الابداع في الاخيلة، مع الاخذ والذوق حيناً، والسجع حيناً آخر .. إلى غير ذلك من المخصصات والمميزات التي أفضنا في شرحها.

(١) ص ٢١١ تاريخ الأدب العربي الزيات

أشهر الكتاب في هذا العصر :

ومن أعلام الكتاب في هذا العصر محمد بن عبد الملك الزيات م ٥٢٣٣^(١) ، وإبراهيم بن العباس الصولي م ٥٤٣^(٢) ، وسعيد بن حميد م ٣٦٠^(٣) ، والحسن بن وهب م ٥٢٥^(٤) ، وسلیمان بن وهب م ٣٧٢^(٥) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابه الكاتب م ٢٧٧^(٦) ، والمرثى وكان يكتب للوفق^(٧) ، ونطاحة الكاتب أحد من إسماعيل بن الحصيف الانباري كاتب عبيد الله بن طاهر^(٨) ، وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات^(٩) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢^(١٠) ،

(١) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٤٢٥ معجم الشعراء ، ٣٣ : ٢٧٨ ، وما بعدها عصر المؤمن ، ١١ : ٢٧ وما بعدها الطبرى . ٣٩ : ٤ مسعودى ، ٤٣ الرسالة العنرا .
(٢) راجع : ٥٦ : ٤ مسعودى ، ١٧٣ فهرست ، ٢١ : ٩ الأغانى وما بعدها ، ٢٠٠ : ١ المفصل ، ٣٠٨ الوسيط ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق ، ٩٩ خاص الخاص .
(٣) راجع : ١٧٩ فهرست ، وفيات الأعيان ٤٥٤ - ٥٧ : ٣ طبعة ١٣١٠ ، ١٧٧ : ٤ زهر ، ٩١ : ٤ مسعودى ، ٤٣ : ٢ ثمرات الأوراق .
(٤) راجع : ١٧٧ فهرست - ٥٠٦ سبط اللآلى - ٢٤٨ ابن الروى للعقاد . ٤٤ : ٣ زهر ، ٢٢١ - ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء .

(٥) وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات في آخر خلافة المتوكل .
(٦) راجع : ٢٤٩ ابن الروى - ١٧٧ فهرست - ١٥٤ - ١٦٠ : ٧ مهذب الأغانى - ٥٠٦ : ١ سبط اللآلى - ٤٨٥ معجم الشعراء ، ٣٨٨ - ٣٨٦ : ١ وفيات الأعيان ، ٤٦ : ٣ زهر .

(٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست ، ٥١ - ٣٦ : ٣ معجم الأدباء .

(٨) ١٨٧ فهرست ، ١٦ أدب الكتاب الصولى .

(٩) راجع : ١٨٠ فهرست - ٢٧٧ - ١ معجم الأدباء ، ويرى عنه الصولى كثيراً جداً في أدب الكتاب ، وله كتاب طبقات الكتاب .

(١٠) راجع ٤٤ معجم الشعراء .

ولأبراهيم بن المدبر م ٢٧٩ هـ (١) ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٣ هـ) ، وعلى ابن الحسن المتوفى بعد ٣١٠ هـ وقد جاوز التسعين (٢) ، وعلى بن العباس التوبختي م ٣٢٧ عن سن عالية (٣) ، وابن المعتن م ٢٩٦؛ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي م ٣٣٦ (٤) وهو الذي جمع ديوان ابن المعتن (٥) ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمارة الكاتب م ٣١٤ هـ (٦) وحميد بن نصر الكاتب م ٣٠٠ هـ (٧) ، وأبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم (٨) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثوابة السكاك وكتب لليعضند (٩).

واشتهر هذا العصر بأعلام ذاتعة في الأدب العربي والتأليف فيه ،
ومنهم :

(١) الجاحظ م ٢٥٥ هـ له كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان
والحيوان .

(ب) أبو سعيد الحسن السكري النحوي م ٢٧٥ هـ وكان راوية البصريين
وجمع أشعار الماجاهيلية والإسلام .

(١) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموسوعة .

(٢) ٢٩٥ معجم الشعراء .

(٣) ٢٩٥ معجم الشعراء ، ١٤٥ ج ٣ ذهر .

(٤) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ ج ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالبا
ومقدمة أدب الكتاب .

(٥) ١٧٥ ج ٢ زيدان .

(٦) ٢٥٢ ج ٤ تاريخ بغداد .

(٧) ٤٦٣ معجم الشعراء .

(٨) ٤١٧ ج ٢ معجم الأدباء ، ١٨٨ فهرست .

(٩) ١٨٨ فهرست .

(ـ) ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ^(١) ، وله *عيون الأخبار وأدب السكاك* و*الشعراء وكتاب الشراب* .

(ـ) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ و كان مؤدب المكتفي و له *كتب كثيرة* ^(٢) .

(ـ) ابن طيفور أحد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٥٢٨٠-٢٠٤)^(٣) ، وله *سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع في الشعراء و اختيار المقاوم والمثير* ^(٤) .

(ـ) ومنهم أبو العيناء بن القاسم بن خلاد (١٩١-٢٨٣)^(٥) .

(١) ١١٥ وما بعدها فهرست ، ٤٤٩ - ٤٥٠ : ١ وفيات الأعيان ، ١٧٠ : ٢٠ وما بعدها زيدان .

(٢) راجع ١٧٢ : ٢ زيدان .

(٣) ٢١٠ - ٣٠٩ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتر ، ٢٥١ و الموسوع ، ٢١١ : ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ : (معجم الأدباء ، ٤٨ و ٩٣ و ٩٤) ديوان المعافى .

(٤) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء في مجلد مخطوط هي : الحادى عشر في بلاغات النساء وقد طبع منفرداً في مصر ، والثاني عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع فصولاً من رسائل مختارة .

(٥) ١٨١ فهرست - ١٧٥ : ٤ مسعودي - ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١ - ٣٢٤ : ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٠ - ٣٢٢ و ٣٢٣ و ٣٢٤ نسكت الهميان - ١٧٠ : ٣ تاريخ بغداد - ١٨٠ - ٢ شذرات الذهب ، ٦١ : ٧ ملخص الأدباء ، ١٤٥ : ٣ سبط الآلى ، ٢١٨ - ٢٢١ : ١ أمال المرتضى ، ١٩٦ طبقات الشعراء لابن المعتر

(٣) فن التوقيعات

التوقيع فن بلية من فنون الشر ، ولو ن رائع من ألوان الكتابة ، وهو عبارة موجزة بلية يسكنها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتاب الواردة إليه ، يابداء الرأى فيها يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

والتوقيع في اللغة معان متعددة: جاء في اللسان: وقع (١) ظنه على الشيء قدره وتوهمه . والتوقيع الإصابة . وتنظر الأمر ، وتوهم الشيء؛ ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقفة موقع . أى أن فيه تأثيراً خفيفاً من الحال التي تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحي ، أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة .

ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون في آخر الكتاب المرفوع . ووقفت (٢) الإبل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الرى ، فكان الموقع بعد توقيعه قد اطمأن إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع في الكتاب إلحاد شئ فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من التوقيع الذي هو مخالفة الثاني الأول . قال الأزهري : توقيع الكتاب في الكتاب المكتوب أن يحمل بين تصاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر (٣) ظهر البعير . فكان الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم في الأدب الفارسي ، ووجد في الأدب

(١) بتشددية القاف .

(٢) الدبر بفتح الدال والباء القرحة في ظهر البعير .

العرب منذ عصر صدر الإسلام ، ويروى أن أول توقيع عرف كان لعمر حين كتب إليه سعد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء هوقع له عمر : « ابن ما يكذلك من المهاجر وأذى المطر » . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية ... ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوى في عصرنا هذا عصر نفوذ الخلفاء ، ونبغ فيه كثير من أعلام الكتاب وغول البلاغاء ، وروى منه الكثير كذلك خلفاء بني العباس ووزراء دولتهم في هذا العصر .

وكان الكتاب يتنافسون في إجادته ، ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلت على توقيعاتهم روعة الإيجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحياناً مثلاً أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثاً مأثوراً عن رسول الله ، أو يبتأ من الشعر .

وكان الأدباء الناشيون يخظلونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون في التوقيع الواحد من الدرهم إلى عشرين درهماً .

نماذج من التوقيعات :

وَقَعَ السَّفَاحُ فِي كِتَابِ لَابِي جَعْفَرٍ وَهُوَ يُحَارِبُ ابْنَ هَبِيرَةَ بِوَاسِطَةِ إِنْ حَلِيكَ أَفْسَدَ عَلَمِكَ ، وَتَرَاخِيكَ أَثْرَ فِي طَاعَتِكَ ، نَفَذَ لِي مِنْكَ ، وَلَكَ مِنْ نَفْسِكَ .

وَقَعَ الْمُنْصُورُ فِي كِتَابِ عَبْدِ الْحَمِيدِ صَاحِبِ خَرَاسَانَ : شَكُوتُ فَأَشْكِينَاكَ وَعَتَبْتُ فَأَعْتَبِنَاكَ ، ثُمَّ خَرَجْتُ عَلَى الْعَامَةِ ، فَتَاهْبِ لِفَرَاقِ السَّلَامَةِ .

وَقَعَ لِوَالِي مَصْرِ حِينَ كَتَبَ يَذْكُرُ نَفْسَانَ النَّيلَ : طَمَرَ عَسْكَرَكَ مِنَ الْفَسَادِ يَعْطِيلُكَ النَّيلَ الْقِيَادَ .

وَقَعَ فِي قَصَّةِ فَقِيرٍ : سَلَ اللَّهُ مِنْ رِزْقِهِ .. وَقَعَ الْمَهْدِيُّ فِي قَصَّةِ رَجُلٍ حُبِسَ فِي دَمٍ : وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حِيَاةٌ يَا أَوْلَى الْأَلْبَابِ .

فوق الرشيد إلى صاحب خراسان : داود جرحك لا يتسع .

ووقع في نكبة جعفر البرمكي : أنبنته الطاعة وحصدته المعصية .

ووقع المأمون في قصة متظلم من أحمد بن هشام : أكفي هذا الرجل
وإلا كفيته أمرك .

وقال عمرو بن مساعدة : كتبت كتابا إلى عامل فأطلته فأخذه المأمون
من بين يدي وكتب : قد كثُر شاكوك . وقل شاكروك . فيما اعتدلت وإما
اعزلت . . . وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكي أيضاً .

ووقع المأمون في كتاب لإبراهيم بن المهدى : القدرة تذهب الحفظة
والندم جزء من التوبة وينهيا عفو الله .

ووقع جعفر البرمكي في قصة حبوس : العدل أوقعه ، والتوبة تطلقه .

ووقع بخي البرمكي لمظلوم : طب نفسها كفى بالله للمظلوم ناصراً .

ووقع طاهر بن الحسين في قصة مستئنخ : ستنظر أصدق أم كنت
من الكاذبين .

تراجم بعض الكتب

ابن المقفع

١ - ظهر ابن المقفع ، وأحدث أثره في النثر الفنى وفي تطوره ، وكان الكتاب من قبله قد حولوا الكتابة إلى صناعة لها أصواتها الفنية ، وكان بعض منهم يعروفون الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو المريانية ، ومن بينهم : أبو العلاء سالم كاتب هشام ، وأستاذ عبد الحميد ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل وكان يعرف اليونانية ، وجليلة بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى العربية^(١) ، وعبد الحميد الساكت أحد أعلام النثر الفنى وأئمته ، وكان يعرف الفارسية .

ويقول بعض الباحثين : إنه استخرج أمثلة الكتابة الفنية التي رسماها من اللسان الفارسي خوطها إلى اللسان العربي^(٢) . وإنه أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية^(٣) ، ويصفه ابن النديم بأنه سهل سبل البلاغة في الترسل وعنده أخذ المترسلون^(٤) .

ويقول عنه طه حسين : إنه أحد كتاب القرن الثاني الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وإنه كان يعرف اللغة اليونانية^(٥) ، وهذا مما لا يوافقه عليه باحث ، ويصف ابن عبدربه في العقد

(١) راجع ص ١٧١ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٦٩ الصناعتين طبعة صليخ ، ١٩ : ٢ ديوان المعافى ، وما لابن ملال العسكري . (٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى لركي مبارك .

(٤) ١٧٠ الفهرست لابن النديم .

(٥) مقدمة تقد النثر لقدامة وهي بقلم طه حسين .

الفرید عبد الحمید السکاتب یا انه أول من فتق أکام البلاغة وسهل طرقها
وfolk رقاب الشعر ^(١) .

ولقد تأثر ابن المفعع ببلغاء عصره وفي مقدمتهم عبد الحميد ، وكان أحد
المترجمين من الأدب الفارسي والثقافة الفارسية ^(٢) ، ولاشك أن ابن المفعع
كان إمام الكتاب والمنشئين في عصره ، وقد آخى في أسلوبه بين التفكير
الفارسي والبلاغة العربية ، ويعود من أبلغ البلغاء ؛ ومن أساطين الفصاحة
في الأدب العربي . . ولغته وتركيب جمله أدنى إلى البساطة والوضوح من
كتاب عصره ، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة ، وأقل تلميحا
وإشارة .

وبلا ريب أحدث في الكتابة الفنية كثيراً من الأصول : في المنهج
والأسلوب وطرق الأداء ، وفي نظامها في البدء والختام . . وفي تكرار
التحميد في فصول الرسائل ، والتردد بين الإيجاز والإطناب ، وفي تضمينها
الكثير من المعانى الدقيقة والحكم العويصة ، والأفكار الاجتماعية
والسياسية والعقلية التي لم تكن سائدة بين كتاب عصره . وبذلك كان له
فضل كبير على النثر الفنى .

ولا شك أن نثر ابن المفعع الأدبي هو مظهر من مظاهر النثر الفنى
في العصر العباسي الأول ، الذى تأثر بالمؤثرات الجديدة ، وبثقافات الأمم
القديمة العربية ، كل التأثر .

٢ - وقد عاش ابن المفعع ستة وثلاثين عاما ، هي كل عمر هذا الفنى

(١) ٥ : ج ٣ العقد الفريد .

(٢) ٧٢ الفهرست لابن النديم .

الشاب ، الذى أودع الفكر العربى أسمى روانعه ، وأثمن كنوزه ، فإذا استثنينا منها ستة عشر عاما هى مرحلة طفولته وصباه ، كانت هذه الحكم الريفية ، والأداب الخالدة ، والآثار الباهرة ، نتاج عشرين عاما ، هي كل حياة ابن المفعع الأدبية والفكرية ، وهو نتاج لو نسب لعمر بلغ المائة أو جوازها ليكان كثيرا عليه ، ولسكان دليل عصرية قلة ، ومواهب فائقة ..

ولقد شهد له معاصره بشدة الذكاء وحصافة الملوك ، وبسعة الثقافة ، قالوا : « لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحد ولا كان في العجم أذكى من ابن المفعع ، واجتمع الخليل وابن المفعع ، فشكلا مدة يتجادلان بأطراف الحديث . فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال : « ماشت من علم إلا أن عليه أكثر من حقه » ، وسئل ابن المفعع عن صاحبه فقال : ماشت من علم إلا أن عقله أكثر من أدبه ، وكان مقدما في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واحتراز المعانى وابتداع السير » .

ويعد ابن المفعع من أخذاد الأدباء والمفكرين في تاريخنا العقلى .

فهو من الجانب الأدبي قد وهب اللغة العربية ثروة طائلة في الأفكار والمعانى والأغراض ، بل وفي الأساليب أيضا ، ومنها أعظم ما استطاع أديب عربي أن ينبعها إياه ، من ثراء في الأداء والتعبير ، وغنى في التخييل والتصوير ، وسعة في المعانى والتجارب والتفكير .

بل قد كساها حملها رائعة بمؤلفاته وترجماته ، التي حفظت على العربية شبابها ورواءها . وينذهب لغيف النقاد ، من بينهم المستشرق جب ، والمستشرق الفرنسي موسى ، إلى أن النثر الفنى مدين في وجوده في أدبنا العربى لابن المفعع . فهو في نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات النثرية الجديدة ،

وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية . وممما كان في هذا الرأى من مقالة ، فإن ابن المقفع هو رائد الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي . وقد آتى في طريقته بين التشكير الفارسي والبلاغة العربية ، واستخلص من الآدبين الفارسي والعربي اللذين كان يجيدهما طريقة عرف به ، وأخذت عنه . ونظهر مزيته في ترتيب أفكاره ، وحسن تقسيمه ، وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلسة أسلوبه ، وعذوبة ألفاظه ، حتى لتبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان .. ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه ، ولا ألفاظه تستهلك معانيه . كان يقدر اللفظ على المعنى تقديراً واعياً . وأسلوب ابن المقفع في سلاسته وجزالته وجاله وسحره يمثل رأيه في البلاغة التي كان يعرفها بأنها ، هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها .

وكان يتتجنب الغرابة والجوشية ، ويقول : إياك والتتبع لخوش الكلام طمعاً في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي الأكبر . وفي حرصه على الإيجاز ما يبرر قوله « الإيجاز هو البلاغة » إن ابن المقفع من الجانب الأدبي يعد أمة واحدة في البلاغة ورصانة القول ، وشرف المعانى ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب .. ولهم فضل كبير في تطور فن النصمة في الأدب العربي ، ويصفه الوزير جعفر بن يحيى البرمكي هو وطبقته من الكتاب فيقول : « عبد الحميد الكتاب أصل ، وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر » .

أما ابن المقفع من الجانب الفكرى فعملاق جبار ، ترشدنا إلى ذلك كتاباته وحكمه وآراؤه وتأليفه . كان ابن المقفع واسع الاطلاع على الثقافتين : العربية ، والفارسية ، نقل خير ما قرأ باللغة الفهلوية إلى اللسان العربي ، وزاد عليه السكثير من آثار خبرته وحكمته وتجاربه في الحياة .

نبذه في كتابيه : « الأدب الصغير » ، و « الأدب الكبير » ، - اللذين جمع فيما طائفة من أفكاره وحكمه ومن أقوال الحكماء في الأخلاق

والأدب وترية النفس وسياسة الملك - كان يحاول أن يرسم خطوطاً عريضة لجتمع قوى ، تسوده الحبّة و"طهانينة والثقة والمدافة . وفي الكتابين آثار من الثقافة والحكم الفارسية ، وصور من النظم الأساسية في الحكم . وإذا كان فيما آثار من مذاهب فلاسفة اليونان فهى مقتولة من الفرس ، الذين تأثروا - فيها تأثروا - بالمذاهب اليونانية . ويرجح كثيرون أن كتابه « الدرة البتمية » هو نفس كتاب « الأدب الكبير » .

وكتاب « كلية ودمته » ، كان قد ترجم من الهندية إلى الفهلوية في عهد كسرى أنسروان ، وأصناف الفرس عليه أبواباً ، مثل « باب بعثة بربوبيه » ، فترجمه ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وأصناف عليه فصولاً جديدة مثل « باب غرض الكتاب » ، و « باب الفحص عن أمر دمته » ، و « باب الناسك والضيق » ، و « باب البطة ومالك الحزين » ، ويرجح بعض المستشرقين ومنهم « هرتل » ، وغيره أن الباب الأول وهو مقدمة الكتاب من إضافة على بن الشاه الفارسي المتوفى عام ٣٠٢هـ . وفي هذا الكتاب أصول كثيرة لنظام الحكم وسياسة الرعية . ويبدو أن روح الإصلاح الاجتماعي ، التي انتطوت عليها جوانب ابن المقفع هي التي دفعته إلى ترجمته . وهو يعد من نفائس الآثار الفكرية ، ومن روائع كتب الأدب العربي ، وقد ترجم إلى اللغات العالمية ، واحتل منزلة سامية في الفكر الإنساني .

ومن الكتب المفقودة ، التي ترجمها ابن المقفع : « خدابناه » ، أي سير ملوك الفرس وتاريخهم ، وكتاب « التاج » . أما كتب الفلسفة اليونانية التي ينسب إليها ترجمتها ، فترجمها عن الفارسية هو ابنه محمد ، وليس من ترجمة ابن المقفع نفسه .

هذا هو ابن المقفع ، الذي كان ميلاده ، بخوزستان بفارس في قرية سمى « جور » ، من أبوين فارسيين ، عام ١٠٦ - ٧٢٤ ميلادية ، وكان بوه قد ساءه « روزبه » ، وكان والده « دادويه » ، يتولى كتابة خراج

فارس للحجاج بن يوسف . ونقم عليه الحجاج فضر به حتى توقفت يده ، فلقب بالمقفع ، وعرف ابنه بابن المقفع . ونشأ هذا الفتى الصغير مع أبيه في البصرة ، يستظلان بولاء آل الأهم ، المشهورين باللسن والخطابة والفصاحة ، وتلقى ثقافته الأدبية في بيته البصرة حيث العلماء والرواة والمدارس وسوق المربد . وعمل في كتابة الرسائل لولاة بنى أمية على بلاد فارس ، فكتب لداود بن هبيرة ، حتى قامت الدولة العباسية في ٣٣، ربيع الأول ١٣٢ م - ١٣٠ أكتوبر ٧٤٩ م ، وقتل داود . ثم كتب لعيسى بن علي عم الخليفة العباسي أيام ولايته على كرمان عام ١٢٢ و ١٣٣ م ، وأسلم على يديه ، وكتب بهذه لسلیمان بن علي أيام ولايته على البصرة من عام ١٣٣ - ١٣٩ م ، ثم ولى البصرة بعده سفيان بن معاوية ، فنقم على ابن المقفع ، لانتهائه لاعام الخليفة ، الدين غضب عليهم المنصور ، واضطهد ابن المقفع وقتل عام ١٤٣ م - ٧١٠ م .

ومات ابن المقفع بعد أن خلف ثروة عظيمة للأدب والفكر العربي ، وأمثلة رفيعة يحتذها الbagاء والأدباء في كل عصر وجيل . مات المفسر العظيم ، الذي جمع بين عقل الحكم وتشكيره وطبع الأدب وذوقه ، والذي كانت حياته مثلاً رفيعاً للإنسانية وللسماو النفسي والخلق .. مات هذا الشاب الفارسي الأصل العربي اللسان . ولكن ذكره لم يمتد لأن آثاره الأدبية لا تزال حية ، باقية لن تموت .

٣ - ويهمنا أن نعرض هنا نصاً لابن المقفع من كتاب كلية ودمنة ، ول يكن هذا النص هو « باب الحماة والشلوب ومالك الحزين » ..

فهذا النص لعبد الله بن المقفع من كتاب كلية ودمنة وهو آخر أبواب هذا الكتاب الخالد ، الذي أثرى به عبدالله بن المقفع الأدب العربي ، وقدم لل الفكر الإنساني - في مختلف مراحله - أعظم زاد من الحكمة والمعرفة .

وقد ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية إلى العربية .^{١)}
احتوى عليه من أعظم الأصول في سياسة الملك ، وفي دعائم الحضارة
والاجتماع ، وكان الفرس قد ترجمه من السنسكريتية إلى الفهلوية ، ومن
عجب أن تزهد الأصول الفارسية كلها لهذا الكتاب الحالد ، ولا يرقى إلا
الأصل العربي الذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وعنها ترجم الكتاب
إلى جميع اللغات العالمية ، وذاعت شهرة الكتاب في كل مكان ، وطار
اسمها في كل ناحية . . يقول ابن المقفع :

قال دبشير الملك ليدبا الفيلسوف :

قد سمعت هذا المثل ^(١) ، فاضرب لي مثلا في شأن الرجل الذي يرى
رأي غيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامه والشلبه ومالك الخزين .

قال الملك : وما مثلن ؟

قال الفيلسوف :

زعموا أن حمامه كانت تقرنخ في رأس نخلة طويلة ذاتية في السماء ،
فكان حمامه تشرع في نقل العرش إلى رأس تلك النخلة فلا يمكنها
ماتنقل من العرش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول
النخلة وسمقها ^(٢) .

وكانت إذا فرغت من النقل باهنت ثم حضرت بيضها ، فإذا

(١) هو ماذكره في الباب السابق ، باب « ابن الملك وأصحابه » من أن الرجل
لايصيب الخير إلا بعقله ، وقد يصيب الرجل الجاهل الرفة والخير ، والرجل
المسكيم العاقل البلاء والضر .

(٢) أي علوها ، وهو يعني السموق ، وفي الأصل : سعقا ، أي بعدها
وذلك لارتفاعها .

انقضى ^(١) وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب قد تعمد ^(٢) ذلك منها لوقت قد علمه ريشا ينهض فراخها فوقف بأصل النخلة فصاح بها وتوعدها ^(٣) أن يرقى إليها أو تلقى إليه فراخها . فتلقيها إليه .

فيدينا هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمام كثيبة حزينة شديدة المهم قال لها : يا حمامة مالى أراك كاسفة البال سيدة الحال ؟ فقالت له : يا مالك الحزين إن ثعلبا دهبت به كلما كان لي فرخان جامن يتهددني ويصبح في أصل النخلة فأفرق ^(٤) منه فأطروح إليه فرخي . قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ما تقولين قولي له : لا ألقى إليك فرخي ، فارق ^(٥) إلى وغر بنفسك ^(٦) فإذا فعلت ذلك وأكلات فرخي طرت عنك ونجوت بنفسك .

فليا علهم مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر ، وأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف فوقف تحت النخلة ثم صاح كا كان يفعل ، فأجابتني الحمام بما علمنا مالك الحزين . فقال لها : أخبريني من عليك هذا ؟ قالت : علمني مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفا ، فقال له الشعاب : يا مالك الحزين إذا أتاك الريح عن يمينك فلينتجعل رأسك ؟ قال : عن شمال ، قال : فإذا أتاك عن شمالك أين تجعل رأسك ؟ قال : أجعله عن يميني أو خلفي ، قال : فإذا أتاك الريح من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحي ، قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ، ماأراه ^(٧) يتينا

(١) أى خرج منه الفرخ .

(٢) أى تفقد وعرف .

(٣) أى تهددها .

(٤) أخاف .

(٥) أى أصدع .

(٦) أى عرضها للهلاك .

(٧) أى ما أظنه .

لك ، قال : بلى ، قال : فأرني كيف تصنع ؟ فلعمري يا عشر الطير فقد
فضلكم الله علينا ، إنسكن تدرين في ساعة واحدة ماندرى في سنة وتبلغن
ملا نبلغ ، وتدخلن رؤوسكم تحت أجنحتكم من البرد والريح ، فهيننا
لكن فأرني كيف تصنع ؟

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه ، فوثب عليه التعلب مكانه فأخذه
فهمزه (١) همسة دق عنقه ، ثم قال : ياعدو نفسه زى الرأى للحاجة
وتعلها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك ،
ثم قتلها وأكله .

وهذا النص يرشد إلى أن الإنسان يجب أن يعي دروس الحياة كاملة ،
 وأن ينصح نفسه قبل أن ينصح غيره ، ويحذر من شر الأشرار كما يحذر هو
غيره من شرهم ، وأن يكون عييق الإدراك بعيد الفطنة ، لا يغتر بكلام محظى
مخادع ، أو ماكر متلطف .

وأسلوب ابن المقفع مع بلاغته وروعته يكاد هنا يتغير في أداء مضامينه ،
لأن النزعة للمعاني الفلسفية الدقيقة لا يكاد يقوم بها أسلوب بلغع مما دقت
بلاغته ، وعملت منزلته في الفصاحة . وانظر إلى قوله : « فشرع في نقل العش
إلى رأس تلك النخلة ، فلا يسكنها ما تنقل من العش وتجده تحت البعض
إلا بعد شدة ، فالأسلوب مفكك غير متلامح الأجزاء مع ضعف تسجه ،
وقلة روعته ، وفي آخر النص يكرر ابن المقفع « فأرني كيف تصنع » ، مرتبة .

والنص قصة من قصص كتاب كليلة ودمنة ، وهي كأغلب قصص
الكتاب على لسان الطير والحيوان يرويها الفيلسوف الهندي ييد با
الميكه ديشليم مرشدًا وموجها وعلمه ، وتبتدئ كل قصة بسؤال من الملك
لفيلسوف قد سمعت هذا المثل مثلا ، أو قد عرفت ما أخبرت به من الأمر

(١) أى كسره .

السابق ، فاضرب لي مثلا في شأنكذا .. فيرد عليه الفيلسوف قائلا : إن مثل ذلك مثل كذا وكذا ، ويسترس من قصة إلى قصة ، ومن عبرة إلى عبرة ، ومن عظة إلى عظة حتى ينتهي تقريره للحكمة المقصود تقريرها أمام الملوك .

ولهذا القصص فوق مضمونه الاجتماعي والفكري فائدة جليلة لما فيه من التسلية والمنعة والبهجة والتشويق والطراوة .

ومثل ذلك القصص مما ضرب به المثل في روعته وحكمته ، وما اهتم به الباحثون والمفكرون والسياسيون اهتماما كبيراً ؛ وفي القرآن الكريم قصص خالدة على ألسنة الطير مثل قصة المدهد ، وقصة النمل مع سليمان ، وذلك لأن الحكمة إذا جاءت على ألسنة الطيور والحيوانات كان وقوعها في النفس أعظم ، وأثرها في القلب أكبر ، وكانت فرحة الإنسان بها أشد ، ومنتعم بها أجمل .

وقد ألف الكتاب قصصاً على ألسنة الحيوانات والطيور لتعليم الحكمة عن طريق القصة استجاتباً للنفوس وترويجاً للقلوب ، ولتكون الجد في صورة متعدة تجذب إليها العامة ، وينتسل بها الخاصة . ويقول طه حسين فيه : في هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب (١) .

والاصل الهندي للكتاب هو كتاب « بنج تتراء » (٢) ويدرك أن سبب تأليف الكتاب رغبة ملوك ملوك من ملوك الهند اسمه « السلطان الخالد » في تعليم أبناءه المعرفة والحكمة ، وحب العلم والعلماء ، وكانوا لا يقبلون على هذا الباب ، وأشار أحد المقربين إلى الملك عليه باستدعاء كاهن برهى حكيم

(١) مقدمة كلية ودمنة ص ٨ تحقيق عبد الوهاب عزام .

(٢) معناه خمس رسائل .

اسمه ، وشتوشرا ، لتعليم أبناء الملك فاستدعاه ، ووكل إليه الإشراف على تعلم أبنائه فرضع السكاهن لهم هذا الكتاب ليجربهم في المعرفة بأسلوب مشوق ، وذلك نحو عام ٢٠٠ ق.م.

وترجمة ابن المقفع للكتاب تجعل اسم الحكمي الهندى الذى ألف الكتاب « ييدبا » وقد وضعه الملائكة ديشليم لتعليمها سياسة الرعية . ولزوم العدل والبعد عن الطغيان ، وقد استعان ييدبا في تأليفه بتلاميذه حيث مكثوا يؤلفون فيه سنة كاملة ، وجعلوه قصصا على لسان الحيوان لأهمية الفن القصصى في التهذيب والتوجيه .

ويذكر الفردوسى في « الشاهنامة »، في سبب ترجمة الكتاب إلى الفهلوية أن الملائكة أنو شروان سمع من بروزويه الطبيب أن في بلاد الهند عشبا يحيى الموتى فبعث أنو شروان بروزويه للبحث عن هذا العشب العجيب . فسافر وظل يسأل عنه ، ويحجب البلاد في طلبه فلم يعثر عليه فسأل العلماء في الهند فأرشدوه إلى كليلة ودمنة لأدها يحيى القلوب المايتة . فنسخه وقدم به على أنو شروان وترجم الكتاب له من السنسكريتية إلى الفهلوية ، وذلك في عهد أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) ، ثم ترجم ابن المقفع الكتاب من الفهلوية إلى العربية في حكم المنصور في القرن الثاني الهجرى ، وكليلة ودمنة من أبناء آوى . وكان يقال لأحد هما كليلة والآخر دمنة .

وكان لـ كليلة ودمنة صدأ العميق عند كل الناس في عصر ابن المقفع وبعد عصره ؛ حتى قال ابن خلدون : « لقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمسكانها من البلاغة » .

الماحظ شيخ الأدباء في العصر العباسي

٥٢٥ - ١٥٠

١ - عاش الماحظ في العصر العباسي الأول (١٢٢ - ٣٣٤ هـ) وأدرك
سنوات من حكم المنصور، والماحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب
الكناني، ولقب بالماحظ لمحوظ عينيه.

وقد نشأ بالبصرة فقيراً حازماً، يعيش ب kedeh وسعيه، حتى لقد روى أنه
كان يبيع الخنزير والسمك بسيحان(١)، ثم انصرف إلى العلم والأدب يطلبهما
في البصرة وبغداد، ويتصف الفصاحة من العرب شفاهها بالمربد، ويسمع من
الأصمي وأبي زيد الانصاري وأبي عبيدة، ويأخذ النحو عن أبي الحسن
الأخفش صديقه، ويأخذ الكلام عن النظام. هذامع إدامه المطالعة، حتى
قيل إنه ما وقع بيده كتاب إلا استوف قرامته، وكان يكتوى دكاً كين
الوراقين ليبيت فيها للطالعة. وكذلك انقطع العلم والتأليف حتى أصبح علماً
ذات الشهرة في هذا المجال، وأقبل الناس على كتبه، وعدوا التلميذة عليه شرفاً،
ويصور ذلك ماروى عن سلام بن زيد أحد علماء الأندلس، قال: «كان
طالب العلم بالشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الماحظ، خرجت لا أخرج
على شيء حتى قصدته وأفقت عليه عشرين سنة».

وقد انفرد الماحظ بأراء في التوسيد صارت مذهبًا من مذاهب المعتزلة
والحقه المأمون بديوان الوسائل ولكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام.

وقد اتصل الماحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق
وأهدى إليه كتابه «الحيوان»، ولما قتل ابن عبد الملك في بده خلاة

(١) هو نهر بالبصرة.

المتوكل هرب الجاحظ ثم قبض عليه ، وجيء به مقيدا إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر إليه قال : والله ما علمناك إلا متناسيا النعمة ، كفوراً للصنيعة معدنا للمساوي . فقال له الجاحظ : خفض عليك أيدك الله ، فواه لآن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيه وتحسن أحسن من أن أحسن قتسيه ، وأن تعفو عنى في حال قدرتك أجل من الانتقام مني . فقال له ابن أبي دؤاد : فبحك الله ما علمناك إلا كثير زويق الكلام ، ثم قال جيئوا بجداد ، فقال : أعز الله القاضي ، ليفك عنى أول يزداني ؟ فقال : بل ليفك عنك ، فيجيء بالجداد فعمره بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ؛ فلمظمه الجاحظ وقال : أعمل شهراً في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة ، فإن "ضرر على ساق وليس بجذع ولا ساجة (١) ، ففضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دؤاد لبعض الحاضرين : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال يا غلام سر به إلى الخام وأمط عنه الأذى ، واحمل إلية تخت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال هات الآن حديثك يا أبو عثمان . واصطلحت الحال بينهما ، وأهدى إليه الجاحظ كتاب «البيان والتبيين» .

وأتصل الجاحظ أيضاً بالفتح بن عفان وسافر معه إلى دمشق ووصف مسجدها في كتابه «البلدان» ، كما أنه دخل أنطاكيه .

وهكذا قضى الجاحظ أيامه في العلم والأدب والتصنيف حتى أصيب بالفالج في أعقاب عمره وكان ذلك في أو آخر خلافة المتوكل ، قيل إن المتوكل وجه من يحمل الجاحظ إليه من البصرة ، فقال لمن أراد حله : وما يصنع أمير المؤمنين بأمرى لليس بطائل ، ذي شق مائل ، وعقل حائل .

(١) الساجة : شجرة عظيمة خشبها صلب .

وظل كذلك حتى توفي في آخر خلافة المعتز وذلك عام ٢٥٥ هـ . وقد كان شعاع الجاحظ في طلب العلم قوله : « إذا سمعت الرجل يقول ماترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ، وقوله أيضاً : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضررة شديدة وثمرة مرأة ، فمن أضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئاً ، ولو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسمائهم تركوا الاستنباط لسالم ينتهى إليهم عن قبيلهم لرأيت العلم مختلفاً .

على هذه الطريقة طلب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتاخرين واستنبط واجتهد وانتقد وزاد وألف في الأدب والعلم والدين ، وكان إماماً في كل منها .

٢ - ويقول المرزباني فيه رواية عن أبي بكر أحمد بن علي : كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا قوله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب الخالقين ، والأدب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والمزمل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المعين أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول وشذوذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزاز إلى القلوب ككتب تشبيهاً . والجاحظ عظيم القدرة في المأهولة وغير المأهولة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور .

وقال ثابت بن قرة : ما أحسيد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب في حسياسته ويقطنه ، والثاني الحسن البصري فلقد كان من دراري النجرم علم وقوى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ،

وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتاخرين ، إن تكلم حكى سبعان البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل ، وإن جد خرج في مسلك عامر ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزید ؛ حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ، وشيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مشرة ، الخلقاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه . والخاصة تسلم له ، وال العامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين الشر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت حكمته وظهرت خلنته ، ووطئ الرجال عقبه ، وتهادوا أربه ، واتخرروا بالانساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوفى الحكمة وفضل الخطاب .

ويقول فيه ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلما عيال فيها على ثلاثة ، أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي المظيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسان والعارضه فعلى أبي عثمان الجاحظ .

ولقد ألف أبو حيان التوحيدي (٤٠٠: ٥: ١٠٠٩ م) كتاباً في تقيير ط الجاحظ . وقيل لأبي هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال أمثل يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أربعة أفق لما أمست إلا بالصين شمرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة .

وقد كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية ، في النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبي الذاي يتصف بمجد كل أديب ، ويدوى في كل أفق ، وبين صداته في سبع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وقد عاش الناس في عصره وبعد عصره عيالاً عليه في البلاغة والفصاحة واللسان والعارضه ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرف لا يعدل له شرف ، ومجداً يدنىهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات

الثقافة الإسلامية في شتى عصورها ، فألفوا الكتب في الإشادة به . كما فعل أبو حيان التوحيدي في كتابه تقرير الماجحظ — وبالغوا في الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلافاء يهشون عند ذكره ، ونهر كبار الكتاب نهجه في الثقافة والأدب والبيان ، وكان ثغر الرجل في أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتلقفون بشفاقتها ، ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامي بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصره يخذرون خصومته حتى لا يسمهم بعزم الخزي والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جدهم منهم فكان هدفاً لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفر لها الزمن ، كما فعل الماجحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتمسكة ، الترييع والتدوير ، وحسبك أن المؤمن كان يقرأ تأليف الماجحظ ويئن عليها ويستجدها (١) .

٣ - ومجد الماجحظ الأدبي بجد خالص من شوائب العصبية وغموضه السياسة ، وهو مجده بوجه الحال كفاعليته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكريّة والأدبية الممتدة ، فقد عاش الماجحظ محروماً من كل شيء إلا من مجده الأدبي وشهرة العلم ؛ ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد إليها في عهده كثير من الكتاب ، ولم تله كفاعليته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المؤمن لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لتعرضه لخصوصيات كثيرة حذرآ من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الإخفاق في الحياة العامة الذي مني به الماجحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته « الزوابع وانتوابع » ، وما جعله يختفي من يذهب إلى تقديم الماجحظ على

(١) ٢١١ ج ٢ البيان للماجحظ نشر السنديني - ط ١٩٣٧ .

سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضلالاً وغبناً .

ولكن ماسر هذا الإلخاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجدد الدائم ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الماجحظ من شرف المتنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيارات وأبراهيم بن العباس إما لأنّه كان مقصراً في السكتابه وجميع أدواتها أو لأنّه كان ساقط المهمة أو لأنّ دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغایات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات السكتاب عند الماجحظ شيء قد يكون غريباً ولذلك أخذ يذهب إلى أن أول أدوات السكتابية العقل ، وقد تجده عالماً غير عاقل .

أما أن الماجحظ ينقصه أداة — أيًا كانت هذه الأداة — من أدوات السكتابية فذلك مازده الحقيقة المقررة ، فعقل الماجحظ وفقه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الماجحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح لا يتطلع إلى بجد ينشده أو جاء سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الماجحظ وحياته وروحه الوئاب الطموح وأما أن دمامته الماجحظ كان لها أثر في هذا الإلخاق فذلك أحد ما زاد من أسبابه الكثيرة حتى إنه ذكر للمتوكل للتأديب بعض ولده فلما رأه واستبشر منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الماجحظ كان عربياً في روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للمناصر الأجنبية لاسيما الفرس ، وكثيراً ما كان ينسى أولى الثقافة والكتفاليات من العرب إلا من اتصل منهم بجبل وزير أو أمير ، والماجحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيارات (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ) والذي أهدى له كتاب «الحيوان» ، وكأنه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخيل هذه الصدقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسع له ، أن يستفيد

شيئاً من وراء هذه الصدقة ؛ وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحد بن أبي دؤاد الذي سبق إليه الجاحظ مغلولاً لأنَّه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثُوّقاً منه بظرفه وأدبه لا يخلصه ولا يلأه .

ثم لأنَّس أنَّ مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لامواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته موهابته العقلية والعلمية والأدبية مكاناً علياً ما كان ينتظَر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق في أجواها ، وكان إخلاص الجاحظ للتفكير والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معamus الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميدان السياسة والمجتمع ، وكانت لذاته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذاته في مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولاً وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعنزي الذي تلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعنزيين ، وهو المتكلِّم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوِّه والعالم الفذ والمُؤلف النابه وشيخ العربية الذي روى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٨ - ٢٥٥) ، وكان له في صدر شبابه نفر التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والسلام وفي التفسير والمنطق ، كما كان له نفر صداقه رجال الفكر والسياسة في الدولة ، وقد استفاد من وراءه هذا وذاك نضوجاً كبيراً في عقليته وثقافته هباءً لأنَّ يكون محور الثقافة الإسلامية في عصره لا بطلاء من أبطال السياسة والدولة والمجتمع .

٤ - وثقافَة الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بشئيُّ أو ان الثقافات المختلفة التي مازجت ثقافة الإسلام في عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلِّم من الطراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها آدابها إحاطة

لانته عند غاية، وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني المجري؛ وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لانشأ في أنها أفادت ذلك من أستاذة النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ، ولا شك أن عصر الجاحظ، وعلقته، وشغفه بالدراسة والبحث، وعكوفه على القراءة، ونشأته بالبصرة، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد والعلياء في حلقات البصرة وجماعها العلمية، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها كأبي يوسف القاضي والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الانصارى، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان.

وقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمحاسنهم لكتبه من المثقفين باليونانية^(١)، كما أنه حذر الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواء، وتوسيع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من السكتب^(٢) وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد ما، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القيساس المضرم (المذهب الكلامي عند البديعين^(٣))، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق الذي ذكر أنه خرج في أسلوب سقيم، فالجاحظ فيما يبدو قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو^(٤)، وذلك ما أراه، وأنسرك باحث

(١) ج ٤٠ ج ١ ضي الإسلام (٢) ج ٣٨٧

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦٥ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ، وإذا كان الجاحظ ينسّك أن يكون لليونانيين خطابة (١٥ ج ٣ البيان) فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبين، ويتحتم أن يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان.

(٤) راجع ٦٢٢ المرجع السابق.

آخر أن يكون كتاب «بيان متأثراً بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره^(١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين^(٢).

ومن البديهي أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلى عاصمها، ويدوّل في أنه كان يعرف اللغة الفارسية، ففي البخلاء يذكر الجاحظ كلام يخيل من أهل مرو تباهى رجلًا زاره من أهل العراق: لو خرجت من جلديك، لم أعرفك قال الجاحظ: وترجمة هذا الكلام بالفارسية، كراز يوسف بارون بيان نشانيم^(٣).

وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتبه وفي مؤلفه البيان، أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضاً في الحيوان وفي كتابه البيان، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل بأراء أرسطو فيه^(٤) وكان مصدراً كبيراً له في كتابه «الحيوان»، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً^(٥)، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان يكتب اللسان مع عليه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه^(٦)، ويذكر تعريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان^(٧)؛ ويذكر كتب اليونان في المنطق وأن الحكماء جعلتها معياراً للتفاهم^(٨)، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني^(٩)

(١) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦.

(٢) ص ٣ مقدمة نقد الترجمة.

(٣) ص ١٩ البخلاء، ١٩ الجاحظ لم يتم بذلك.

(٤) ٦١ : ١ البيان.

(٥) ٦٩ و ١٢٨ : ١ البيان.

(٦) ١٥ : ٣ البيان.

(٧) ١ : ٧٥ البيان.

(٨) ٧ : ٣ البيان.

(٩) ١٦٥ : ٢ البيان.

ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وأليس أفلسفتهم في الخطابة ذكر^(١)، وأقسام الدلالة عند الجاحظ^(٢)، هي من تفكير أرسطو . ويدرك أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق ، وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة^(٣) ، والجاحظ رسالة في نقد السكندي^(٤) .

ويذكر الجاحظ في البيان «صناعة الكلام»، ويعني بها حيناً علم الكلام^(٥)، وحياناً آخر البيان^(٦) ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق^(٧) وصناعة الخطابة ويدرك أحياناً «أصحاب الخطابة والبلاغة»^(٨) .

ومهما يكن فالجاحظ فيها ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوه إلى ترك الوحشى والسوق^(٩) له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى «غير الألفاظ الحسيسة التي لا يستعملها إلا العامة»^(١٠) ، وقال: «ينبغى ألا تكون الألفاظ سفاسادة ولا مجازة المدح المثابة مبلغ الأمر»

(١) ١٥ : ٣ البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطبع على شيء من خطاباته

(٢) ٦١ : ١ البيان ، وهي في ٤ الرسالة العنبراء ، ٩ تقد الشر

(٣) ٧ : ٣ البيان

(٤) ٤٢ الجاحظ لم يرد بذلك

(٥) ٦٩ : ١ البيان

(٦) ١٠٨ : ١ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ : ٤ دهر)

(٧) ٧٩ : ١ البيان

(٨) ١٨٣ : ١ البيان

(٩) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(١٠) راجع الشفاعة لابن سينا ، وكل النصوص المنشورة هنا عن أرسطو فهي
منقوله من الشفاعة

الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تخرج إلى السكلفة المشنوة ، ودعوة الملاحظ إلى الوضوح^(١) لما نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الإغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن في الأغراقات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأمايل دون أسفاط الجمود ، والمعنى وخروجه عن حد البلاغة^(٢) موجود في خطابة أرسسطو حيث يجب أن « يكون اللفظ فصيحاً للحن فيه » ، وينذكر الملاحظ استعمال الميسوط في مواضعه والمقصور (المحدود الموجز) في مواضعه^(٣) والإيجاز يوم الإيجاز والإطناط يوم الإطناط^(٤) ، وأرسسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهام وأشار إلى أن لكل منها مقاماً . وعلى أي حال فرجع هذا التشابه في الأفكار أرجحه أن سببه نقل الملاحظ كثيراً عن الذين أموا بشقاقة اليونان وكتب أرسسطو في النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالمحاظ يحمل كثيراً من النظريات التي شرحها أرسسطو في كتابيه ، مانواع البيان والأساليب البلاغية الآنية التي ألم بها أرسسطو^(٥)

(١) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(٢) ١٢١ : ١ البيان

(٣) ٥١ : ١ البيان . ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه (٤)

و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ : ١ البيان

(٤) ١٢٠ رسائل المحاظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه والإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب)

(٥) كدراسته للاستعارة ، والرباطات (حرف العطف) وأنها تجعل الكلام السكثير كالواحد ، والجنس وسواء ، ونظرية أرسسطو في الوصل هي التي يفيض عبد القاهر في شرحها في الدلائل ، ونصيب في نقده للكيسي في قوله « تكامل فيها الأنس =

لا يشير إليها الملاحظ في بيته ، وهو على العموم لم يطلع على نفس كتابي أرسطو ، وإنما أرجح اطلاعه على رجمات لكتابي من آرائه في الكتايبين ، ولا نشك في أنه أفاد من أستاذه النظم ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيراً ، ونقل عنم اطلعوا على خطابة أرسطو .

هـ - وللباحث في البيان العربي آثار كثيرة : كرسالته في تفضيل النطق على الصمت^(١) وكتابه البيان والتبيين .

والبيان « أول كتاب ظهر في الأدب جامعاً لفنون كثيرة من ضربه^(٢) » ويشيد به أبو هلال^(٣) ، ويعده ابن خلدون من أركان الأدب^(٤) ، والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة وتناول النقد واللغة ، ويأتي على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين ، وآثارهم الأدبية .. وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام ، ويدرك ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضل^(٥) ، ويدرك أبو أحد العسكري مثلاً من تصحيف الملاحظ فيه^(٦) ، وينقد ابن شميد الكتاب^(٧) ، ورد عليه بعض المعاصرين^(٨) . والكتاب يجمع بين دفتيره الكثير من بلاغة العرب وسرهم في البيان ، كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها وأتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الملاحظ وروايته أم من رأيه

== والشعب ، لأن الشاعر باعد في القول (١٣٤ ج ١ الأغانى ، ١ : ٣٣٥) .. وليس أمامنا ما يدل على معرفة الملاحظ بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) تجدها في (١٤٨ - ١٥٤) رسائل الملاحظ .

(٢) ٨٠ العصر العباسي الاسمكيني . (٣) ٧٦ الصناعتين .

(٤) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ١ العدة .

(٦) ٥٤٣ التصحيف والتعريف (٧) ١ ذخيرة

(٨) ٥٠ : ٢ النثر الفنى .

وتقديره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفه هندية مكتوبة (١) . أو كايصورها بشرين المعتز (٢) ، أو كياراها ابن المقنع (٣) ؛ ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب إلى متتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي ، وتعطينا صورة بجملة لشأنه (٤) .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (٥) ، ويتكلّم على السجع (٦) ، ويشير إلى التفصيل وال التقسيم (٧) ، والاستطراد ، والسكنائية (٨) ، والأمثال (٩) والاحتراض (١٠) والقلب (١١) ، والأسلوب الحكيم (١٢) ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب السكري بهذا الاصطلاح (١٣) ؛ ويرى الجاحظ أن البلاغة في النظم لافي المعانى قال: والمعانى مطروحة في الطريق يعرفها الجميع والعربي والبدوى والقردى، وإنما اشتأن فى إقامة الوزن وتخيير الفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك (١٤)

(٢) ١٠٤ : ١ وما بعدها البيان

(١) ٧٩ : ١ البيان

(٤) ٣ مقدمة نقد النثر

(٣) ٩١ : ١ البيان

(٥) ١١٦ : ١٩٤ : ١ البيان .

(٦) ١١٦ : ١ البيان

(٧) ١٧٠ : ١٧٠ : ٢ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة ، راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .

(٨) ١٨٠ : ١ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٨٥ : ٣ البيان .

(٩) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ : ٢٤٠ : ١ : ٢ البيان .

(١٠) ١٦١ : ١ وما بعدها البيان (١١) ١٨٠ : ١ البيان .

(١٢) ٢٠١ و ٢٠٢ : ٣ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « الفرز في الجواب » (١١٦ : ٢ البيان) .

(١٣) ١٠١ البديع ، ٧٦ : ٣ العدة .

(١٤) ٤٠ : ٣ الحيوان

وهو ما ذهب إليه ابن خلدون^(١) ، ويقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً^(٢) ، وفي البيان فضوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع في اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعي إلى ذكره هنا خوفاً من كثرة الإسهاب . والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيراً في بيانه^(٣) ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف^(٤) » ، ويبحث على ترك الوحشى والسوق وعلى الإفهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتزمدip في صناعة الكلام ، وعلى أي حال فالبيان والتبيين أثر أدبي وعلى نفس ، والجاحظ يده على البيان العربي لاتجاهه ، ويعده ابن خلدون من السابقين في التأليف فيه^(٥) .

ولا يضرير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال^(٦) فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان وهي التي أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان^(٧) ، ومن الخطأ التهويين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيره السكثير من بلاغة العرب وسحرهم

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٢) ١٠٥ ملحة المجال .

(٣) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ : ٢ البيان .

(٤) ٥ : ١ الكامل للبرد

(٥) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٦) ٦ و ٧ الصناعتين

(٧) ومن هؤلام طه حسين الذي يرى أن الجاحظ هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربي حقاً (راجع ص ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين) .

في البيان كايجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية، وقد نهج فيه الجاحظ منهج الساحر، وكتبه بأسلوبه العميق الحكيم، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده. والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطيباء حتى عصر الجاحظ، وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل، وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربي: شعره ونثره، وقاده الاستطراد إلى الإسلام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان.

والكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهداً المشيب، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطليها.

وهو أصل من أصول الأدب، وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في أدابها.

وقيمة في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والأراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهاتها وألوانها وغياراتها وأثرها، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم، وكفى أن تقرأ فيه: البلاغة كاتتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة، أو كما رأها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحريره وتنميقه إلى غير ذلك من شئ الآراء التي كتبها الجاحظ مستقلاً بالتفكير فيها.

وإذا كان للجاحظ نظر التلمذة والرواية - في كتابه - عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمى وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وابن العاصي

وَكِيرَاهِيمُ بْنُ السَّنْدِي وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ رُوحِ الْغَفارِي وَمُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرِ الشَّاعِرِ وَكِتَامَةُ وَالنَّظَامُ ، وَسُوئِي هُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ فَيُجِبُ أَنْ لَا نَسِيَ أَنْهُ قَدْ كَانَ لِعُلَمَاءِ الْأَدْبِ وَالبَيَانِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ عَصْرِ الْجَاحِظِ هَذَا الْفَخْرُ نَفْسَهُ بِالْتَّلَذُّذِ عَلَيْهِ وَعَلَى كِتَابِهِ «الْبَيَان» : كَابِنِ قَتِيبَةِ وَقَدَامَةِ وَأَبِي هَلَالِ وَالْقَاضِيِّ الْجَرجَانِيِّ وَعَبْدِ الْفَاقِرِ الْجَرجَانِيِّ وَسَوَامِ .

وَلَقَدْ خَدَمَ الْجَاحِظُ الْبَيَانَ الْعَرَبِيَّ فِي كِتَابِهِ عَامَةً ، وَكِتَابِهِ الْبَيَانِ وَالنَّدِينِ خَاصَّةً ، فَهُوَ أَظَهَرَ مِنْ أَفْرَدِهِ بِالنَّاَلِيفِ وَأَسْبِقَهُمْ ، فَوْقَ مَا جَعَلَ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَرَاءِ وَالْمَذاهِبِ فِيهِ ، وَالْجَمْعُ وَالإِحْصَاءُ أُولَئِكَ هُنَّ خَطْوَاتُ الْبَحْثِ وَالْابْتِكَارِ وَالتَّجَدِيدِ ، وَمَنْزَلَةُ الْعَالَمِ فِي الْجَمْعِ لَا يُمْكِنُ لِغَصْنِ مِنْهَا أَوْ الْإِسْتِهَانَةُ بِهَا إِذَا قَرَأَتْ كِتَابَ الْجَاحِظِ لِأَسِيَا وَالْحَيَوانِ ، وَ«الْبَيَان» عَرَفَتْ مَنْزَلَةَ الْجَاحِظِ فِي هَذَا السَّيْلِ .

وَالْجَاحِظُ فَوْقُ أُثْرِهِ الْكَبِيرِ فِي جَمْعِ آرَاءِ رِجَالِ الْبَيَانِ وَالْبَلَاغَةِ فِي مَذَاهِبِهِمَا وَعَنَاصِرِهِمَا فِي كِتَابِهِ «الْبَيَان» ، عَلَى الْخَصُوصِ ، لَهُ وَرَاءُ ذَلِكَ فَضْلٌ خَاصٌّ وَجَمِيدٌ مُسْتَقْلٌ فِيهِ ، فَقَدْ اسْتَقَلَ بِبَحْرِ ثَوْبَتِهِ جَدِيدَهُ صَبَغَهُ بِشَخْصِيَّتِهِ وَاسْتَمْدَهَا مِنْ عَقْلِيَّتِهِ وَثِقَافَتِهِ ، وَعَرَفَتْ لَهُ وَحْدَهُ دُونَ سُوَاهِ مِنَ الْبَاحِثِينِ فِي الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ وَقَوْاعِدِهِ .

٦ — وَلَقَدْ عَاشَ الْجَاحِظُ فِي عَصْرِ ازْدِهْرِهِ الْأَدْبِ وَدِرَاسَاتِهِ ، وَحَلَّ لَوَادِهِ طَوَافَتِهِ عَدَدَ :

١ - طِبْقَةُ رِوَاةِ الْأَدْبِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْبَصَرِيِّينَ وَالْكَوْفِيِّينَ وَالْبَغْدَادِيِّينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَرْوُونَهُ إِشْبَاعًا لِنَفْسِهِمْ فَنَطَرُهُمْ وَأَذْوَاقُهُمْ الْأَدِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الْخَالِصَةُ ، مِنْ أَمْثَالِهِ : خَلْفُ وَالْأَصْمَعِيِّ وَأَبِي عَبِيدَةِ وَأَبِي زَيْدِ وَيَحِيَّيِّ بْنِ نَجِيْمِ وَعَمْرُو بْنِ كَرْكَرَةِ وَرَايِّنِ سَلَامَ ، وَأَسْتَاذَمُ أَبُو عَمْرُو وَبْنِ الْعَلَاءِ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْعَرَبِ وَالْعَرَبِيَّةِ (١)

(١) ١٠٦ : ١ الْبَيَانِ وَالنَّدِينِ .

ومن عامة رواد الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة
والمعانى المختيبة ، وعلى الألفاظ العذبة والخارج السمهة والديباجة السكرية ،
وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى
المعانى التى إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة -
كما يقول الجاحظ - دون النحوين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه
إعراب ، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمائل ،
واللغويين الذين لا يرون إلا كل شعر فيه غريب (١) .

٢ - وبجوار هذه الطبقة من الأدباء عاش الشعراء الذين طارت شهرتهم
في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدس وأبي
نواس وأبي العتاھيہ والسيد الحیری وأبان اللاحق ومنصور الفری وصلم
الخاسر وابن أبي عینة وبخي بن نوبل وخلف بن خلیفة ومحمد بن بشیر
والعتابی وصلم وأبی تمام (٢)... وبجوار هؤلاء وهو لام وجدت جماعات كثيرة
من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بني على وبني العباس ومن رجال
الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعزلة وفرق المتكلمين الذين
رأم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثیر من البلاءه (٣) .

٣ - طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة في البلاغة
منهم ، والذين التساوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وخشيا ولا ساقطا
سوقيا (٤) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فبهم أعم (٥) ،

(١) ٢٢٤ : ٣ المرجع .

(٢) ٥٤ : ١ المرجع .

(٣) ١٠٦ : ١ البيان .

(٤) ١٠٥ : ١ البيان .

(٥) ٢٢٥ : ٣ المرجع .

و حكم مذهبهم في نقد البيان (١) ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والتقط من الذين فهموا لغاتهم وبلغتهم ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وأدابها وأخذوا يحذرون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاه الحضارة والترف المقللي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشائخين لهم من شدة الأدب كما ترى في محااضرة بشر بن المعتمر المعنزي المتوفى سنة ٢٠٥هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها: إن بشر امرء إبراهيم ابن جبلة بن خرمة وهو يعلم الفتياًن الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر : اضرروا عما قال صفحوا واطروا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفته من تجويره وتنميته ، وهي في أصول البلاغة وعناصر البيان (٢) ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم ولي هشام بن عبد الملك وعبد الحميد السكاكب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٣) وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويعيى بن خالد وعمر وبن مساعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بأدبهم وبلغتهم إلى أرق المناصب في الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التي توأم ذوق يقتهم وعصرهم مما زاد مبتئونا في كتاب البيان والتي لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبي السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء في الشرح والتحليل .

(١) ٤٠ : ١ المرجع

(٢) ١٠٦ : ١ المرجع

(٣) ١٥١ : ١ المرجع

وألا جا حظ مذهب أدي كاملاً دعا إليه في كتابه البيان والتبيين في مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير، وهذا المذهب مستمد من عقليته وثقافته وبيئته، وهو المظهر القوى من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين.

ويكفي إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من: سحر اللفظ وتلاؤم الحروف، ووضوح المعنى، وترك التكاليف والتعقيد والإغراب والوحشية والسوقية، ومراعاة المقام وإصابة الغاية، مع الحدق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعانى في سحر وإيجاز، ومع البعد عمما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البلاغة وخلقه وطبعه أو زيه، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظاهره وشخصيته وأثره فيه، ومع مسيرة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته، ومع الحرص على إثارة نشاط السامعين والقراء والاحتياط على ذلك: بالفكاهة الجميلة، والاستطراد الساحر، وببراعة الأسلوب وسره وقوته، وبالرواية الكثيرة لاعلام الأدب والبيان التي تلقى في روع السامع والقارئ روح المحبة والإعجاب بهم والموقف، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقد مما يجعل السامع والقارئ متطلعاً مسيراً للموقف في اتجاهاته الفكرية والأدبية، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع إلى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشئ أو لوان البديع فإذا طلبها الطبع واستدعها المقام.

ومن الجدير باللاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي رآها بعض الباحثين المعاصرین من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده، ليشعر القارئ بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار، ولذلك يكتب به رضاه وتقديره وإعجابه. ولا أحياناً في فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفة من كتابه، فاقرأوا أي صفحة

منه؛ وقد ظهر الجاحظ في عصر شاعر فيه اتجاهان مختلفان: اتجاه يرمي إلى الظهور بمعظمه بالبدوة التقليدي في الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الآفاظ والمعجمى من الأساليب متناسياً روح العصر وذوقه، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبالواقع الحضارة في العيش والتفكير، فمال إلى رقة الأسلوب وسمواته، مع حرص على إرجاعه الطبع والذوق، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المتعددة وعاصرها ولكته مال بطبيعة وذوقه إلى الاتجاه الآخر، وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى، فهو حيناً يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم في البيان، وحينما يكرر الدعوة إلى الوضوح والإفهام ومسايرة الذوق والطبع، وحينما ينقد مذاهب الصنعة في الشعر، وحينما يدعو إلى ترك التشكيل والتعميق والتعمير وإثارة الأساليب السحرية السحرية.

ومن أجل ذلك كان الجاحظ يلقب حقاً بشيخ الكتاب وعرف بهذا اللقب في حياته وبعد حياته.

والجاحظ أديب وكاتب ومتسلل ومؤلف وناقد، وليس شاعراً مع أن له شعرآ، ولا يضيره ذلك، نعم لا يضيره أن يكون كما قال بديع الزمان المعناني فيه: «هو من أحد شق البلاغة يقطف»، وفي الآخر يقف (١)؛ فقد يجيد الرجل في باب من أبواب الأدب دون باب ولا يغفل ذلك من إحسانه فيها أحسن فيه.

ولكن البديع يبدو أنه كان يتعامل على الجاحظ تحامل من يريد أن يرجع من طريقه كل من لم قدما في الأدب والبلاغة ليظل هو العلم في هذا المجال على

(١) ٨٢ المقامات الجاحظية - مقامات البديع.

من العصور ، ولذلك تجد البديع ينقد أدب الجاحظ بأنه ، بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ منقاد فيه لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه بهله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ^(١) .

وقد روى للجاحظ شعر قليل ، هو أشبه بشعر العلماء .

وأدب الجاحظ كما يقول فيه بعض الباحثين ^(٢) : أدب واقعي بل طبيعي ، يؤثر فيه التصريح على التلوين ، ويصور الحقيقة كما هي ، ويرى في ذلك السبيل الأقوم ، بل هو يدعوا إلى هذا المذهب ، ويعيب من ير غب عنه .

وهو أدب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تكاد تجد مؤلهاً يعطيك من هذه ثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة في سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة في تفكيره الحر واعتياده على المعمول ، ويبيذ الجميع في ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره . ولو قيض لمجموعة مصنفاته البقاء ، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ في كل مناحيه ، وعما وصل إليه العلم والأدب والاجتماع .

ويعتمد أدب الجاحظ على عناصر شتى ، أقواها بلاغة العرب في الجاهلية والإسلام ، والكتاب والسنة ، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم ، ولكن أظمر ما يكون فيه الرأى الشخصي والتفكير الحر .

لأن كان ابن المقفع إمام الكتاب في عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم

(١) ٨٢ و ٨٣ المرجع .

(٢) راجع ص ٢٠ و ٢١ الجاحظ لخليل مردم .

في عصر الوضع والتأليف والإبداع وتكوين الأدب الحضري المرتasser على أساس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئاً من فصاحة البداوة وروعتها .

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف في الأدب ، وكل من ألف بعده متاثر بطريقته شعر أم لم يشعر . قال ابن النديم في الفهرست : « ابن خلاد الراهمي حسن التأليف مليح التصنيف يسلكه طريقة الجاحظ » . وقال أيضاً : « الأمدي مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيها يعمله من السكتب » .

ولم يقف أثره عند هذا الحد بل تعدد إلى أن أصبحت الكتابة ترسم خطاه في الإنشاء بل تتجسس جله ذات الجلبة في السمع والروعة في النفس . قال القاضي الفاضل : « وأما الجاحظ فاما من عشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة .

٧ — وشخصية الجاحظ في مؤلفاته وأدبه أطاعتكم من كل جانب وناحية ، وهي شخصية رجل الفكر الواائق بنفسه وعقله وثقافته ومنزلته في مجتمعه حتى ليخاطب الوزراء والعلماء ويراس لهم كأنه منهم ، فلم يكن شخصيته في شخصياتهم ، بل رآهم إخوانه ، وله عليهم حق الصداقه ، ودالة الآخرة ، ولم يجهzin عن توجيه العتاب واللوم إليهم في أحيان كثيرة . وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ تغيب في جو بعيد عنك تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتسو吉تها الساحر لعقل القارئ وفكرة وشعوره ، حتى لا يكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعوراً صادقاً أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشبع فيه روح قوية ساحرة تملأ عليك عقلك وعطفتك وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كافر وعلك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعاً في معارك فكريه ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه

البلين فيها عصا الساحر المتجددى الذى تسترعى السمع والبصر . وتبهت
الفكر والعقل وتلهم العاطفة والشuron .

والعجب أن صحة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تأليفه جعلت كثيراً
من لا يفهمون الجاحظ يرونـه «كأنـاً لـا شـخصـيـة لـه ، تـطـمـنـ شـخـصـيـاتـ منـ
يـرـوـيـ لـهـمـ وـيـنـقـلـ عـنـهـمـ كـلـ أـثـرـ لـشـخـصـيـةـهـ ، فـتـقـرـأـ الجـاحـظـ وـأـنـتـ تـقـرـأـ
لـسـوـاءـ ، وـتـبـدـوـأـمـامـ عـيـنـيـكـ صـورـشـتـيـ لـرـجـالـ لـاتـرـىـ الجـاحـظـ فـيـهـمـ وـلـاـتـمـسـ
آـثـارـهـ بـيـنـهـمـ» .

ومنـشـأـ ذـلـكـ أـنـ الجـاحـظـ رـجـلـ مـنـ الـخـاصـةـ فـيـ فـكـرـهـ وـفـيـ كـتـابـتـهـ وـأـسـلـوـبـهـ
وـفـيـ بـحـثـهـ وـتـأـلـيفـهـ ، مـاـذـاـ فـكـرـ فـيـعـقـلـ الـخـاصـةـ ، إـذـاـ كـتـبـ أـوـأـلـفـ فـيـأـسـلـوـبـهـ
وـلـمـ يـفـسـكـرـ فـيـ مـجـالـ تـفـكـيرـهـ ، وـلـيـسـ ذـلـكـ لـأـنـ الجـاحـظـ ، يـسـتـمـسـكـ بـفـانـدـهـ
وـيـضـنـ بـعـانـدـهـ غـيـرـةـ عـلـىـ الـعـلـمـ وـشـخـصـيـةـ الـفـهـمـ ، وـلـذـلـكـ كـانـ كـتـابـ «ـالـبـيـانـ»
مـوـقـوـفـاـ عـلـىـ أـهـلـهـ وـمـنـ كـرـعـ فـيـ حـوـضـهـ ، أـمـاـ الـجـاهـلـ وـالـمـبـدـىـ ، مـلـاـ نـفـعـ لـهـ
مـنـ كـتـابـهـ ، كـمـ كـانـ اـبـنـ شـهـيدـ . إـنـمـاـ ذـلـكـ لـأـنـهـ كـمـ أـرـىـ لـاـ يـسـتـطـعـ إـلـاـ
يـفـسـكـرـ تـفـكـيرـ الـخـاصـةـ ، وـيـكـتـبـ بـعـقـلـمـ وـأـسـلـوـبـهـ ، وـلـأـنـهـ رـجـلـ يـكـتـبـ
لـنـفـسـهـ قـبـلـ كـلـ شـيـ «ـوـيـرـضـيـ شـهـوـتـهـ فـيـ تـدوـينـ عـنـاصـرـ الشـفـافـةـ الـأـدـيـةـ وـالـعـلـمـيـةـ
عـلـىـ طـرـيـقـةـ كـتـابـ الـمـوسـوعـاتـ (١)ـ وـمـاـذـاـ الجـاحـظـ كـذـلـكـ فـانـ يـسـتـطـعـ أـنـ
يـفـهـمـ إـلـاـ رـجـلـ مـثـلـهـ فـيـ فـكـرـهـ وـاتـجـاهـهـ وـنـفـاقـهـ ، وـلـنـ يـتـسـنىـ لـكـثـيرـ أـنـ يـفـهـمـواـ
الـجـاحـظـ وـأـنـ يـؤـمـنـواـ بـشـخـصـيـةـهـ فـيـ كـتـبـهـ وـمـؤـانـهـ مـاـدـامـواـ لـاـ يـسـتـطـعـونـ
جـمـارـانـهـ فـيـ نـوـاحـيـ ثـقـافـتـهـ الـعـقـلـيـةـ وـالـأـدـيـةـ . وـحـسـبـ الجـاحـظـ بـجـدـاـ وـخـلـودـ
ذـكـرـ أـنـ يـكـرـونـ لـهـ كـتـابـ مـثـلـ كـتـابـ الـبـيـانـ وـالـتـيـبـينـ .

٨ - ولـجـاحـظـ مـؤـلـنـاتـ كـثـيرـةـ نـذـكـرـ بـعـضـهـاـ يـاـيـجازـ :

(١) رـاجـعـ ٤٩ : ٢ـ التـئـرـيـقـيـ لـوكـيـ مـبارـكـ .

(١) كتاب البيان : وقد أهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهوره « البيان والتبيين » صحة كبيرة في الأدب والبيان حتى إنه سهل إلى الأندلس فيها حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهادة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر والذيع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القاريء . وإنما به كما يقول الجاحظ في تعليمه له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم في كتابه ترتيباً يتبع مع التاريـخ بعجزه عن تناسق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ فالجاحظ لو أراد لما أبـعـدـهـ شـيءـ ، إنـماـ هوـ مـذـهـبـهـ فـيـ الـاسـطـرـادـ وـالـانتـقالـ .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيراً منها — محاضرات يلقاها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحياناً روح توافق بين هذه المحاضرات وبين ما يجب من أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطرادي يجعل الجاحظ يعددنا في كتابه بأنه سيدرك الشيء ثم لا يذكره ولا يفي بوعده ، وهذا الأسلوب الاستطرادي أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب نصوص كتابه وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القاريء بمزيد من الابتسام ، فهو يعنون فصولاً بباب البيان وأخرى يسميها بباب الصمت وأخرى بباب اللعن أو بباب الرزد إلى آخر هذه الألقاب ، التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضعها إلا للتغريب بالقاريء . واكتساب نفاذته وامتحان ملائكته

ويقول بعض العلماء : نفر أهل البصرة باربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل .

(٢) كتاب الحيوان : وقد ألفه الجاحظ قبل كتاب «البيان والتبيين»، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، وهو أول كتاب ألف في موضوعه ، وقد طبع في سبعة أجزاء ، ويبحث عن طبائع الحيوان ، وما ورد فيه من الأخبار والقصص والنواذر والخرافات والفساقيات والجنون ، وما قالته العرب فيه من الشعر فضلاً عما اختبره المؤلف بنفسه .

وفي استطراد الجاحظ الكثير في هذا الكتاب ، يقف القارئ في أثناء ذلك على أخبار متعة وفوانيد قيمة تمثل له المعرفة الإسلامية وما بلغته في القرن الثالث . فهناك أشعار الجاهليين والحضرمين والإسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آي القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الإسلامية ، وهناك شبه المحدثين والزنادقة والرد عليهم ، أضاف إلى ذلك معارف الهند واليونان والفرس بما ترجمه العرب وما تسوق إليه المناسبة في ذلك الكتاب ، فضلاً عن أنه يصور كثيراً من وجوه الحياة في القرن الثالث .

(٣) كتاب البخلاء : وهو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء ونواذر الأشقاء ، وصدره برسالة سهل بن هرون في البخل وهي من أبلغ وأمتع وأنفس ما كتب في هذا الموضوع . والكتاب ينبع جذاب لما فيه من خفايا سحرية .

ولقد أضاف إليه الجاحظ ما اتفق له من النواذر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو من آراء سديدة في الاقتصاد والتدبير .

(٤) كتاب المحسن والأحنداد : وهو كتاب حسن جمع الجاحظ فيه

نحو ثمانين موضوعاً متقابلاً، فهو يعقد للموضوع فصلاً يذكر فيه مخاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا إلى آخر الكتاب. وقد بدأه بذكر مخاسن الكتابة وختمه بذكر شيء من مخاسن الموت، وبجمع المواضيع التي عالجها ذات بال: كمخاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن وأصداءها. وقد صرخ الجاحظ في المقدمة بأنه لم يسبق إلى هذا الكتاب بقوله: « وهذا كتاب وسمته بالمخاسن والأضداد لم أسبق إلى نحته ولم يسألني أحد صنعه » والكتاب من أكثر كتب الجاحظ تفصيلاً وترتيباً وأشدّها مراعاة لحسن التبوييب وضم كل معنى إلى مشاكله. وقد جرى على سنته البيهقي فألف كتاباً سماه « المخاسن والمساوي ».

(٥) كتاب التاج في أخلاق الملوك: يبحث عما يتعلق بأمور الملك في السياسة والتدبير وفي حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومحادثتهم وما إلى ذلك من أحوالهم العامة والخاصة، وفيه شواهد عن ملوك الفرس وخلفاء العرب. والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسوخ قدمهم في الحضارة. وما يظن أن رسوم أعرق قصر بالمدنية في الوقت الحاضر تفوق ما ورد في ذلك الكتاب من الرسوم والآداب.

(٦) الفصول الختارة من كتب الجاحظ: وهو كتاب اختاره عبيد الله بن حسان من عشرين كتاباً للجاحظ وهذه أسماؤها: كتاب الحاسد والحسود، كتاب المعلمين، كتاب التربية والتدوير، كتاب مدح النيد، كتاب طبقات المغنين، كتاب النساء، كتاب مناقب الترك، كتاب حجج النبوة، كتاب مسائل القرآن، وفيه بحث عن خلق القرآن، كتاب الرد على النصارى، كتاب المودة والخليطة، كتاب استحقاق الإمامة، كتاب استنجاز الوعد، كتاب تفعيل النطق على الصمت، كتاب صناعة الكلام، كتاب مدح التجارة وذم عمل السلطان، كتاب الشارب والمشروب، كتاب الإمامة، كتاب مقالة الزيدية والرافضة.

(٧) ثلث رسائل للجاحظ هي : الرد على النصارى التي من ذكرها مع الفصول المختارة ؛ ذم أخلاق السكتاب ، رسالة القيان .

(٨) الحنين إلى الأوطان .

(٩) إحدى عشرة رسالة طبعت في مصر ذكر أكثرها في الفصول المختارة وما لم يذكر منها هو : غر السودان على البيضان ، كتاب الوكلاء والموكابين .

(١٠) رسالة في بنى أمية : وقد سماها بعضهم رسالة النابتة .

(١١) كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من الأدلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدبيره وهو كتاب قيم وأسلوبه عال ولكتبه بأسلوب الحسكة أشبه .

ومن كتبه المخطوطة التي لم تطبع بعد : كتاب المعرفة ، كتاب نظم القرآن ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ، كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب المغنين والغناء والصنعة ، كتاب آي القرآن ، كتاب حانون عطار ، كتاب التبليل ، كتاب فضل العلم ، كتاب جمهرة الملوك ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب الأمثال ، كتاب الرسالة البشريمة ، رسالة في القضاة والولاة ، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقة ، كتاب العالم والجاهل .

(٩) ألوان من نثر الماجحظ

السلام البليغ:

ومن شاكل - أبكاك الله - اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وقتا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من ساجدة الاستكراه ، وسلم من فساد التكليف ، كان قينا بحسن الموضع ، وحقيقةً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع صاحبه من تأويل الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائدين . ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومن كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيلاً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيب إلى النفس ، واتصل بالأذهان ، والتعمم بالعقل ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على السن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الرئيس . ومن أعاده من معرفته نصياً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، خبت إليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكليف ، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم .

كلام الرسول:

عاب النبي صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب أصحاب التقيير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وبغير الغريب الوحيى ، ورغم عن المجنين السوق ، فلم ينطلق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلّم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوافق ، وألقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المباهة والخلارة ، وبين حسن الإفهام والإيمان ، ومع استغناه عن إعادته ، ونلة

حاجة اسامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلة ، ولا زلت به قدم ، بل يذ
الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم إلا بما يعرفه
الخصم ، ولا يحتاج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفرج إلا بالحق ، ولا يستعن
بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلزر ، ولا يبسطي ولا يعجل ،
ولا يسهب ولا يحصر .

وما سمع كلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ،
ولا أجمل مذهبها ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسمى مخرجا
من كلامه صلى الله عليه وسلم .

جواب كلمه :

يحب للرجل أن يكون سيناً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الموج ،
محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ الفحة ، قواً لا يبلغ المذم ، صحيتاً
لا يبلغ العي ، حلهاً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ
الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، نافداً لا يبلغ الطيش ثم وجدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك في كلمة واحدة وهي قوله : « خير الأمور
أو ساطها » ، فعلينا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوفى جواب الكلم وعلم
فصل الخطاب .

سر البيان :

قال بعض الربابين وأهل المعرفة من البلغاء ، من يكره التشادق والتعمق ،
ويبغض الإغرار في القول والتسلف والاجتلاف ويعرف أكثر أدوات
الكلام ودوائنه وما يعتري المشكل من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض
للسامع من الافتتان بحسن مايسع : أذركم حسن الألفاظ وحلاؤه خارج
الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاده البليغ مخرجاً سهلاً ومنعه

المتكلم قوله متعشقاً ، صار في القلب أحلى ، وللصدر أملاً . والمعانى إذا كسبت الألفاظ السكرية ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأرببت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زينت ، وعلى حسب ما زخرفت . والقلب ضعيف ، وسلطان الموى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفي .

بلاغة العرب :

كل شيء للعرب فإنما هو بديمه وارتجال وكأنه إلحاد ، وليس هناك معاناة ولا مكافحة ولا إجلالة فكر ولا استعانته ، وإنما هو أن يصرف ومه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصم أو حين أن يتمتع على رأس بئر أو يجدوا بغير أو عند المفارعة والمناقشة أو عند صراع أوفي حرب . فما هو إلا أن يصرف ومه إلى جلة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعانى ارسالاً وتذلل عليه الألفاظ انتياً لام لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحداً من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأفهم ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه في البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس لهم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ماعلق بقلوبهم والتعم بتصورهم واتصل بعقولهم . من غير تكفل ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ، وإن شيئاً الذي في أيدينا جزء منه ، بل بالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن — أبقاك الله — إذا أدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيدة والارجاء ، ومن المشور والأبجع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فعندنا "علم

على أن ذلك لم يشاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحو الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفهم في البيان أن يقول في مثل ذلك إلا في اليسير والنجد تقليل ، ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المفعع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير .

وأخرى أولئك متى أخذت يد الشعوب فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ، ومعدن الفصاحة الناتمة ، ووقفته على شاعر مغلق ، أو خطيب مصحع ، علم أن الذي قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عيانا .

فهذا فرق ما بيننا وبينهم ، ففهمهم عنـ - فهمك أقهـ - ما أنا قائل في هذا ، وأعلم أنك لم تر قماقط وأشقي من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه . ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنا ، من أهل هذه النحلة . وقد شق الصدور منهم طويلا جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقف نار الشفان في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفارقة ، وتسعر تلك النيران المضطربة . ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وألاتهم وشمائلهم وهياـتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوا ولم تكفووه ؟ ، لراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤوثهم على من خالطهم .

الكتاب :

الكتاب وعاء مليء علينا ، وظريف حشى ظرقا ، وإنما شحن مزاحا وجدا ، إن شئت كان أبين من سخنان وائل ، وإن شئت كان أعي من بافل ، وإن شئت

مُحْكَتْ مِنْ نَوَادِرْهُ ، وَإِنْ شَدَّتْ بَعْبَتْ مِنْ غَرَائِبْ فَرَانِدْهُ ، وَإِنْ شَدَّتْ أَهْنِكْ طَرَانِهُ ، وَإِنْ شَدَّتْ أَشْجَنْتْ مَوَاعِظْهُ . وَمِنْ لَكْ بُواعِظْ مَلَهُ ، وَبِوَاجِرْ مَغْرُ ، وَبِنَامِكْ فَاتِكْ ، وَبِنَاطِقْ أَخْرِسْ .

وَمَتْ رَأَيْتْ بِسْتَانَا يَحْمِلْ فِي رَدْنَ ؟ وَرَوْضَةْ تَقْلِبْ فِي حِجَرْ ، وَنَاطِقْ يَنْطِقْ عَنْ الْمَوْتِ وَيَتْرَجِمْ عَنِ الْأَحْيَاءِ ، وَمِنْ لَكْ بَهْوَنْسْ لَيْنَامْ إِلَابِنُوكْ ، وَلَا يَنْطِقْ إِلَابِنَا تَهْوِي . آمِنْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْتَمْ لِلْسَرِّ مِنْ صَاحِبِ السَرِّ ، وَأَحْفَظْ لِلْوَدِيعَةِ مِنْ أَرْبَابِ الْوَدِيعَةِ .

وَلَا أَعْلَمْ جَارًا أَبِرْ ، وَلَا خَلِيلًا أَنْصَفْ ، وَلَا رَفِيقًا أَطْوَعْ ، وَلَا مَعْلِمًا أَخْضَعْ ، وَلَا صَاحِبًا أَظْهَرَ كَفَايَةً وَلَا قَلَّ إِمْلاً لِإِبْرَامًا وَلَا أَكْثَرَ أَعْجُوبَةً وَتَصْرِفًا وَلَا أَقْلَى تَصْلِفَا وَتَكَافَا وَلَا بَعْدَ مِنْ مَرَاءِ مِنْ كِتَابِهِ .

وَلَا أَعْلَمْ نَتَاجًا فِي حَدَائِثَ سَنَهُ ، وَقَرْبَ مِيلَادِهِ ، وَرَخْصَ ثَمَنِهِ ، وَإِمْكَانَ وَجُودِهِ ، يَجْمِعُ مِنْ التَّدَابِيرِ الْعَجِيْبَةِ وَالْعِلُومِ الْغَرِيبَةِ وَمِنْ آثَارِ الْعُقُولِ الصَّحِيْحَةِ وَعَمُودِ الْأَذْهَانِ الْلَّطِيفَةِ ، وَمِنْ الْحُكْمِ الرَّفِيقَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْقَدِيمَةِ وَالْتَّجَارِبِ الْحَكِيمَةِ ، وَمِنْ الإِخْبَارِ عَنِ الْقَرُونِ الْمَاضِيَّةِ وَالْبَلَادِ الْمُتَازَّةِ وَالْأَمْثَالِ السَّاَزَةِ وَالْأَمْمِ الْبَانِدَةِ ، مَا يَجْمِعُ لَكَ السِّكْتَابِ .

صَامَتْ مَا أَسْكَتَهُ وَبَلَيْغَ مَا اسْتَنْطَقَتَهُ ، وَمِنْ لَكْ بِمَسَامِرِ لَا يَبْتَدِيكْ فِي حَالِ شَغْلِكِ وَيَدُوكِ فِي أَرْقَاتِ نَشَاطِكِ ، وَلَا يَحْوِجُكِ إِلَى التَّجْمِلِ لِهِ وَالْتَّذَمِمِ مِنْهُ .

وَالسِّكْتَابُ هُوَ الَّذِي إِنْ نَفَرَتْ فِيهِ أَطْالَ إِسْتَاعَكِ ، وَشَحْنَةِ طَبَاعِكِ ، وَبَسْطَ لِسَانِكِ وَجُودَ يَيْانِكِ وَنَثْمَنَ الْفَاظِكِ ، وَنَبْحَنَ نَفْشِكِ وَعِمْرَ صَدَرِكِ وَمَنْهُكِ تَعْظِيمُ الْعَوَامِ ، وَصِدَّاقَةُ الْمُلُوكِ . وَعَرَفَتْ بِهِ فِي شَهْرِ ، مَا لَا تَعْرَفُهُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ فِي دَهْرِ ، مَعَ السَّلَامَةِ مِنَ الْغَرَمِ وَمِنْ كَدِ الْطَّلَبِ وَمِنْ

الوقوف بباب المكتتب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً وأكرم عرقاً ومع السلامة من محالسة البغضاء ، ومقارنة الآغياء .

قال ابن الجهم : ، إذا غشيني النعاس في غير وقت نوم — وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة — تناولت كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازي للفوائد ، والأرجحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذى يخشى قلبي من سرور الاستفادة أشد إيقاظاً من هدة المد . وإذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو ترافى وأنا ساعة بعد ساعة أنظركم بقى من ورقه مخافة استفاده وانقطع المادة من قلبه . وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشى وكل سروري .

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله أذنه من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتاب أذنه عنده من عشق التبيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً ، وليس ينفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ الكتاب لإثارة الأعرابي فرسه باللين على عياله ، وحتى يومن في العلم ما يومن الأعرابي في فرسه .

سياسة الحرم :

من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنـة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيـي في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرب في تدبيره ، وظنـأن رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل لإحياء الجميع ، وبعض العـفو [غـراء] ، كـأن بعض المنع [إـعـطاـء] . ولا خـير فيـمن كان خـيرـه محـضا ،

وشر منه من كان شره صرفاً، ولكن اخلط الوعد بالوعيد، والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على التواب والعقاب، والأطاع و الإخافة. ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطعم ولم ينجر وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه، غير الخير ما كان بمزوجاً، وشر الشر ما كان صرفاً.

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده. لكان الله عن وجل أولى بذلك الحكم. وفي إطباقي جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكر و المحبوب، دليل على أن الصواب فيه دون غيره، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام، وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر، عاد ذلك الشر خيراً، وذلك المنع إعطاء، وذلك المكر ومحبوباً. وإنما الشأن في العواقب وفيها يدوم ولا ينقطع وفيها هو أدوم ومن الانقطاع أبعد.

الصوت :

أمر الصوت عجيب، وتصرفة في الوجه عجب، فلن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة، ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتفتقن حتى ترقص، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حائق وذلك مثل هذه الأغاني المطرية. ومن ذلك ما يمكّد، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يخشى على صاحبه كثيرو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملختة، وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون، وقد يكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ، فقيل له : كيف يكىت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما يسكنى الشجأ .

وبالآصوات ينومون الصبيان والأطفال والدوااب تصر آذانها إذا غنى المكارى والإبل تصر آذانها إذا حدا في آثارها الحادى وتنزداد نشاطا

وتنزيل في مشاهدها . ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له ، وذلك أنهم يضربون بعضهم ويقطعونه قبل أجنام السمك شاخصة الأ بصار ، مصنفة إلى تلك الأصوات حتى تدخل في الحظيرة . ويضرب بالطسوس للطير وتصاد بها . ويضرب بالطسوس للأسد وقد أقبلت قبر وعمر آ تلك الأصوات . وقال صاحب المتنق : الآيائل تصاد بالصغير والثنا ، والصغير تسق به الدواب ، وتتفر به الطير عن البذور .

العرب :

لم يكونوا تجارة ولاصناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخروفهم صغار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب لما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورس المالكين ولا عرفوا الدوائين والقرارات ، ولم يفتروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغفروا الغنى الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذلاقط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربيه العراء ، لا يعرفون العمق ولا اللتق (١) ، ولا البخار ولا الغلط ؛ ولا العفن ولا التخم ، أذهان حديدة ، ونقوس منكرة ، حين حلوا حدم ووجهوا قوام إلى قول الشعر وبلاعة المنطق وتفقيف اللغة وتصارييف الكلام ، وقيادة البشر بعد قيافة الآخر ، وحفظ النسب ، والاهتمام بالنجوم والاستدلال بالأثار وتعرف الأنوار ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والمحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وأحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك النهاية ، وحازوا كل أمنية ؛ وببعض هذه العلل صارت نقوصهم أكبر وهمهم أرفع وهم من جميع الأمم أشرف ولا يأبهم أذكر .

(١) الفرق : الفساد من كثرة الأنداء . والاشق : نحوه .

ألوان من رسائل الجاحظ

رسالة في الاعتذار :

أما بعد فتعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبذس العوض من التوبة
الإصرار ، وإن أحق من عطفت عليه بحلك ، من لم يستشفع إليك بنيرك .
ولاتي بعمرقى بمبليخ حليلك وغاية عفوك ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك ،
وقد منعني من الألم مالم يشهه غير مو اصلتك .

رسالة أخرى في الاعتذار :

قال الجاحظ :

تشاغلت مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ أياماً فطلبني محمد بن عبد الملك
الزيارات لموانسته فأخبرته باتصال شغلي مع الحسن بن وهب فتشكر لي
وتلون على فككتبت إليه رقة نسختها :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الموى ، وصرف
ما أغارك من القوة إلى حب الإنفاق ، ورجح في قلبك إثمار الآلة ، فقد
خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسوبيين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة
سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن ثابت :

وإن امرأً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ماجنى لسعيد
وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذمه بالحق وبالباطل
فإن كنت اجترأت عليه - أصلحك الله - فلم أجترى إلا لأن دوام
نعاملك عن شيء بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من
المكانة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : « عمر
كان خيراً لي منك ، أرهبني فاتقاني ، وأعطاني فاغتناني » .

فإن كنت لاتهب عقابي - أيدك الله - خدمة ، فبئه لا يأديك عندي ،
فإن النعمة تشفع في النعمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ،
وإلا فاقفل ذلك لحسن الأحوذة ، وإلا فأت مأنت أهله من العفو دون
ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد .
وتتجافي عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه
نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلى منك ، هبمت عليه بالعقوبة .
واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كزيرن صفحتك عنى ، وأن موت ذكرى
مع انقطاع سبي منك كحياة ذكرك مع اتصال سبي بك ، واعلم أن لك فطنة
عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

رسالة في الشوق :

ما أضاء لي نهار ولا دجاليل مذفاريتك إلا وجدت الشوق إليك قد حزن
في كبدى ، والأسف عليك قد أسقط في يدى ، والنزاع نحوك قد خان جلدى .
فأنا بين حشا خاقفة ، ودمعة مهرافة ، ونفس قد ذابت بما تجاهد ، وجوانح
قد أبليت بماتكابد ، وذكرت - وأنا على فراش الارتماض ، من نوع من لذة
الاغتساض - قول بشار :

إذا هتف القمرى نازعنى الموى	بشوق فلم أملك دموعي من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا	وكنا كاه المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بيني زمانا وبينها	كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجزى في مودتنا إليه ، في شعره
هذا . وذكرت أيضاً مارمانى به الدهر من فرقه أعزائي من إخواني
الذين أنت أعزهم ، ويتحنى بين نأى من أحبابي وخلصائى الذين أنت أحبهم
وأخلصهم ، ويحرعنه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن
آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أو بتأنك ، وقلت أيا تأنقسر
عن صفة وجدى وكنه ما يتضمنه قلبى وهى :

بمخدى من قطر الدموع ندوب
وبالقلب من مذ نايت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الخشا
ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولى شاهد من ضر نفسي وسقماها
يخبر عن انتى لـ كثيـب
كأنى لم أجـع بفرقة صاحـب
ولا غـاب عن عينـي سواك حـبيب

رسالة له إلى ابن الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء فقط أدوى من الغيفظ ولا رأيت شيئاً هو أفقـذ
من شماتة الأعداء ولا أعلم ببابا أجمع لخصال المـكرـوهـ من الذـلـ . ولـكـنـ
المظلوم مـاـدـامـ يـجـدـ منـ يـرـجـوـهـ وـالـمـبـلـىـ مـاـدـامـ يـجـدـ منـ يـرـفـ لـهـ فـهـ عـلـىـ سـبـبـ
درـكـ، وإنـ تـطـاـوـلـتـ بـهـ الـأـيـامـ ، فـكـمـ مـنـ كـرـبةـ فـادـحـةـ وـضـيـقةـ مـصـمـتـةـ قـدـفـتـحـتـ
أـفـقـاـهـاـ وـفـكـكـتـ أـغـلـاـهـاـ، وـمـمـاـ قـصـرـتـ فـيـهـ فـلـمـ أـنـصـرـ فـيـ الـمـعـرـفـةـ بـفـضـلـكـ وـفـيـ
حـسـنـ النـيـةـ بـيـنـيـ وـيـنـكـ، لـاـمـشـتـ الـمـوـىـ وـلـاـمـقـسـمـ الـأـمـلـ، عـلـىـ تـعـصـيرـ قـدـاحـتـلـهـ .

إلى الفتح بن خاقان :

كان الفتح بن خاقان وزير المـتوـكـلـ عـلـىـ اللهـ العـبـاسـيـ ، أـكـبـرـ رـجـلـ فـيـ
دارـ الـخـلـافـةـ ، وـكـانـ مـنـ عـظـاءـ الـدـوـلـةـ وـأـصـحـابـ الـمـكـانـةـ وـالـسـلـطـانـ فـيـهـ ،
وـكـانـ عـلـىـ جـانـبـ عـظـيمـ مـنـ الـدـهـاءـ وـالـسـيـاسـةـ وـالـفـضـلـ ، وـكـانـ مـقـصـودـ الـجـانـبـ
مـنـ أـكـابرـ الـعـلـمـاءـ ، وـغـوـلـ الـأـدـبـاءـ ، وـأـرـبـابـ الـقـلـمـ مـنـ كـلـ فـنـ وـنـوـعـ ، وـكـانـ
محـبـاـ لـلـجـاحـظـ ، مـعـجـباـ بـأـدـبـهـ وـفـضـلـهـ وـسـعـةـ مـعـارـفـهـ ، وـكـانـ الـجـاحـظـ يـرـاهـ أـهـلـاـ
لـلـإـيـشـارـ ، وـيـعـتـدـهـ أـثـيـرـاـ بـالـاعـتـبـارـ ، فـأـنـفـ لـهـ رـسـالـتـهـ الـمـشـمـوـرـةـ فـيـ «ـ مـنـاقـبـ
الـتـرـكـ وـعـامـةـ جـنـدـ الـخـلـافـةـ »ـ وـرـفـعـهـ إـلـيـهـ بـهـذـهـ الـمـقـدـمةـ الـجـاحـظـيةـ
الـبـارـعـةـ ، قـالـ :

«ـ وـفـقـكـ اللهـ لـرـشـدـكـ ، وـأـعـانـ عـلـىـ شـكـرـكـ ، وـأـصـلـحـكـ وـأـصـاحـ عـلـىـ
يـدـيـكـ ، وـجـعـلـنـاـ وـإـيـاكـ مـنـ يـقـولـ الـحـقـ وـيـعـمـلـ بـهـ ، وـيـؤـثـرـهـ وـيـحـتـمـلـ
مـاـ فـيـهـ مـاـ قـدـ يـصـدـعـهـ ، وـلـاـ يـكـونـ حـفـلـهـ مـنـ الـوـصـفـ لـهـ وـالـمـعـرـفـةـ بـهـ ، دـوـنـ

الحث عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف النقاع عنده ، وإصاله إلى أهله ، والصبر على الحافظة في أن لا يصل إلى غيرهم ، والتثبت في تحقيقه لهم . فإن الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عاملين دون أن يكونوا عاملين ، بل عليهم ليعملوا وبين لهم ليتقوا . وتحوف الوقع في المضاد ، والتورط في الممالك ، طلب الناس للتبين . ولحب السلامة من الملكة والرغبة في المنفعة احتملوا نقل التعلم ، وتعجلوا مكره المعاشرة . ولقلة العاملين وكثرة الواصلين ، قال الأولون : العارفون أكثر من الواصلين ، والواصلون أكثر من العاملين . وإنما كثرت الصفات وقلت الموصفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال ما فيه معجل .

وقد أعجبني مارأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير خليفتك ، وإشفاشك من كل خلل دخل على ملوكه وإن دق ، ونال سلطانه وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خلق مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه متطرقاً ، والعدو عليه متعلقاً . فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متغطى متصفح (١) ومن معجب برأيه ذي خطل في بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد جميع الأمة ، ووكيل لسكان الملكة ، يضع نفسه في موضع الرقباء ، وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجاز العذر واضحأً ، ولا يقف فيها يكون للشك محتلاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى مالا يرى الغائب وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد اضطنه الحرمان . ومن ثم قد أفسد الإحسان . ومن مستبطئ قد أخذ أضعاف حقه ، وهو

(١) المتصفح : المقلب لوجه الأشياء عليه يعبر على ما يوجب المؤاخذة والانتقاد .

لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بيته له أكثر ،
وأن حقه أوجب . ومن مستزيله لو ارتبع السلطان سالف أيديه البعض
عنه ، ونعمه السالفة عليه . لكان لذلك أهلاً له مستحقاً . قد غره الإملاء ،
وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنته خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقه ، نفاق في المرج ،
قد أقصاه عن السلطان ، وأقام صفوه ثقاف الأدب ، وأذله الحسم بالحق ،
 فهو مغيب لا يجد غير التشنيع ، ولا يشقى بغير الإراجاف ، ولا يستريح إلا
إلى الأمان ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب . ومفتون من تاب ،
وخارص (١) لآخر فيه ، وخالف لا غناه عنده . يريد أن يسوى بالكافأة
ويرفع فوق الحياة ، لأمر سلف له ، والإحسان كان من غيره . وليس من
يرب (٢) قد يما بحديث ، ولا يحصل بدرس (٣) شرف ، ولا يحصل بين ثواب
المحتسبين ، وبين الحفظ لأنباء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق
الدمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراته ، ولا يحصل
بين طبقات الباطل في منازله (٤) .

ثم أعلمك بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب
أنصار خليفتك ؛ وإياها حطت بحياتك لأشياعه ، واحتاجلك لأولياته .
ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والمؤازرة على الخير ،
والمساكنة لأهل الحق . وقد استدللت بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط
اكتراك وتفقدك لآخيار الأعداء ، وبحثك عن مناقب الأولياء . على أن
ما ظهر من نصحك أمم (٤) في جنب ما بطن من إخلاصك ، فامتع الله بك
خليفته ، ومنحناوا لك مجتهه ، وأعاذنا من قول الزور ، والتغريب بالباطل .
إنه حميد مجید ، فعال لما يريد .

(١) الخارص : السكمذاب المقلق للباطل . (٢) رب : يريد ويصلح .

(٣) الدروس : الجو والإلاء . (٤) أمم . قريب ظاهر .

النقد في العصر العباسي الأول

انقسم نقاد الأدب وعلاؤه في هذا العصر إلى طبقات :

١ - فطائفه من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم ، وزرى بشعر المحدثين وفنيه لما فيه من إسفاف وإغراء وإحالات ونقص طبع وتفاوت نفس وتبان ملكلات ، - وهم علماء الأدب واللغة الذين شققا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلام م ١٥٤ هـ ، وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمى عشر سنين فاسمه يحتاج بيت إسلامي (١) ، وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لاعلى أساس شعرهم حتى قال : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهليّة ما قدّمت عليه أحداً » (٢) . وكان لا يبعد الشعر إلا ما كان للتقدّمين وسئل عن المؤلدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقو إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم (٣) ، وكان كما يقول ابن سالم في طبقات الشعراء : أشد الناس تسليماً للعرب .

ومنهم ابن الاعرجي م ٢٢١ هـ ، وكان يزري بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء (٤) فكان يقول في شعر أبي تمام : « إن كان هذا شرعاً

(١) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبيين ٣٠٩ : ١ ، العمدة ٧٣ : ١

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٥ .

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الموازنة ٨ ، الموسوعة ٣٠٤ ، أخبار أبي تمام ٢٤٤

فكلام العرب باطل (١) ، وأنشد ابن الطوسي أرجوزة لأنبياء تمام على أنها بعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فيما علم أنها لحبيب قال خرقوها (٢) ، وكان ابن الأعرابي يعيّب شعر أبي نواس فأنسدّه رجل شعراء له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأنبياء تمام أنسكه (٣) ، وكان يستشهد في كتاباته النواود بكثير من أشعار المحدثين ، ولعله لو علم بذلك ما فعله (٤) ، وكان يقول : ختم الشعر بآية هرمة (٥) ؛ وكان الأصمعي يقول : ختم الشعر بالرماح (٦) ، وقال : بشار خاتمة الشعراء وألقه لو لا أن أيامه تأخرت لفضله على كثير منهم (٧) ؛ وكان أبو حاتم يعيّب شعر أبي تمام (٨) .

ومنهم إسحاق الموصلي الذي كان في كل أحواله ينصر الأولئ ، وكان شديد العصبية طبع (٩) ، فتعصب على أبي نواس (١٠) ، وطعن على أبي العتاهية (١١) ،

(١) المرجع السابق .

(٢) التصحيف والتحريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبي تمام ١٧٥ ، ص ٤ وما بعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعز ١٣ ، المواذنة ١٠ . وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة .

(٣) راجع ١ : ٢٨٩ ذهر

(٤) أخبار أبي تمام الموصلي ١٧٧

(٥) العمدة ١ : ٧٣

(٦) البيان ١٩٧

(٧) الأغاني ٣ : ٢٣

(٨) الموسوعة ٣٠٤

(٩) أخبار أبي تمام ٢٢١

(١٠) راجع ٢٦٣ و ٢٦٤ من الموسوعة ، الأغاني ٣ : ٢٨

(١١) الموسوعة ٢٥٨

وكان لا يعتد ببيانه ويرد عليه (١) ، وسمع أبي تمام ينشد شعراً له فقال يا هذا لقد شددت على نفسك (٢) ، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبي لا يرضي طبقة النقاد التي احتذى حذوها وذلك لأنهم يرون أنه محدثاً كما فعل الأصمعي معه حين استحسن بيتهما إسحاق له فلما علم أن إسحاق صاحبها عابهما (٣) ، ولم يكن تعصب إسحاق للقدماء في الأدب وحده بل كان كذلك في الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تskر تغيير الغناء القديم وتعظيم الأقدم عليه (٤) .

وكان المأمون — رغم ثقافته الواسعة — يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول : انقضى الشعر مع ملك بن أمية (٥) ، ودخل عليه أبو تمام في زر أعرابي فأنشده بجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتى به فلما اتهى إلى قوله :

من الحمام فإن كسرت عيادة من حاتف قاتن حام
قال المأمون : الله أكبر كنت يا هذا قد خللت على الأمر منذ اليوم
وكنت حسبتك بدويا ثم تأملت معانى شعرك فإذا هي معانى الحضريين وإذا
أنت منهم ، فغضض به ذلك عنده (٦) .

ومثل ذلك التعصب للقدماء موجود في الآيات الأخرى . فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان م الإنادج التي يحب أن

(١) الأغاني ٢٨ : ٣

(٢) ٨ المواذنة ، وترى برواية أخرى (٢٢٧ الموشح)

(٣) الوساطة ٥٠ ، والمواذنة ١٠ (٤) الأغاني ٣٥ : ٩

(٥) ديوان المعانى ٣٦٢ : ١

(٦) ديوان المعانى ١٢٠ : ٢

تدرس ليلاً ونهاراً ، فإن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه (١) .

واعتذر الباقلاني عنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يجمع الغريب والمعان (٢) ، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة ثقفهم بما يأنى به المؤلدون (٣) .

ب - وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبي وحده في الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً كالمحافظ وابن تقيية والمبرد وابن المعتز (٤) ، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على الحدثين لغير سبب (٥) ، وفضل خلف لامية مروان على لامية الأعشى (٦) ، ويشرح الجرجاني والباقلاني مذهبهم في النقد (٧) .

ج - وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة في النقد كما فعل قدامة في نقد الشعر ، ومن هؤلاء جماعة من الكتاب تعمقوا في نقد الشعر ومنهاجها ولا سيما بعد إطلاعهم على ترجمة كتاب أرساطو في نقد الشعر الذي نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد في نقد الشعر كان الشعراء يتشددون في طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن

(١) قواعد النقد الأدبي ص ١٤٤ وما بعدها

(٢) إعجاز القرآن ١٠٠

(٣) المعدة ٧٣ : ١

(٤) الحيوان ٤٠ : ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ، الكامل ١٨ : ١ ، المعدة

١٤ : ١٧٤ (٥) أخبار أبي تمام ١٧٤ وما بعدها ، وسائل ابن المعتز

(٦) العقد ص ٤٠٣ : ٣

(٧) الوساطة ٣٧ وما بعدها ، إعجاز القرآن ١٠٠

(٨) زيدان ١٥٧ : ٣

مناذر م ١٩٨ : فقد أنشد أبا عبيدة قصيدة في رثاء عبدالمجيد بن عبد الوهاب
النقي (١) :

كل حى لاق الحمام فودى ما لحى مؤمل من خلود
وهي التي عارض بها قصيدة أبي (٢) زيد الطافى :
إن طول الحياة غير سعود وضلال تأميل طول الخلود
فقال : أحكم بين القصيدتين واتق الله ولا نقل ذاك متقاوم الزمان
وهذا حدث متاخر ، ولكن انظر إلى الشعرين ، وأحكم لاصحهما
وأجودهما (٣) .

انتهى الكتاب

(١) راجعها في الكامل للبرد ٢٨٨ و ٣٩٠ ، والبرد شديد الاعجاب
بـ ٢٢٨٨ ، ٢ : ٢ السكامل

(٢) راجعها في (٢٨٦ وما بعدها جهرة أشعار العرب)

(٣) ٥ طبقات الشعراء لابن المعتن

خاتمة الكتاب

هذه هي نهاية تلك الدراسات المستفيضة للأدب العباسى وجوانب التجدد فيه ، وهى دراسات استغرقت جهدا طاللا ، ووقتا كثيرا ، وتعد - كما هي - صورة واضحة للعصر العباسى وتاريخ النشاط الأدبي فيه ، وألوان هذا النشاط وأعلامه .

ولا أملك ما أقوله إلا أن أحمد الله على توفيقه ، وأسألة السداد والهدایة ، إنه أجل مأمول وأكرم مستول ، وما توفيق إلا به ۹

المؤلف

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١	الحياة الأدبية في العصر العباسي	١٤٦	أغراض الشعر
٢	الأول	١٤٨	الغزل
٥	العصر العباسي الأول	١٥٨	ال مدح
٧	قِيام المَوْلَةُ الْعَبَاسِيَّة	١٦٩	شعر السياسة والعصبية
١٧	الطابع السياسي في العصر	١٧٢	الوصف
٣٦	العباسي الأول	١٨٥	وصف الطبيعة
٤٥	الطباع الاجتماعي لهذا العصر	١٩٣	الصيد والطرد
٤٥	— ٧٥ الطابع النساني للعصر	١٩٥	الشريات
٥٢	العباسي الأول	٢٠٠	المسكدة
٦٣	ترجمة العلوم والآداب الأجنبية	٢٠٢	الرمد
٦٦	التأثير الأجنبي في اللغة وأدابها	٢٠٤	الفخر
٦٦	الثقافات الأجنبية وأثرها في	٢٠٦	العتاب
٧٦	اللغة والأدب	٢١٣	إلهياء والجعون
٧٦	— ٣٧٠ الشعر في العصر العباسي	٢١٦	الرثاء
٧٦	الأول	٢٢٦	الشعر الحماسي
٨١	تمهيد	٢٢٩	نماذج أخرى من الشعر العباسي
٨١	تطور الشعر في العصر المباني	٢٣٢	رواية الشعر
٨٤	الأول	٢٣٨	طبقات الشعراء
٩٧	عنابة الخلفاء وມنارة الشعراء	٢٣٩	الطبع والمصنفة عند المحدثين
١٠٤	مجالس الشعر والأدب	٢٤٨	ابن المعتن العباسي
١٠٦	المحدثون والمؤلفون	٢٧١	الشعر الفنى في العصر العباسي
١١٨	ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا	٢٧٥	الخطابة في العصر العباسي الأول
١٢٤	العمر	٢٧٥	صور من الخطابة

ملاحظة :

لا يفوّت القارئ تصويب بعض
الخطأ المطبعية ، وفي صفحة ٣ سطر
١٤ من القسم الثاني ذكر اسم أبي
مسلم وأبي سلية الخلال كل مسakan
الآخر .

الموضوع	الصفحة
تطور الخطابة في هذا العصر	٢٨٤
الكتاب في هذا العصر	٢٩٢
صور لكتاب	٢٩٢
حالة الكتابة في هذا العصر	٣٠٥
فن التوقيعات	٣٢٠
ابن المفعع	٣٢٣
الحافظ	٣٣٤
النقد في العصر العباسي الأول	٣٧٤
خاتمة الكتاب	٣٧٩



مؤلفات وتحقيقات

د . محمد عبد المنعم خفاجي

ابن المعز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - مجلد
الأدب الاندلسي

الأدب الجاهلي (دراسة ونصوص)

الادب العربي وتاريخه في العصرین الامري والعباسي

اسرار البلاغة

الاسلام والغزو الفكري

اشعار الشعراء الستة الجahلين

اعجاز القرآن (للباقلانی)

الاقتصاد الاسلامي

البديع (لابن المعز)

التفسير الاعلامي للأدب العربي - مجلد

الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - مجلد

الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث

الحياة الادبية في العصر الجاهلي

الرؤيا الابداعية في شعر

احمد زكي ابو شادي

بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف

بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف

بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف

الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث

بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف

شاعر الشام خليل مردم
الفكر الاسلامي بين الاصالة والتجديد
فلسفة التاريخ الاسلامي
قصة الادب في ليبيا العربية
المختار من الحديث النبوى الشريف .
من تراثنا الخالد

تحت الطبع :

الأدب العربية في العصر العباسي الاول
الادب العربي الحديث ومدارسه
اعلام الادب في عصر بنى امية
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر
دراسات في الادب والنقد
دراسات في النقد الادبي
فصيح ثعلب والشروح التي عليه
قصة الادب في مصر
القصيدة العربية: دراسات ونقد
القصيدة العربية بين التطور والتجديد

